الدكتور كمال السامرائي

حديث الثمانين

الجزء الثالث

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد - ١٩٩٦

حديث الثمانين
سيرة وذكريات

الجزء الثالث

د . كمال السامرائي

- بغداد - ١٩٩٦

١ و٩٢٦
س ٢٨٤ السامرائي ، كمال
حديث الثمانين سيرة وذكريات / كمال السامرائي .. بغداد :
دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩٦

ج ٣ (٢٣٢ ص) ؛ ٢٤ سم .
١ - السامرائي ، كمال (طبيب)

أ . العنوان

م . و
١٤٤/ ١٩٩٦

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٤٤ لسنة ١٩٩٦

صيفه وشتاء على سطح واحد ايلول ١٩٦٠

هذا المثل شعبي مشهور، وحكايته معروفة، اما ما يخصني منه فله حكاية اخرى انقلها بصدق وامانة.

كان إبني (محمد) مولعاً بتربية طيور الحمام، فاشتري له مايريده منها كما استورد بعضها من خارج العراق بواسطة السيد (الجمالي) ومحله في حانوت يقابل كلية العلوم في الاعظمية، فجمع ابني محمد انواعاً غريبة من هذه الطيور منها الهنداوي الابيض، والهنداوي الرمادي والهنداوي الاحمر، (والحمام المفوّط) الغريب الالوان. وفي غيابي بلبنان من شهر تموز ١٩٦٠ سرق من برج حمام ابني خير مافيه من الطيور، وبعد وصولي الى بغداد اخطرتني دائرة مكافحة الاجرام الواقعة قرب (جامع المساف) ان احظر الى الدائرة المذكورة لاداء بيان عن سرقة الطيور، واستقبلني موظف هذه الدائرة شاب يرتدي قميصاً ابيض وسروالًا رمادياً واكرمني (باستكان) من شاي الليمون، وقال بلغة رقيقة.

ـ انا يادكتور اعرف جيداً كم انت مشغول، وانك بمجيئك الى هذه الدائرة تقوم بتشجيع اعمالنا في مكافحة الجريمة.

فقلت له

ان هذا واجب وليس لي فضل فيه، ولكني في الحقيقة لست الشخص الذي رفع خبر السرقة اليكم، انما الذي رفعها اليكم هو ابني وهو صاحب الطيور المسروقة، كما لم اكن يوم سرقت في العراق، بل في لبنان.

فعلق على كلامي قائلًا

ـ انا اعرف ذلك، ولا فرق جوهري ان جاءت الشكوى منك او من ابنك طالما باي منكما يتحقق الهدف

ولم اشأ ان اناقشه هذا القرار فاديت افادتي عن سرقة الطيور وانصرفت من غرفته، وهو يودعني بمثل مااستقبلني من التودد والتقدير، وبعد زهاء ثلاثة اشهر تقريباً وصلني امر من محكمة الكرخ الواقعة في شارع دمشق، ان احضر في الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء ١٩٦٠/١١/١٤ لادلي بمعلوماتي عن سرقة طيور الحمام من بيتي، وقدرت من هذا الاستدعاء ان دائرة مكافحة الاجرام قد القت القبض على

السارق . وحضرت في المحكمة في الوقت المحدد ، ووقفت بين حشد من الناس بانتظار ان ينادونني للمثول امام الحاكم في دائرته القضائية . وسمعت من ينادي باسمي وكانه دلال يسمى بضاعته لبيعها . ودخلت ديوان الحاكم ، ولم يكن فخما في نوعية اثاثه مع كثرته بالنسبة لحجم المكان وما كاد ذلك الحاكم يراني اعبر مدخل غرفته حتى كلمني بادب واحترام وكانه يعرفني اوانه استحضر لهذه المقابلة ما يليق بها او ما يليق بموضوعها .

ـ اهلًا بالدكتور ، كمال السامرائي ، تفضل

فقابلته قائلًا

ـ شكراً يافضيلة الحاكم .

ولما إستقر لي المقام على كرسي قريب من منضدته ، وكان ذلك الحاكم هو الذي أشار الى ان اجلس على ذلك الكرسي ، تبين لي بنظرة فاحصة ، انه في نحو العقد الرابع من عمره ، مكوّر الرأس وبحجم كبير ملحوظ ، وشعر جمته مقطوع بالحاح .

وتنحنح فضيلة الحاكم كافتتاحية لما يريد ان يقوله ، او ليثير انتباهي اليه ، وقال .

ـ ان هذه المقابلة ليست جزء من الجلسة القضائية التي ستنظر فيها لإصدار الحكم على السارق ، غير انني طلبتك لاقول لك مافي صدري فقلت له تفضلوا ، فقال

ـ انت الله مفضل عليك الكثير، اليس كذلك ؟

ولم اقاطعه بل قلت : الحمد لله ، فقال

ـ فكم يكون ثمن طيورك المسروقة ، عشرون ديناراً ؟ ثلاثون ديناراً ؟ اربعون ؟ خمسون ديناراً ؟ كم تساوي ؟

وشعرت حالًا ان هذه الاسئلة مقدمة لشيء آخر استحضره الحاكم ، فقلت له .

ـ انها سرقة بعرف القانون ، ولا يعني القانون باثمان الطيور المسروقة بقدر مايعني بالسرقة كحركة يعاقب عليها الجاني ، كما انني لست المشتكي يافضيلة الحاكم

وانتبه الحاكم الى هذه الافادة فسالني باستغراب

ـ من هو المشتكي إذن ؟

ـ ابني ، هو المشتكي

وبدا الانتصار على وجه الحاكم وهو يقول

ـ هذه مخالفة قانونية ان لم تكن قد ارتكبتها في دائرة مكافحة الاجرام !

فقلت له

ـ هذه ليست مشكلتي .

فقال الحاكم بعد ان سها قليلًا .

ـ ما علينا من هذا ، وانما اريد ان اسالك الا يؤلمك ان يحبس هذا السارق ؟ وتبقى عائلته الفقيرة محرومة من رجلها ؟ وهو معيلها الوحيد !

انصت الى هذا الحاكم باستغراب شديد اطاح بصوابي ، واسكتني طاعة للصفعة التي وجهها الى قلبي فتماسكت وقلت له

ـ ياحضرة الحاكم ، لاادري ان هذه المحكمة في دولة غير الدولة التي فيها دائرة مكافحة الاجرام . فالشاب المسؤول عن مطاردة المجرمين شكرني واثنى عليّ لاخبار ابني عن سرقة الطيور بينما حضرتك تعاتبني على متابعة الشكوى (وتابعت اقول له وانا انهض عن مكاني) ، قل ياحضرة الحاكم هل اقترف جريمة لو انني غادرت الآن دائرتكم)

وغادرت دائرة الحاكم فعلًا ، وعلى الدرجة الاولى من السلم الذي يوصلني الى فناء المحكمة احتضنني (شهاب الشيخ قادر) وهو يسألني ـ انتهت ؟

فسألته

ـ ماذا تقصد

ـ تنازلت في المحكمة ؟

ولا حاجة ان اقول انني ادركت حالًا ان الحاكم المحترم كان يعرف بعلاقتي بحاج شهاب الشيخ قادر ، وكان هذا يومها مدير ادارة تلك المحكمة ، فطلب منه ان يتوسط للمجرم السارق لأتنازل عن الدعوى . فقلت للحاج شهاب

ـ انت تعرف الطبخة إذن ؟

فاجابني

ـ في الحقيقة انه طلب مني ان اكلمك بعد أن عرف علاقتي بك ، فاعتذرت ان ادخل في هذا الموضوع .

وغادرت دائرة المحكمة ولم اتابع ما حل بالسارق .

واكثر الاحتمال انه نال حكم البراءة من ذلك الحاكم العادل .

لو كنت مسلماً آذار ١٩٦٠

دخل عيادتي بمستشفى السامرائي رجل بنحو الثلاثين من عمره بهيئة عامل نظيف ويصحبته إمرأة في مثل عمره وهيئته وكان يبدو على وجه ذلك الرجل الاضطراب والهم . وما ان استقر على الكرسي الذي اشرت ان يجلس عليه حتى بادرني يقول

ـ لو كنت مسلماً يادكتور لما التجات اليك ، ولعالجت أمري بأن اقتل زوجتي هذه

واستريح في السجن

فقاطعته وسالته !

ــ ما الامر يأخي

فاجابني دون اهتمام بسؤالي .

ــ اسمي (ص) بن شميا (وأضاف وهو يشير بيده الى المرأة التي كانت بصحبته) وهذه هي زوجتي هيلانة .

ــ وعملك

ــ (بوي) في محل عبدالله شريف على نهر دجلة في منطقة الأورفلية . وكانت زوجته ساهية وكأنها في عالم آخر ، ولم يبد عليها الاهتمام بالامر الذي قادها مزوجها الى عيادتي ، وسالت (ص)

ــ وما امرك يا (ص) ؟

فاجابني والغم على وجهه

ــ امري يادكتور ليس له مثيل ، (ومد يده نحو زوجته واضاف) وهذه هي اساس بلواي

ــ طيب اريد ان اسمع شكواك ان كانت مريضة

فاجابني وهو يعصر صدره لينطق .

ــ انا يادكتور اشتغل (بوي) في محل عبدالله ، ولا انتهي من عملي الا في الساعة الثانية او الثالثة صباحاً وما ان اغادر داري الى محل عملي حتى تقف زوجتي هذه على عتبة الدار وتدعو اي رجل في الطريق ليضاجعها ، والحراس الليليون عرفوا شانها وصاروا يدخلون اليها بالتتابع ليمارسوا معها الفحش .

والتفت انظر الى وجه زوجته فلم استبن منه الا سمات السكينة والادب ؛ واستنكرت ان تكون شبقية الى هذا الحد الذي وصفه زوجها ، فسالته

ــ وكيف اكتشفت امرها يا (ص) ؟

فاجابني

ــ اصبح ديدنها معروفاً لدى سكان محلتنا وهم الذين نقلوا اليّ خبرها .

فقلت له

ــ الا يجوز ان يكون ما نقلوه اليك افتراء لاحجة له ؟

فاجابني

ــ لا يادكتور كبستها متلبسة بهذه العملية الشنيعة ، ونهض الرجل عنها وهرب . فاشبعتها ضرباً وركلًا ، وكان عليّ ان اقتلها ، ولو كنت استطيع ذلك لقتلتها في الحال ،

والطلاق عندنا محرم ، وهي ابنة عمي ويتيمة ، فكتمت غيضي بعد ان اقسمت لي ان لاتعود الى خطيئتها الكبيرة ، غير انها لم تف بوعدها ، واخيراً صارحتني انها لاتستطيع الصبر عن مجامعة الرجال .

وسألته

— ومن ارشدك اليّ دون غيري من الاطباء ؟

فقال لي

— صارحت (استاذي) عبدالله بهذه المشكلة فنصحني ان استشيرك على اعتبار انها مريضة عقلياً

فقلت له

— ان حالتها ليست من اختصاصي ، وربما استاذك عبدالله ارشدك الى الدكتور علي كمال فالتبس عليك هذا الاسم وهو ماقصده استاذك عبدالله

فقال لي بتوسل وجزع

— انا ما اعرف ، واطلب مروتك

ولا ادري كيف خضعت لتوسلاته ، فادخلت زوجته في الردهة الحادية عشر التي اشرف عليها في المستشفى الملكي واستدعيت الدكتور علي كمال المختص بالامراض النفسية لفحصها ومعالجتها ، وصار الدكتور علي يزورها في الردهة بين يوم ويوم . غير ان ماحدث بعد يومين هو ان مدير المستشفى الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي خابرني تلفونياً وطلب مني ان اخرج هذه المريضة من الردهة ، ولما سألته عن السبب اجابني

— ان الخفراء في ردهات المستشفى صاروا يتناوبون على مضاجعة هذه المريضة في كل ليلة ، بين اشجار المستشفى .

وضحك الدكتور الجوربهجي وضحكت أنا معه ، واقفلت التلفون وطلبت من ممرضة الردهة أن تخرج هذه المريضة منها حالاً .

دكتور داود كباي ١٩٦٠/٣/٤

قضيت ليلة متعبة بعملية احتجت فيها الى نقل لترين من الدم الى المريضة ، والحصول على دم يلائم دم المريضة لم يكن في تلك الليلة بالامر الميسور . فاستيقظت في صباح اليوم التالي متأخراً ، وكانت ستائر حجرتي مسدلة لكنني استطعت ان ارى من بين شقيها نور الشمس يغمر ارجاء حديقة بيتي ، فتململت بتكاسل ، وسرعان

مافطنت الى انني في يوم جمعة ، فارجعت رأسي الى الوسادة ، وانقلبت على جانبي واغمضت عيني لاعود الى النوم ، وفتحت عيني على نقر على باب حجرتي ، واذا بزوجتي تقول :

ــ استيقظ ، الساعة العاشرة ودكتور كباي يريدك على التلفون .

ومرّ بخاطري الدكتور داود كباي ، زميلي في المدرسة الثانوية وكلية الطب على مدى ستة سنوات فيها . ولكني استبعدت ان يكون هو نفسه اذ اني لم اره ولا سمعت عنه منذ تخرجنا في كلية الطب سنة ١٩٣٨ فالتحقت انا بكلية الطب ، وعيّن هو بأحد اقضية القطر . فنهضت الى التلفون وانا استبعد ان يكون صديقي داود كباي هو نفسه على التلفون ، وتذكرت حالًا اخاه الدكتور انور كباي وهو ايضاً احد زملائي في كلية الطب ، واكبر حجماً وعمراً من اخيه داود ، كما كان كث الحاجبين والشعر ، داكن البشرة خلافاً لاخيه الدكتور داود الصغير الحجم والوردي البشرة ، كما كان ذا صوت رفيع كانه يخرج من صافرة حكم لعبة كرة القدم . ووصلني صوت دكتور داود من خلال التلفون وكأنه في هذه المرة ينفخ في صافرة عاطلة .

ــ دكتور كمال ؟ انا داود كباي

فاجبته بصدق ولهفة

ــ اهلًا بك ياداود ، وانا اشتاق لمقابلتك

فرد عليّ قائلًا

ــ انا اريد مقابلتك ، وانا اعتذر ، فهذا يوم جمعة ، يوم راحتك

ــ اين انت الآن ؟

ــ في مستشفى السامرائي

ــ انتظرني ولن اتأخر طويلًا .اريد ان اراك

وقابلته بعد نصف ساعة وبدا لي داود اكبر عمراً مما هو في ذاكرتي حتى باعتبار السنين التي مرت على افتراقنا ، ولكنه كان بذلك القوام الرفيع والرأس المكوّر الذي بدا لي اكبر مما يجب بالنسبة لحجم بدنه . وتلاحمنا بالاحضان والقبلات لاشم منه نكهة ايام التلمذة الماضيات . قلت له

ــ انا سعيد برؤيتك ياداود ، ظننتك سافرت كما سافر انور الى إسرائيل ؟

فقال لي

ــ لم اترك العراق منذ خروجنا من الكلية الطبية ، وقد عملت بعد ذلك في اكثر من خمسة مدن في العراق ، آخرها في العمارة ، وانا الآن طبيب في مستشفى هذه المدينة (ثم اضاف فجاة) ماعلينا من ذلك وانما جئت اسالك فيما اذا كان بالامكان مقابلة

الزعيم عبد الكريم قاسم ؟

فاستغربت من سؤاله الذي بدا لي وكانه يريد مني ان اكون وسيطاً له لمقابلة عبد الكريم قاسم ، فقلت له :

ــ اذا كنت تعتقد ان باستطاعتي ان اوصلك اليه فانت واهم :

فقال لي ببساطة وهو يتجاهل إعتذاري .

ــ ساطلب مقابلته بنفسي

وبقى استغرابي من فكرته فقال لي

ــ وما في ذلك ، الم نكن طلاباً في صف واحد في الثانوية المركزية ؟

فقلت له

ــ كنا طلاب صف واحد ، ولكنه هل يذكر كل واحد منا بالذات ، واذا كان يذكرنا فهل لديه وقت لمقابلتك ؟

فاجابني وعليه سيماء الامل

ــ ساحاول ، فان رفض مقابلتي فلا ضير من ذلك عليّ .

ــ حسن ، وماذا تريد من مقابلته ؟

ــ عندي سبب مهم

ــ قل لي ، ما هو السبب ؟

فقال لي

ــ داهمت الشرطة بيتي ، واخذت منه مايزيد على الواحد وعشرين الف دينار ، كما إتهموني بالتجسس لحساب اسرائيل ، ثم افرج عني بكفالة

فابديت له استغرابي ان يخزن في بيته هذا المبلغ الكبير .

ــ ولماذا ابقيت هذا المبلغ في بيتك ولم تضعه في البنك ؟

ــ هذا شيء آخر ، وساشرحه للزعيم عبد الكريم اذا توفقت الى مقابلته .

فقلت له .

ــ باي حال اذا استقبلك الزعيم فارجو ان تخبرني عما سيدور بينكما . وعاد اليّ داود بعد يومين بوجه باش فهمت منه نجاحه في مقابلة عبد الكريم قاسم ، ومع ذلك سالته

ــ حمامة لو غراب ؟

فأجابني

ــ حمامة ونص ، فقد استقبلني من باب دائرته مرحباً ، وامر لي بقهوة ، ثم شرع

يستذكر معي بابتهاج ايام المدرسة الثانوية ، وسالني اخيراً عما يمكن ان يقدمه لي من مساعدة ، فعرضت امامه ورقة ضمنتها شكواي عن المبلغ الذي اخذته الشرطة مني والاتهامات التي وجهتها اليّ ، فاخذ الورقة من يدي ، وقرأها ثم كتب في آخرها عبارة (يعاد المبلغ الى الدكتور داود ، فانا اعرفه ولايمكن ان يتجسس على الدولة) ثم نادى على مرافقه وصفي طاهر وامره ان يتابع الامر مع الجهات المختصة بنفسه

سمعت كل ذلك من الدكتور داود كباي ، بكثير من الدهشة والتعجب ، وهنأته على توفقه في مقابلة عبد الكريم قاسم والمساعدات التي حصلها منه . وبعد اسبوع سمعت انه نزح من العمارة الى بغداد ، واتخذ لنفسه عيادة خصوصية في الشارع المشجّر (بستان الخس) وان عيادته مفتوحة لإستقبال المرضى الى ساعات متاخرة من الليل . وبعد نحو شهرين زارني الدكتور داود ، وعاتبته على إنقطاعه عني . وكان بيني وبينه في ايامنا الاولىٰ مزاح ، فاعبيه على (حبّة بغداد) التي قرضت بعضاً من ارنبة انفه ، فالقبه بالاقجم

— اين انت ياالاقجم ؟

فاجابني باعتذار

— مشغول الى حد لايصدق !

— مشغول باي شيء

— فتحت عيادتي في شارع المشجر واعمل بها اكثر ساعات اليوم .

ولم أرَ الدكتور داود بعد زيارته الاخيرة القصيرة الخاطفة إلا بعد مرور خمس سنوات تقريباً ، وكان ذلك يوم كنت استقل فيه قطار تحت الارض في لندن من محطة (كلوستر رود) ، ولم اعرفه لاول وهلة ، بل هو الذي عرفني اولًا ، إذ كانت عربة القطار التي صعدت اليها مزدحمة بالركاب بشكل خانق ، فصرت صدراً الى صدر مع الدكتور داود ، واذا هو يتساءل في وجهي وعيناه تركزان النظر الى عيني ، وقال لي

— كمال ، ام انني مخطيء ؟

ودفعته قليلًا عني ، وفجاة عرفته ، فقد تغير فيه كل شيء الا صوته الرفيع المخنوق . فاجبته

— نعم انا كمال ، وانت داود

— ما اغرب هذه المصادفة وما احلاها وما اسعدني بها .

وخرجنا من تحت الارض الى محطة (بيكادلي) . وصرنا نتحدث بمتعة وشوق ونحن نخطو الى مقهى (ريجنت) في ساحة بيكادلي . وسالته

ـ كيف انت ياداود ، وماذا تعمل ؟

ـ اعمل ممارس عام (G.P) كما اشارك في جمعية طبية للاجابة على النداءات الطبية العاجلة في الاسعافات الاولية .

ـ وماذا عن دكتور انور ؟

ـ في اسرائيل ، وهو يحاول ان يأتي الى لندن .

ووصلنا الى المقهى ، وفيها استمتعنا باحاديث متبادلة عن ماضينا في المدرسة الثانوية والطبية ببغداد ، ونهض يقول .

ـ اعمل تلفون ليحل محلي طبيب آخر في العيادة الخارجية

وعاد اليّ يقول

ـ وجدت من يقوم مقامي مساء هذا اليوم .

وبقيت معه حتى وقت الغذاء حيث دعاني اليه في المقهى نفسه

ـ يا ليتني اعود الى بغداد باكمال . انا وضعي هنا في لندن فوق الجيد ، ولكن الحياة هنا تنقصها مايجعلها سائغة ودافئة وعائلية .

ـ وسألته : تزوجت ؟

ـ تزوجت عراقية ، بنت صيون زلخة ، والعائلة تعرفها وهم يعرفونك ويذكرونك ، وزوجتي في (برايتن) والا اخذتك الى البيت لتراك ، فذلك يسرها بالتاكد

ـ بلغ تحياتي اليها .

لقد استمتعت فعلًا بلقاء داود كباي ، وقد اندمجنا في استذكار بعض الاحداث في بغداد بمتعة وكاننا عدنا اليها بتلك الاعمار .

وافترقنا ولم اره بعد ذلك

الاستاذ الوتري والاستاذ قصير / ١٩٦٠

طلبني الاستاذ هاشم الوتري الى عيادته قرب (العبخانة) مساء يوم ١٩٦٠/٣/٦ . وكان حين دخلت عيادته يستمع الى زميله الاستاذ عبدالله قصير وهو يتحدث اليه بلهجة نصوح ، والوتري يومئذ قد بان عليه العمر المبكر واتعبته حياته العامة والخاصة ولكنه استمر يذهب الى عيادته . وكانت هذه العيادة مكتبته الثانية فضلًا عن مكتبته في بيته العامرة بالكتب ، فكان في مكتبة العيادة خليط من كتب ومستلات ومجلدات مكدسة على رفوف تصل الى السقف ، وهي عموماً الفائض من مكتبة بيته . كما كانت خريطة الادريسي تغطي الجدار الذي خلف منضدته الكتابية . وثمة مكبرة يدوية وعظام جمجمة بشرية على جانب من هذه المنضدة . فكان هذا

التكوين يشكل محيطاً علمياً يتناسق مع هيئة الاستاذ الوتري ومخبره .
دخلت عيادة الاستاذ الوتري فوجدت لديه ضيفاً وهو الاستاذ قصير ويبدو انهما كانا في حديث كادا ان ينتهيا منه ، فقد سمعت الاستاذ قصير يقول :
ـ وعلى هذا فانا ارى ان لاتتعب نفسك ياستاذ هاشم بالمجيء الى العيادة بانتظام ، والتحدث مع المرضى وفحصهم ومايتبع ذلك امور تتعبك ، ارى ان تتجنبها .
اما الاستاذ الوتري فقد بدا لي غير منصت له بل كان في عالم آخر مع نفسه ، ثم قال وهو يمر باطراف انامله على شفته العليا
ـ هذه ليست المرة الاولى التي تنصحني بغلق عيادتي ، فاعلم ياصديقي عبدالله ان مقابلة المريض بالنسبة لي هواية وذوق ، وان ممارسة الطب جزء مني ، وهي الجزء الحي في هذا العمر ، فاذا استقطعته توقفت حياتي .
ثم سكت الاستاذ الوتري ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ، حتى غادر صديقه الاستاذ قصير . ثم التفت نحوي وقال وهو يبتسم بتهكم
ـ انا لست وراء الكسب من هذه العيادة يا كمال ، بل انا وراء المريض لاكلمه ويكلمني ، ولذلك جعلت اجرة فحص المريض اكثر مما يدفعه لغيري من الاطباء . واستقبال مريض واحد او مريضين في الاسبوع ينعشني ويزودني بقوة في التفكير والحركة .
وصدق الوتري بالتاكيد ، وهذا شان كبار الاطباء الذين كانت لهم مقابلات قليلة مع المرضى في سنين طوال ، ولاانسى حين اقمت حفلة توديعية للاستاذ جلال العزاوي في نادي المنصور بمناسبة إحالته على التقاعد ، وقد تكلم فيها اثنان من الاساتذة فكان على الاستاذ العزاوي ان يقول كلمة تناسب موقفه في هذا الحفل ، وهو كما يُعرف عنه لايجيد الكلام بصحيح العبارة ، فقام واطال الوقوف واخيراً نطق وهو واقف ينظر الى الارض وقال
ـ انا اشكر كل واحد منكم ، ومتاسف لانني سابتعد عن العيادة الخارجية في المستشفى الملكي التي كانت لي مرتعاً لروحي ونشاطي ، المريضات الفقيرات وامهات (العباية) عالم خاص يجتذبني اليه ، فعرفته وعرفني ، واحببته واحبني ، ولااظنني ساجد لي بديلًا عنه ثم قال جلال العزاوي بلهجة عاطفية (انا ياإخواني لااستطيع ان اعيش بغير مرضاي ، وساعود الى العيادة الخارجية من غير راتب . وتابع الوتري يقول):
ـ نعم ان العيادة للطبيب الذي يهوى مهنته حب وميل لايقاوم رغم مشاكلها الكثيرة ومسؤولياتها الحياتية الجسام ، وانا انتشي حين اسمع المريضة تدعو الله

القدير لي بالعافية والعمر المديد . كما كنت في ايامي الاولى بالطب اغار اشد الغيرة اذا اكتشفت ان مريضتي اهملت تناول ادويتي لتتناول ادوية طبيب آخر استشارته بعدي ، فاعلم انني لم أرضِ مريضتي كما تريد ، وارضاء المريضة حتى في امور بعيدة عن صلب مرضها جزء من الطبابة الناجحة ، واستقبال المريضة عند باب عيادتي وتوديعها اذا غادرت لاأعده تملقاً لكسب دوام المريضة على مراجعة عيادتي بل هو من صميم ممارسة المهنة

والتفت الاستاذ الوتري نحوي وعاد يقول

— دكتور قصير على وهم .

صديقي الدكتور (ن) / ٨ ايلول ١٩٦٠

كان (ن) من اصدقائي في الثانوية المركزية وفي كلية الطب ولم نفترق الا حين عين هو طبيباً في الديوانية بينما عينت انا في المستشفى الملكي .. غير اننا صرنا نتلاقى في اوقات لم تكن متباعدة وحين زارني في هذا اليوم افزعني نحوله ، ولم انته من الترحيب به حتى سألته عما دهاه ليكون بهذا الضعف ، فراوغ ولم يجبني على انه كان لايزال بادى الحيوية في عينيه غير ان ارتجافاً قد دب الى اصابع يديه فكان يبسطهما ويقبضهما باستمرار ليخفي ارتعاش كفه . كما رأيته يستنشق دخان سكارته بتلاحق . ولم يسألني في هذه المقابلة عن اهلي واولادي كما اعتاد ان يسأل في بداية لقائنا كذلك انتبهت الى عدم اهتمامه بقيافته ونظافة قميصه لقد اختفت شخصية صديقي (ن) ولم يبق منه الا جسده ، وسألني فجاة عما اذا كان ثمة مانع ان نتناول عشائنا في احد مطاعم شارع ابي نؤاس فقلت له اذهب معك الى حيث تريد ، ثم شرع يصف لي المطعم الذي يريد ان يتناول فيه العشاء وانا اعرف انه فعل ذلك ليلهيني عن السؤال عن خصوصياته الاخيرة . ودرجت بنا السيارة في شارع ابي نؤاس ، ولحظة اردت ان اسأله عن المطعم وقد قطعنا مسافة طوية في هذا الشارع قال لي فجاة

— هذا المطعم الذي اقصده .

فاوقفت سيارتي عند مدخله ولم يكن على ناحيته لافتة باسمه . وولجنا الى داخله فاذا مساحة واسعة من الثيل المهمل وعلى جوانبه اشجار عالية من اليوكالبتوس وتحتها بعض اشجار من النارنج الهزيلة ، علقت على بعض اغصانها مصابيح كهربائية خافتة ، وبعض رؤاد يقهقهون ويتحدثون بصخب

وتقدمني (ن) الى مائدة منعزلة كما لو انها عزلت لنا في ذلك الركن بالذات ، وقال :

ـ ان هذا المكان يروق لي ، وارتاح اليه حتى لو كنت وحدي فيه والذي دفعني الى معرفته قبل اسبوعين عدم وجود لافتة باسمه

وسالته

ـ انت تعرفه اذن ؟

ـ جئت اليه مرتين ، وهنا نستطيع ان نتكلم بحرية ، فالمطاعم الاخرى صاخبة ، والموائد متقاربة .

وتقدم منا النادل ووقف الى جانب الدكتور (ن) كما لو كان احد اصحابه لا زبوناً عابراً في هذا المطعم ، ثم حياني فعرفته حينذاك من بدانة بطنه وخشونة صوته ووجهه المتورد بانتفاخ . كان هذا الرجل يعمل في مقهى (الصالحية) بجانب الكرخ ، يوم كنت انا وصديقي الدكتور (ن) وغيرنا من طلاب الكلية الطبية ، فندخل ذلك المقهى وننعزل تحت احد مصابيحها لنقرأ في كتبنا ، فيتقدم منا هذا النادل متودداً ويلبي طلباتنا المتواضعة بسرعة .

وسالني صديقي (ن)

ـ عرفته ؟

فابتسمت لهذا النادل وحييته دون ان اسميه ، فسالني

ـ دكتور ماذا تامر ؟

فقلت له

ـ إسال الدكتور (ن) اولاً .

فقال لي انت الضيف ، وهو صاحب المحل .

فقلت له

ـ اشرب بيرة

فالتفت الى النادل ، وقال له

ـ كالعادة بالنسبة لي

وسالت صديقي

ـ ماذا تقصد كالعادة ؟

فاجابني

ـ عرق مسيّح .

ولم اكن اعرف او بالاحرى انتبه الى ان صديقي يشرب كثيراً ، فما إن يجرع كاسه حتى يترعها بثانية وثالثة تباعاً فياتي على نصف قنينة العرق التي طلبها ، غير انه بقي مسيطراً على اعصابه وحركاته وحديثه . فقلت له

ــ لم اعلم انك شرّيب يا(ن)

ــ انا لااشرب العرق في النهار الا نادراً ، افضل البيرة في النهار ، نعم اشرب في الليل بكثرة لكي يغلبني النوم فلا اشغل بالي بشيء .

وشرع دكتور (ن) يتكلم بتلاحق ، وليس في موضوع واحد ، ويكثر من الحسرة على ايام التلمذة ، واحياناً على ايام العزوبية . اما عن اعماله في الطب فلا يذكر منها الا ما أصابه بسببها من حيف ، وهو لايفتأ يكرر (ليس في خارج بغداد طب متكامل ، فلا امكانيات مختبرية ، ولا ادوية نوعية ولا ادوات تشخيص . ويسجل المفتشون هذه النقوص ويرفعون تقاريرهم (كما يدعون) الى المسؤولين دون جدوى) ويتريث حديثه في هذا المجال وسالته لاصارحه عما يدور في رأسي عنه

ــ يا(ن) ماذا يشغل بالك ؟

فاجابني بتردد

ــ شكاوٍ كثيرة عني من بيتي ومن دائرتي ، ولي شكاوي اكثر على هؤلاء ، ولا اعرف ماذا اعمل .

وقطب جبينه ، وترقرقت الدموع في عينيه ، واهتز كل جسمه فآلمني ان اراه بهذا الوضع ، فقلت له .

ــ تكلم ياعزيزي ولاتخفي شيئاً عنّي فقد ترتاح ان فعلت ذلك .

فاجابني وهو ينظر الى وجهي

ــ لايريحني شيء ياكمال ، (ثم سكت قليلاً وقال) ان كل مايسبب لي من الم هو من صنعي فلاتحمله دون تذمر .

ونهض فجاة ، وبتر حديثه معي

ــ يكفي ما سمعته مني ، ولا اريد ان اسمعك اكثر .

ونهضنا لنغادر المقهى ولم نمكث فيه اكثر من نصف ساعة وفي السيارة لم يفتح احد منا فمه .

وحين ترجّل من سيارتي قلت له

ــ انا بعد بكرة مسافر الى لبنان

ولم يقل شيئاً وكانه لم يسمعني ، وافترقنا .

الدكتور هاشم الوتري في بيتي ٢٠ آب ١٩٦٠

زارني في بيتي الملاصق لمستشفى السامرائي ، الاستاذ هاشم الوتري ومعه صديقي الدكتور اسماعيل ناجي ، وكنت صممت هذا البيت بنفسي ، وادخلت في بنائه بعض اللوحات الزخرفية وخصوصاً في اشكال المنافذ التي نقلتها عن الزخارف الجصية التي كنت رأيتها في اطلال سامراء ، وابدعت في تصميم المدفاة (الاوجاغ) وبنائها بحجر الحلان الموصلي ، فاعجب بها الاستاذ هاشم الوتري ، واطال النظر اليها وعلى وجهه تعبير من يريد ان يقول شيئاً ، ونهض وخطا في الصالون لينظر اليها من بعيد ، ثم اقترب منها واقفاً وهو يقول لي

— كمال ، هذا شيء جميل ، وان تصميمها يوحي بالدفء حتى لو لم تكن فيها نار موقدة ، والعامل الذي نحت حجارتها فنان مقتدر . (وسكت قليلاً) ثم عاد يقول وهو يمر باصبعيه على شفته العليا ، وهي عادته اذا خلا بنفسه يفكر ، ثم قال

— ليس مكان هذه المدفاة في هذا البيت !

واستغربت من هذه الملاحظة ، غير اني مالبثت ان ارتحت لها حين إستطرد يقول :

— يجب ان تكون هذه المدفاة في محل عام ؛ نادٍ او قاعة شعبية يدخلها عامة الناس ومن كل الطبقات ، انها درس مفتوح ميداني لتربية الذوق والاناقة . وفهمت قصده وعددته ثناء على المدفاة وبالتالي على شخصي وهاشم الوتري له ذوق رفيع في ملبسه واثاث بيته وفي حديقته . وهو اول من امتلك سينما خصوصية من اهالي بغداد ، يعرض بها بعض الافلام التي يستوردها من لندن ، واول من استورد الى حديقته اوراد الزينة من مشاتل فرنسا ، واول من ابتنى حوض سباحة في بيته .

وعاد هاشم الوتري يكلمني عن المدفاة ،

— كمال ، هذه المدفاة كالمرأة الجميلة ، وكلاهما يجب ان لا يستأثر بهما بيت واحد ، ورجل واحد ، بل يجب ان يُعرض جمالها للناس عموماً . واستطرد يقول وهو يوسع إبتسامة على فمه .

حين خطب الامير مصعب بن الزبير ، عائشة بنت طلحة ، وكانت من جميلات نساء العرب ، اشترطت عليه ان لاتحجب وجهها عن الناس ، فنعمة الله عليها بالجمال يجب ان لاتخفى عن عباده .

وأضاف هاشم الوتري

— وقبل مصعب بن الزبير بشرطها وتزوجها . وهذا هو سلطان الجمال في المرأة

وبعد بضع سنوات شيّد الاستاذ الوتري داره في عرصات الهندية المطلة على نهر دجلة . وزرته لابارك له داره الجديدة ، وكان في صالونه مدفاة مشيّدة من الطابوق المشوي ، وعلى طول غطائها جذع شجرة متناسقاً معها ومريحاً للنظر ، فقلت له وانا أشير الى هذه المدفاة

ــ هذه مدفاة تفوق المدفاة التي في بيتي روعة وابداعاً .

ــ ساطلب من يحفر على هذا (الجذع) آية كريمة (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ثم اردف يقول لي .

ــ تعال ارك شيئاً آخر في هذا البيت مكملًا لهذه المدفاة ولو على النقيض ، كما يكمل الليل النهار في اليوم الواحد ، وهكذا في بيتي نقيضان متلازمان . واخذني الى حديقة داره الخلفية التي كانت اعلى من ارض بيته ، وبينها وبين البيت سطحية ليست واسعة ، يسمع من جنوبها خرير ماء يتدفق من بين صخور مدفونة تحت الحديقة ، فقلت له

ــ استاذي ، ان هذا شيء جميل حقاً ، ومبتكر ، فكان الماء يتدفق من عيون في عمق جبل .

وهاشم الوتري سريع الجواب بما لايقاطع سياق الحديث ، فقال

ــ الماء يجلو الحزن ، وفي هذا المكان اخلو مع نفسي لاقرأ او اكتب ، او لكي لااعمل شيئاً .

علي صائب والماسونية / ايلول ١٩٦١

هو من شباب الاكراد الطيبين ، وقد دخل كلية الطب سنة ١٩٣٤ فلم ينجح فتحول الى كلية الحقوق ، وبعد تخرجه منها إنخرط في السلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية العراقية ، وقد تعرفت عليه في مناسبات اجتماعية كثيرة ، وتعمقت علاقتي به بعد زواجه من احد قريبات زوجتي . وهو دمث الخلق ، وذو شعر كث يجلل رأسه ، وحين عرفته كان قد سقط شعر رأسه الا من جانبيه . وسالته يوماً عما دفعه للانسحاب من كلية الطب فاجابني بلكنة كردية

ــ بابا ، كلية الطب دوّختني وكأني اعيش في سوق الصفافير ،

وأنا اعرف انه رسب في دروس الصف الاول ففصل بحسب نظام الكلية . ولكنني لم اقل له ذلك . وذات يوم من شهر ايلول سنة ١٩٦١ طلب مني تلفونياً ان ازوره في دائرته بوزارة الخارجية التي كانت يومئذٍ قبالة سجن بغداد المركزي . وحين دخلت الى

غرفته نهض لي مرحباً بتكرار ، ثم اتجه نحو باب الغرفة واغلقها ، وبادرني يقول

ـ دكتور كمال ، انا اكنّ لك تقديراً خاصاً ، وانا اعرف ان لك هواية في اقتناء الاشياء القديمة

ثم نهض وخطا نحو باب خزانة مركونة الى جانب نافذة الغرفة ، واخرج منها سيفاً قديماً بلا غمد ، وقال لي

ـ هذا من سيوف (آل رشيد) بنجد ، وقد أهداه لي صديق سعودي وانا أهديه اليك

فاخذته من يده وقلبته وهززته بيدي واعجبت به فشكرته على هذه الهدية التحفة . وبعد لحظات سكوت وهو يبتسم تعبيراً عن امتنانه من قبولي لهديته ، قال

ـ دكتور كمال ، عندي فكرة اعتقد انها تعجبك ، وانا مكلف ان اعرضها عليك ، واقول لك بصراحة انا (ماسوني) ، وقد وجدت في هذا التنظيم فوائد كثيرة واهداف نبيلة ، وهو لاكما يشاع عنه من اعمال الساسة الانكليز ولخدمتهم ، بل هو تنظيم انساني واجتماعي من درجة عالية ، وستكسب منه الكثير لو انضممت اليه .

ولم تبعدني المفاجأة في حديثه عن الاصغاء اليه بكل احساساتي ، وانا اوازن فيما بين مايقوله لي صديقي على هذا التنظيم من حسنات وما اعرفه عن هذه المنظمة من سيئات ومقالب اقلها الكتمان الشديد في اصولها وما فيه من تعليمات وضوابط ، فقلت له وانا اضحك :

ـ حبيبي علي ، انت طلبتني لتهديني هذا السيف لا لتطلب مني الانضمام الى الماسونية ، فارجع هذا السيف الى مكانه في الخزانة ، فانا لااريده ولا اريد ان انضم الى الماسونية .

ولما ادرك علي تصميمي على اتخاذ هذا الموقف ، تراجع بخيبة ظاهرة وهو يقول لي :

ـ لاعلاقة بين هديتي والانضمام الى الماسونية ، فانا احفظ لك هذا السيف منذ زمان .

وكانت عيناي لاتنفكان تنظران الى ذلك السيف النفيس ، فقلت له :

ـ إذن هذا السيف لي دون مقابل

فقال

ـ طبعاً دون مقابل ، ان اردت

وغادرت غرفته ، وهو معي يحمل السيف ليضعه الى جانبي في السيارة .

وفاة الدكتور هاشم الوتري / ١٩٦١

في ظهر اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٦١ كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والشمس لاتطل برهة حتى تعود وتختفي بعد قليل ، وبوادر المطر تقترب زاحفة بسرعة ، في صباح هذا اليوم توفي استاذي هاشم الوتري عن عمر بحدود ثمان وستين سنة ، وحين ذاع خبر وفاته وصلت بالتتابع عشر سيارات تقل اصدقاء الفقيد لتقف بغير انتظام امام داره . وترجلوا منها وتوجهوا مسرعين الى داخل بيت المتوفي توقياً من المطر ، وكان اكثر هؤلاء من آل الوتري او اصدقائهم واقلهم من زملاء الفقيد في كلية الطب ، وحين حمل جثمانه الى سقف السيارة ازداد هطول المطر فاسرع المشيعون يتقوه بالدخول الى سياراتهم ، بينما كان بعض منهم يثبتون النعش على سقف السيارة ، ودرج الموكب متعجلًا حزيناً نحو مقبرة (آل الوتري) الواقعة على تل ترابي قرب (كمب الارمن) ، وما كدنا ندلف الى المقبرة من بابها الوسيع تحت لافتة صغيرة تشير الى تبعية هذه المقبرة الى آل الوتري حتى توقف المطر ، وكأن السماء قد فعلت ذلك إحتراماً للمتوفي المسجى في النعش ، وتقديراً لمن يودعونه الى مثواه الاخير .. ولما وصل نعش الجنازة الى حفرة القبر التي تبعد بضعة امتار عن مدخل المقبرة ، بدأ الحفارون يكشطون بمساحيهم قانورات البشر المتناثرة على ساحة المكان ليقف عليها المشيعون ، ولاريب ان هذا المنظر المقزز والمخجل قد لفت نظر الاستاذ (هاريكريفرز) صديق ساكن القبر ، وقد يكون ايضاً قد قارنه في سره بمقابر بلده النظيفة والمحاطة اكثرها بسياج من الزهور واشجار الزينة ، وماكدنا نواري استاذنا الوتري التراب ونستعد لمغادرة المقبرة حتى عادت السماء تمطر مدراراً ، فهرول المشيعون الى سياراتهم وهم يلتفتون الى فقيدهم الذي واروه التراب .

رحم الله استاذي الدكتور هاشم الوتري واسكنه جناته الفسيحة .

يوم اربعين الوتري .

في صباح ١٩٦١/٢/٦ ادركت كم هو القبر موحش ، وكم كان سريعاً ماينسى المرء احباءه ، وزملاء عمره ، واساتذته ، وذوي الفضل عليه ، اذا توفاهم الله .

هذا اليوم هو (الاربعون) بعد وفاة الاستاذ هاشم الوتري ، احد مؤسسي كلية الطب ببغداد ، والمعلم الاول في الطب الباطني فيها ، فارتأت عمادة كلية الطب ان تقيم له حفلًا تأبينياً بمناسبة هذا اليوم ، فاقامت الحفل في قاعة السينما بالكلية ، وهي القاعة التي بناها الاستاذالوتري ايام عمادته في الكلية ، وهي اكبر قاعات الكلية

لتستوعب من يحضر هذا الحفل من زملائه وطلابه . وكانت مفاجأة غريبة ان يكون عدد من حضر الحفل من القلة مايستدعي العجب ، كان من الحاضرين زميل له في المجمع العلمي العراقي هو الاستاذ منير القاضي ، ونقيب الاطباء الدكتور كمال عارف ، وعميد كلية الطب الاستاذ الدكتور احمد عزت القيسي . وعدد قليل جداً من اساتذة كلية الطب وطلبتها . وكان اول من تكلم في تابين الفقيد الاستاذ منير القاضي فقال في فاتحة كلمته انه كان يحث سائق سيارته ان يسرع ليصل الى هذه القاعة ، فقد (لاأجد كرسياً شاغراً لي اذا تاخرت عن الوصول اليها مبكراً ، فاذا بالقاعة تكاد تكون خاوية بالنسبة لسعتها وعدد كراسيها) ثم تكلم بجد وألم عن فقد زميله الوتري لمكانته العلمية في المجمع العلمي ، وطلب له الغفران من الله تعالى (ثم اضاف يقول) والغفران والرحمة لمن لايفي لاساتذته وزملاءه ، وهذه الاشارة مفهومة

ثم تكلم عميد كلية الطب ، واراد ان يثني على المرحوم الوتري كاحد اساتذة الكلية ، غير انه للغرابة ثلبه واعابه (باحاطة نفسه باصحاب السوء) وبدأ الاستغراب على الحاضرين اذ لاينكر الموتى إلا بمحاسنهم وافضالهم ، فكانت عبارته لاتناسب المقام ، وتدعو الى الاستهجان .

ثم نهض نقيب الاطباء ، فاذا صوته لايسمع او سمع منه مالا ترابط بين عباراته .

لقد كان الحفل مع الاسف بارداً لم يظهر فيه ما يدل على العرفان بالفضل والجميل للفقيد الوتري وتفرق من حضر الحفل وكأنهم خجلون مما فشلوا باقامته لميتهم الاستاذ الكبير هاشم الوتري .

دردشة مع سيدة من بيت خيرالله بلبنان / ١٩٦١

وصلت الى بحمدون بلبنان ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٤ تموز ١٩٦١ وفي مساء ذلك اليوم ، انحدرت من غرفتي بفندق الكرمة الى السطيحية المطلة على الشارع واخذت مكاناً في احد اركانها .

وتقدمت مني في هذه اللحظات زوجة ميشيل صاحب الفندق وعلى وجهها رغبة من يود التحدث اليّ ، فرأيت ان أجاملها . فسألتها .

ــ كيف الشغل بهذا الموسم يامدام ؟

فاجابتني

ــ بلشنه العمل (بالكرمة) في ايلول الماضي ، يعني في اواخر الموسم ، والفنادق في

لبنان لاتعمل اكثر من ثلاثة اشهر
ــ وباقي الاشهر ؟
ــ مافيها شيء يسوى ياحكيم
ــ وكم اجار هذا الفندق يا مدام ؟
ــ سبعماية الف ليرة ، والحكومة تقرضنا وندفعها لهم سنوياً .

واعرف ان اول فندق في بحمدون هو (فندق خيرالله) وخيرالله مؤسسة ، ثم اسس اولاده فندق مكسيم ، ثم فندق (سبلنديد) وآخرها فندق (الكرمة) وجميعها باجر سنوي اما الفندق الاول فانه ملك العائلة ، ويديره الابن الاكبر (كاميل) وجوزيف يدير فندق (المكسيم) ، وميشيل يدير فندق الكرمة .

فقلت لها :

ــ الفندقة في لبنان مهنة رابحة .

فقالت :

ــ نحن بيت خير الله اول من عمل بالفندقة بجبل لبنان ، ونحمد الله سمعتنا مليحة ، وزبائننا كثيرون وخصوصاً من العراقيين ، (وتابعت تقول) العراقي احسن مصطاف من العرب ، نفسه طيبة ، ويده مبسوطة

وأثنيت على الخدمة في فندق الكرمة ، فقلت لها :

ــ الكارسونات في الكرمة جيدون ، شباب ، ونظيفون

فقالت

ــ هؤلاء (تلاميذ) في الفندق ، يعملون في عطلة المدرسة الصيفية فقط .

وسكتت برهة ، ثم نظرت اليّ باستفهام :

ــ يبدو انك لم تعرفني ياحكيم ! انا مرسيل في فندق سبلنديد يوم طلبت منك ان تفحص اخت زوجي (روبير) فكانت مصابة بكيس في المبيض ملتوٍ ، ونصحتها باجراء العملية حالًا ، فحملناها الى مستشفى (مصطفى خالدي) ببيروت حيث اجريت لها العملية .

وتنكرت هذا الحادث فعلًا فسالتها

ــ تقصدين اليس ؟

ــ نعم أليس ، انت ياحكيم انقذت حياتها من الموت ، وكلنا لاننسى لك ذلك الجميل

ــ وابن اليس الآن

ــ فتحت فندق (كارلتون) وهي تعبانة من كثرة مشاكل هذا الاوتيل ، وكل بداية متعبة ، ولكنها في موسمين وفت جميع ماعليها من ديون الحكومة ، وتبدأ ارباحها من

الموسم القادم .

ومدت عنقهامن جانبها لتتبين (اليس) وهي تتجه الينا وحين وصلتنا لم اعرفها ، فما بعد الشباب يتطور بسرعة ويطفى على كثير من المعالم الاولى ، وسالتني وهي تتقدم مني

ــ الا تتكرني ياحكيم ؟ انا أليس ، والله جـت لاراك ، فانت صاحب فضل عليّ ، فين المدام ؟

ــ في بغداد وربما تصل بكرة او بعد بكرة .

ــ ونيران اسم الله عليها ؟ (ونيران هي بكر اولادي) .

ــ بخير . مع امها .

وسحبت اليس كرسياً لتجلس الى جانبي ، وسالتها كيف الشغل في الكارلتون ، فاجابتني

ــ موش ولابد ، لان المراقبين قلال هذه السنة ، شو السبب دخلك ؟

فقلت لها

ــ هي العملة الصعبة

فقالت لتتابع حديثها عن المصطافين العراقيين

ــ الكويتي واهل الخليج عموماً ممسكين في الصرف ، والاغنياء يقصدون اوروبا ، وفي الكويت بضاعة مثيلة لما عندنا منها (ثم قالت) اوتيل الكارلتون عمره اقل من موسمين ، ولاباس لو بدأ يربح بعد موسم او حتى بعد موسمين ، وانا الآن ابني للمستقبل ، ولا اطمع كثيراً من الحاضر (ثم قالت) ياحكيم الليلة تسهر معانا في الكارلتون وشكرتها وانا اعتذر فقالت

ــ موش ممكن وهذه الفرصة لاأفرط بها لنشكرك لما عملته لي ياحكيم وفي هذ اللحظة تدافع الاطفال وسقطوا كومة واحدة على التلفزيون ، فنهضت اليس بهلع واعادت التلفزيون الى موضعه .

وعادت الي وهي تقول

ــ هؤلاء هم الذين (يخربون) راحة المصطافين ، وليس لنا ان نعترض على تصرفاتهم . وهذه هي المصلحة لنعيش ، وغادرت مكانها وهي تقول لي

ــ نحن في انتظارك ياحكيم .

واذا فندق كارلتون في هرج ومرج بنزلاء الفندق ومن غيرهم ، واعلام الدول العربية وغير العربية ترفرف ، وموسيقى راقصة تعزف ، واليس في ثوب انيق بدت فيه وكانها في ليلة عرسها . ومائدة طويلة للماكولات الباردة ، ومثلها للماكولات الساخنة ، ومائدة

اخرى للحلويات واخرى للفواكه . ويطوف النُدل بين حشد المدعوين يوزعون عليه اقداح الشمبانيا والوسكي والبيرة وعصائر الفواكه .

فاستقبلتني اليس

ـ اهلًا ياحكيم ، هذا يوم زواجي ياحكيم (ونادت على زوجها) روبير ، وينك يarوبير ، واخذت بيدي ورفعتها بيدها عالية وهي تقول

ـ ولك انا هون ، هنا الحكيم السامرائي

واقترب مني الزوج الانيق والبسمة تبزغ من بين شفتيه ، فقلت له

ـ ابارك زواجك ياروبير ، وهذا حفل زاهٍ يناظر زوجتك الجميلة

فقال

ـ اشرب انن نخب زواجنا يا حكيم .

ونادى على نذل يحمل صينية عليها انواع واشكال من الكؤوس المليئة بالمشروبات

ما احلى ان يخلق الزوجان سعادة لحياتهما بمثل ما فعلته اليس وزوجها روبير . حتى انني صرت اعتقد في هذه اللحظات ان الحب باي شكل من اشكاله لايتحقق الا لمثل هذين الزوجين المتناظرين جسداً وروحاً .

الجانب القبيح من بيروت الجميلة ١٩٦١/٦/٤

تناولت في هذا اليوم غذائي في مطعم طاليوس الواقع في الزاوية التي بين شارع باب إدريس والسوق الطويلة ، وغادرت المطعم الى الشارع عند منحدره نحو (السوق) لاخذ سيارة سرفيس (خدمة) الى نزل (مرحبا) حيث اقيم ، وكانت سيارة السرفيس تقف على المنحدر ووراء مقودها شاب بين يديه رباط يحاول لفه حول رقبته ، فسالته مستعلماً .

ـ سرفيس الى الروشة ؟

فاجابني باقتضاب :

ـ تفضل .

ونظام السرفيس في بيروت مريح وزهيد الاجور ، وفي بيروت عدد كبير من سيارات السرفيس يستقلها من يريد ليصل الى المكان الذي يقصده في خط سيرها . وأجرة هذه (الخدمة) ربع ليرة لبنانية في الحالات الإعتيادية . والسيارات التي تحمل الناس بين بيروت ومدن لبنان الاخرى تعمل جميعها بهذا النظام ولو باجر اعلى .

كانت هذه السيارة السرفيس التي تقف على منحدر (السوق الطويلة) من هذا الصنف ، وسائقها عادة هو الذي يدعو الناس الى سيارته . وكل خط سير لسيارات الخدمة له محطات تتوقف فيها السيارة لينحدر منها ركابها او يصعد اليها ركاب جدد ، وقد يدعو سائق سيارة السرفيس الناس الى سيارته بصوت عال :

(سرفيس الروشة) او سرفيس البرج وهكذا .

وصعدت الى جانب السائق ، ونقدته ربع ليرة قبل ان يطلبها مني ، ودرجت السيارة وهو لايفتأ يخفف من سرعتها كلما رأى شخصاً يقف على رصيف الشارع لإحتمال ان يكون منتظراً احدى سيارات السرفيس التي تمر في خط الروشة ، واشارت سيدة تقف على الرصيف بيدها فاوقف السائق سيارته الى جانبها ، وسالته :

ـ الى الروشة خيو ؟

فاجابها باختصار وتعالٍ :

ـ ليرتين .

فقالت له وهي تصعد الى المقعد الخلفي من سيارته .

ـ ليرتين ، ليرتين معليش .

واستغربت ان يطلب السائق ليرتين من هذه السيدة وتقبل برضى هذه الاجرة ، وهي تعلم ان السيارة (سرفيس) وربما قدرت اني احد ركابها ، كما اني دفعت له ربع ليرة فقط وهي اجرة الراكب الواحد في سيارة السرفيس . ولم استطع ان اسكت عما حدث فسالته عن تصرفه الغريب مع السيدة فاوقف سيارته فجأة وبسط راحة يده امامي وفي وسطها ربع الليرة التي دفعتها اليه ، وهو يقول :

ـ تفضل .

فسالته بلهجة بغدادية

ـ شنو هاي ياأخي ؟

ولم يجبني بل اكتفى بمد يده الى مفتاح باب السيارة وفتحه وهو يقول مر اخرى .

ـ تفضل .

وتشجعت وسالته :

ـ ألم تقل لي ان سيارتك سرفيس ؟ .

فاجابني بامتعاض :

ـ انت لم تطلب مني السيارة (سكارسة) كما طلبت السيدة ، شو يعني من اجل

ربع الليرة اضيع ليرتين !

ورأيت انني أخذل اذا نازلت هذا السائق الوقح فترجلت عن السيارة ، ووقفت على رصيف الشارع بانتظار سيارة افضل . وفكرت في ما لو انني لم اعترض على تصرفه مع السيدة ، الم يكن ذلك اليق لي واكرم ؟ وتذكرت المثل (من تدخل بما لايعنيه لقي مالايرضيه) ، ولكن هل ان ذلك الأمر لم يكن يعنيني حقيقة ؟ .

صديقي (ن) ايضاً / مايس ١٩٦١

في مساء يوم خميس ، وهو اليوم الذي اعتاد ان يجيء فيه صديقي(ن) في كل اسبوع تقريباً . وقف امامي حين غادرت آخر مريضة في عيادتي ، وكان في عينيه قلق يضطرم – فتوقعت ان اسمع منه الكثير عن نفسه وما تورطت فيه من افكار ، وقال لي اول ماقاله : لولا اني احبك باكمال لحسدتك ، فزبائنك كثيرون على مارأيت ، ولك سمعة طيبة وواسعة كطبيب ناجح فقلت له وانا ارتدي سترتي لارافقه .

– وما ينقصك لتكون مثلي او افضل مني (ن) ؟

فقال لي بحسرة ملأت صدره .

– لقد فات الاوان .

– في الوقت فرص وامل ياصديقي ، وانت بعمري تماماً .

– ماعلينا من ذلك ، وانصحني شيئاً آخر باستطاعتي ان اعمله ، او اؤمن به على الاقل ، فما عدت استطيع الحياة .

ورأيته لايبالي ان تسمعه سكرتيرتي وهو يتكلم بلغة التبرم والتشكي ، وهذه علامة سيئة ، ولابد ان جد في شؤونه ماضاقت به حيله ، وقد يكون الامر قد وصل نهايته مع زوجته فقال لي :

– توفي البارحة اخي (أ) لارحمة الله عليه .

وصمت وعيناه تنطقان باللعنات على اخيه ، وهذا أسوأ مايصير اليه الانسان حين يشتم اخاه بعد ان يلحد تحت التراب وتابع صديقي (ن) يقول :

– وقد بكت عليه امي ونتفت شعرها وشقت زيق ثوبها تماماً كما فعلت حين مات ابي ، وهي تجيد هذا التمثيل ، وسوف تفعل مثل هذا حين اموت ، واجدى ان تبكي عليّ وانا حيّ ارزق ، فانا اجدر من جميع اهلها بالبكاء منها . فقلت له

– ما بك اليوم يا (ن) ، فهيا قل لي اين تريد ان نذهب هذه الليلة

– لااريد ان اذهب الى اي مكان ، فقد مللت كل شيء ، وقد جئت فقط لاودعك ، فانا

مسافر الآن الى الديوانية .
ـ فقلت له :
في الليل ، وما العجلة ؟ .
ـ بل فات الوقت ، وظلام الليل يريحني حين اكون وحدي .
ومد يده ليمسك بيدي ببرود وفي عينيه دمع خزين وحزن دفين ، واختفى من امامي .

بداية كتابة هذه المذكرات / آب ١٩٦١

اعتدت منذ سنة ١٩٥٠ ان ازور لندن في كل صيف ، وحين اسافر اليها آخذ معي كتاباً او كتابين في الادب القصصي ، من تاليف ليون تولستوي او ارنست همنغواي او نجيب محفوظ ، وهؤلاء لا امل من قراءة كتبهم ، فلكل واحد منهم اسلوبه ، مع انني اجد ان بعض اللمحات الفنية في كتاباتهم تتكرر او تتقارب في الصياغة ، فاعدها مثلاً لتطور القصة عبر التاريخ ، وهي بشكل عام ، بالرغم من قدم بعضها تبقى كالثمرات الطازجة ، فيها طراوة وحلاوة كما آخذ معي كتاباً صغيراً في الامراض النسائية والتوليد باللغة الانكليزية ، فاني مازلت منذ تخرجي في كلية الطب قبل عقدين من الزمن اقرأ اي كتاب يقع بين يدي بهذا الاختصاص الطبي حتى لو كان مدخلاً ضيقاً اليه ، وخصوصاً حين اجد فيه نمطاً جديداً في التبويب ، وهو ماتشوق الى معرفته بقدر مااندفع الى معرفة تجربة مؤلفه في هذا الاختصاص .

وفي صباح يوم مشرق بلندن في صيف ١٩٦١ ذهبت الى مكتبة (لويس) المختصة ببيع المؤلفات الطبية ، والواقعة عند تلاقي شارع (گاور) بشارع (بوستن) . وكنت قد عرفت منذ سنوات مدير هذه المكتبة واسمه (مستر أبورد) ، وهو كهل ، وفي اذنيه طرش ، فيحشوها بآلة صغيرة لتساعده على السمع ، كما يضع على قصبة انفه عوينات باطار بلاستكي سميك يغطي طرفه الاعلى جزء من حاجبيه الكثيفين اما رأسه فخفيف الشعر ، وهو كثير الحركة بين اطراف مكتبته الواسعة ، وكانت المكتبة حين دخلتها في هذا اليوم تزخر بروادها من مختلف الاعمار والجنسيات والالوان وهم ينتقلون بين خزانات الكتب المرصوفة على جدران المكتبة ، وايديهم تمتد بين حين وحين الى رفوف الكتب ليلتقطوا منها مايريدون ، وعمال المكتبة منشغلون برزم الكتب او وزنها لمن اشتروها من المكتبة ويريدون ارسالها بريدياً الى اوطانهم خارج انكلترا . وفي نهاية نظري على الطرف البعيد في عمق المكتبة كان رجل يتصفح كتاباً بيده ، وقد عرفت هويته من قامته المديدة ورأسه الاصلع الفرعوني التكور . كان ذلك

الرجل هو الدكتور نجيب محفوظ الطبيب النسوي المصري المشهور ، وخطفتني الذاكرة الى اول مرة رأيته في حياتي ، وكان ذلك في القاهرة وهو يحاضر في احد قاعات كلية القصر العيني في موضوع البواسير المهبلية وثاني مرة رأيته في سنة ١٩٥٨ بمونتريال بكندا ايام المؤتمر الدولي الثاني للامراض النسائية والتوليد ، وكان يحاضر في البواسير المهبلية ايضاً . وكان مقرر الجلسة في ذلك اليوم قد اعلن عن تخصيص خمس عشرة دقيقة لكل محاضر ، وانه يجب على المحاضر ان يتوقف بعد الانتهاء منها مباشرة ، غير ان الدكتور نجيب محفوظ لم ينته من قراءة مقدمة موضوعه حتى كان الوقت المخصص لقراءته قد انتهى ، فضرب مقرر الجلسة الجرس ايذانا بانتهاء الوقت المخصص لقراءة موضوعه . الا ان الدكتور نجيب محفوظ استمر يقرأ ويتكلم ويقرأ ويتكلم ، وضرب المقرر على الجرس مرة اخرى والدكتور نجيب محفوظ دائب يقرأ موضوعه . وكان يجلس الى جانبي في قاعة هذه المحاضرة الاستاذ (كرين ارميتاج) فمال نحوي وقال لي بهمس

– لايريد ان يتوقف عن القراءة ، ولا اظنه سيتوقف (ثم قال) وقد سمعته يقرأ هذه المحاضرة اكثر من مرة ، في القاهرة وفي جنيف وفي مكان آخر بفرنسا .

هذا ما تذكرته عن الدكتور نجيب محفوظ وانا انظر اليه وهو منغمر في قراءة كتاب بيده في قعر مكتبة لويس .

واستدار الدكتور محفوظ وخطا نحو السيد ادوارد ، فبدا لي بوضوح انه هو الدكتور نجيب محفوظ الذي رأيته قبلًا وتحدثت اليه في موضوع البواسير المهبلية التي كانت تكثر يومئذٍ في العراق كما كانت تكثر في مصر ، وقد يتذكرني لو انني اعترضت طريقه وحييته ، ولكنه لم يلتفت نحوي ، كما اني تجاهلته لغير سبب .

ووقف الدكتور محفوظ عند منضدة المستر ادوارد وبدأ يعرض عليه طبع كتابه (حياة طبيب) باللغة الانكليزية وكان اصل هذا الكتاب قد وضعه نجيب محفوظ عن حياته ونشره بالعربية في القاهرة سنة ١٩٦٣ ، وسمعت السيد ادوارد يعتذر عن طبعه ، ويعود الدكتور محفوظ يلحّ عليه على طبعه ، ويعتذر مستر ادوارد ، ثم سمعته يقول له بحسم انه لا يعرف اللغة العربية ليقدر قيمة كتابه وما فيه من فائدة او متعة لقارئه ، ويعود الدكتور محفوظ يقول له :

– في الكتاب ما هو جدير بالقراءة ولا يخلو من المتع والغرائب في ممارسة الطب ، والطب النسوي بشكل خاص ،

وقد لاحظت ان السيد ادوارد قد اكتفى بما سمعه من الدكتور محفوظ فالتفت الى زبون يضع على منضدته من الكتب ما يريد ان يدفع ثمنه فغادر الدكتور محفوظ

المكتبة على غير رضى وقناعة غير ان تلماته لم تغادر افكاري ، ففي حياة الاطباء غرائب واستذكارها كتابه متعة لهم ومن يطلع عليها ، وفي ساعة تلك اللقاء في مكتبة لويس شرعت افكر في وضع كتاب في سيرتي وذكرياتي ، خاصة انني قد سبق ان سجلت بعض الاحداث الطبية وظروفها الاجتماعية التي تصلح ان تكون اللبنة الاولى لذلك الكتاب ، وبدأت افكر وأنا ما ازال في مكتبة لويس فيما اذا كان يستحسن ان يتضمن الكتاب سيرتي في ايام طفولتي وصباي بمسقط رأسي سامراء ، ام اختصره على احداث ايامي بعد تجربتي في كلية الطب ، وما ان وصلت شقتي في (رولاند هوس) حتى قررت ان يتضمن الكتاب جميع احداث سني حياتي بدءاً من ولادتي وحتى هذا اليوم الراهن .

الدكتور فائق شاكر / ١٩٦٢

في هذه السنة توفي الدكتور فائق شاكر بعمر احدى وستين سنة . وهو شخصية طريفة معروفة بين اصحابه في بغداد واهل عشيرته بسامراء . وقد درس الطب في استانبول ومن اترابه هناك الدكتور جلال العزاوي والدكتور صائب شوكت ، والدكتور شوكت الزهاوي والدكتور اسماعيل الصفار . وعاد الى بغداد في اوائل العشرينات ليتخصص بمعالجة امراض العين ، وسرعان ما نبذ ممارستها ليزاول الوظائف الادارية ، فعمل متصرفاً للواء كركوك ، ومديراً عاماً لدائرة البرق والبريد ، ومديراً للخطوط الجوية العراقية ، كما صار امين العاصمة خلفاً لفخري الفخري ، ومع ذلك احتفظ بلقب دكتور . وكان كثير المقالب مع اصحابه ، ويحسن سرد النكتة ، وله منها خزين لا ينفد ، يستذكر منه مايناسب المقام حتى اذا كانت على نفسه ، قال مرة حين كان متصرفاً في كركوك .

ــ بينما كنت اتريض في ضواحي هذه المدينة شاهدت فلاحاً يقود حماره ، وحدث ان نهق هذا الحمار ، فاردت ان اثرثر مع ذلك الفلاح .

فسألته : ماذا يقول حمارك يا رجل بهذا النهيق ؟ فاجابني : انا عربي نازانم (اي لا اعرف اللغة العربية) !! من جانب آخر كان يحرص على أداء واجباته في الوظائف التي شغلها ويجتهد ان يبتدع شيئاً فيها ، واعرف مما له علاقة بالطب النسوي انه بطريقة ماعرف ان اكثر الحالات الولادية تدخل الردهة العاشرة في المستشفى الملكي وهي في آخر ادوارها المرضية ، فلا تحقق العلاجات في هذه الحالة ثمارها المتوقعة ، او يطول بقاء المريضة في الردهة ، فتسأم المريضة او تقنط من فائدة

بقائها في المستشفى فتخرج قبل الشفاء التام او يخرجها زوجها جثة هامدة .

وكانت سبل الوقاية الصحية حتى اواخر الخمسينات ضحلة بالرغم من المحاولات الجادة من قبل مديرية الصحة العامة لتثقف المواطنات على الاتجاه الصحيح في الوقاية من الامراض ومشاكل الحبل . والولادة . فنظم امين العاصمة الدكتور فائق شاكر ندوات تثقيفية في قاعة فيصل الاول لهن ليستمعن الى النصائح والارشادات التي يتكلم فيها المحاضرين من اطباء التوليد والامراض النسائية . وكنت انا اول هؤلاء المحاضرين في هذه الندوات وكان الاجتماع في قاعة الملك فيصل الاول مبشراً بنجاح المشروع ، فقد ملأها خليط ضخم من الامهات من مختلف الطبقات والاعمار ، وجلهن من غير المثقفات ، وقليلات منهن من لا يلبسن العباءة . وحين وقفت على منصة المحاضرة وطفت بناظري على من في القاعة ادركت حالًا كم سيكون الدكتور فائق شاكر مسروراً بهذا الحضور الضخم ، ولكنني لم اره في القاعة وقبل ان اتأكد انه ليس بين الحاضرين فيها رفعت رأسي الى المقصورات فاذا هو في احدها ولا يرى منه إلا رأسه وهو ينصت الي باهتمام وتركيز ، وانتهيت من القاء محاضرتي بعد ساعة تقريباً ، وحين خرجت من باب القاعة الى الشارع وجدته ينتظرني وعلى وجهه علامات الرضى ، وسألني :

ــ ماذا يعني بنظرك يا كمال كون اكثرية الحاضرات في هذا الاجتماع هن من الاميات لا يعرفن القراءة ؟ .

فسألته :

ــ كيف عرفت انهن من الاميات ، وما يعني سؤالك يادكتور ؟ ولم اكن اعرف انه اعلن عن هذه المحاضرة في الصحف المحلية فقال لي :

ــ اعتقد ان ازواجهن هم الذين قرأوا او سمعوا عن اقامة هذه المحاضرة ، فحرضوا زوجاتهم للاستماع اليها (واضاف) هذا شيء جيد ياكمال .

وبعد ايام معدودات اتصل بي تلفونياً وقال لي :

ــ الا يكون من زيادة الفائدة من المحاضرات بقاعة فيصل الاول ان ننظم زيارات لبعض المواطنات للردهة الولادية في المستشفى الملكي ليطلعن بانفسهن على ما تعانيه الحامل التي تهمل مراجعة المراكز الصحية في بغداد واطرافها ، فاجبته :

ــ هذا مما لاشك فيه يادكتور فائق ، على اني من جانبي اقترح ان تكون هذه الزيارات بمجموعات صغيرة ، ويوماً واحداً في الاسبوع لااكثر .

ــ هذا ممكن ، (واضاف) عندي مقترح آخر وهو ان تستحضر في الردهة عدداً من المريضات ممن سبق ان استشرن المراكز الصحية فكانت ولادتهن دون تعقيد او اختلاط

مرضي ، ومقابل ذلك تستحضر عدداً من الامهات ممن لم يستشرن الاطباء او يزرن المراكز الصحية واعتمدن على القوابل ، فكانت ولادتهن لاتخلو من مشاكل مرضية (ثم قال) لنستعمل يا كمال كل حيلة لاجتذاب الحوامل الى المراكز الصحية .

فقلت له

— هذا رأي جيد ، وساعمل به اذا نظمت هذه الدورات بمجموعات صغيرة

وفائق شاكر حاضر النكتة فقال لي

— اسمع إستجابتك باردة ، إصرخ باذني حتى تثقب طبلتها ،

وقل لي : انا مستعد يافائق

فقلت له

— وانا اضيف على ما تفضلت به ان آخذ هذه المجموعات الى ردهة النسائيات بالمستشفى واطلعهن على الحالات المرضية التي اعقبت الولادات في البيوت على ايدي القابلات الجاهلات الوسخات وما يعقب ولادتهن من مضاعفات تخرجهن من صفة الزوجة والام .

وبعد ايام عاد الدكتور فائق واتصل بي على التلفون

— دكتور كمال ، يدور بخاطري ان تضع كتاباً يبسط مفهوم الوقاية من اختلاطات الحبل التي تبقى تصاحب المرأة طيلة حياتها ، واقترح ان يكون اسم هذا الكتاب (الشيخوخة الخضراء) ونفذ الدكتور فكرته واخرج الكتاب بهذا الاسم ، وكان موضوعي فيه (التخريبات اثناء الولادة وبعدها في الاعضاء الانثوية)

وطلبني الدكتور فائق الى دائرته في امانة العاصمة التي تقابل (سراي) الحكومة ، ولم اكن قبلاً قد دخلت هذه الدائرة الانيقة ، إذ كانت جميع اتصالاته بي عن طريق التلفون ، وحين صرت في مكتبه سالني بجدية :

— ما رأيك ياكمال ان اؤسس مستشفى للامراض النسائية والتوليد ؟

(واستمر يقول) كل ما اطلبه منك ان تضع لي مخططاً بسيطاً يوضح الترابط بين فضاءات هذا المستشفى ومرافقه الاخرى .

— فكرة ممتازة .

— وساطلق على هذا المستشفى اسم (مبرة الملكة عالية) .

— وكم سريراً سيكون في هذا المستشفى ؟

— ثلاثون كحد اعلى .

ثم قال لي

— عليك ان تضع لي قوائم بالآلات والادوات التي يجب توفرها بهذا المستشفى

(وأضاف) وعليّ البناء .

وسكت برهة (ليقول) وسابني هذا المستشفى دون كلفة وسألته :

ـ كيف دون كلفة ؟

فاجابني بثقة :

ـ سأثير نخوة اصحاب معامل الطابوق وباعة السمنت للتبرع ، الى هذا المشروع الانساني .

وتم انشاء هذا المستشفى باسم (مبرة الملكة) بكلفة ضئيلة جداً وكانت اول عملية فيه هي التي اجريتها انا لأم مديرته الدكتورة امنة صبري مراد.

الى قرية برمّانة بلبنان / ونموذج من بعض اللبنانيين / آب ١٩٦٢

قصدت (برمانة) لأزور الدكتور عبد العزيز الدوري . والسائق الذي اقلني في سيارته المارسيدس الصغيرة السوداء فتى في نحو الثلاثين من عمره . وكان يتكيء على سيارته حينما سمعت شخصاً آخر قريباً منه يضع على مؤخرة رأسه برنيطة من القش بلونه الطبيعي ، وهو يصرخ باعلى صوته .

ـ نفر واحد برمّانة ، برمّانة واحد .

اي انه يحتاج الى راكب واحد لتتحرك سيارته الى برمّانة ، ولم يكن صادقاً في قوله ، وهذه صفة امثاله في هذه المهنة . وصعدت الى جانب سائق السيارة ولم تتحرك السيارة حتى توفر ركاب آخرون ، فانطلقت بسرعة خاطفة كما ينطلق ثور المصارعة الحبيس الى الحلبة . والسرعة من صفات السوّاق اللبنانيين ، وهم في الوقت نفسه ماهرون في قيادة سياراتهم بثقة وامان ، ولا يعيقهم ان يتحدثوا مع من في السيارة او مع الذين يمرون بهم خطفاً من المشاة او من هم في سيارةاخرى تسابق سيارتهم ، وكان هذا السائق نظيف الثوب والحذاء ، ووجهه محلوقاً . وتجاوز منعطفين بسرعة اخافتني ، ثم توقف امام حانوت صغير نضدت على جانبي بابه الخضار الطرية ، والفواكه بانواعها . ومن خلال اللوح الزجاجي الذي يسد باب الحانوت اشار الى إمرأة في داخله .

ـ وينك ؟

ولا اظن ان تلك المرأة قد سمعته وباب دكانها مغلق ، ولكن هي العادة التي صارت تعرفها اذا توقفت سيارة اجرة امام دكانها ، فخرجت اليه تلك المرأة ، فقال لها :

ـ بدي ساندويج لحمة ، وانا نازل .

فاجابته بقولها :

ـ تكرم عينك .

وناداها حين استدارت لتعود الى داخل حانوتها .

ـ وينك ؟ هاتي عصير ليمون واحد ، هلّا ، ودخلت الحانوت وخرجت وبيدها علبة ورقية بيضاء اللون هرمية الشكل ومعها قصبتين ، فتناولها وهو يقول لها

ـ تسلمي .

واندفعت السيارة بسرعة فيما بدأ هو يثقب رأس العلبة الورقية بالقصبتين . والطريق الى برمانة ضيق ومتعرج ، ومزدحم بالسيارات الصاعدة والسيارات النازلة ، ومع ذلك إستمر يحاول دفع القصبتين في العلبة حتى ادخلهما ، وصار يمص من خلالهما العصير الذي في العلبة حتى افرغها ، وظل يمسك بالعلبة حتى حاذى منعطفاً ترتفع على جانبه الاعشاب والشجيرات ثم رماها على منحدر هذا المكان . وكنت وقتئذٍ امتع نظري بالخضرة الغنية في اشجار الصنوبر السامقة ، وبرز فجأة امام ناظري اوتيل (البستان) ، مثل صندوق بضاعة كبير مرفوع على قوائم يرتفع عن الارض ، ثم مالبثنا ان صرنا على مدخل (بيت مري) التي يقال انها كانت يوماً موقع بيروت القديم . وتوقفت السيارة لتنحدر عنها إمرأة بدينة منتفخة العينين تعلق على مفصل مرفقها الايسر محفظة سوداء من الجلد تبرز من زاويتيها رؤوس الخبز الطويلة ذي القشرة اللماعة وفجأة انطفأت ماكنة السيارة ، فكبس السائق على محركها مرة ومرة اخرى دون جدوى فقال بتذمر .

ـ ولك شوهاي ؟ العمى !

ونزل عنها ورفع غطاء ماكنتها ودس رأسه من تحته محاولاً الكشف عن سبب عطلها ، ثم أعاد الغطاء الى مكانه متبرماً وصعد يجلس وراء مقود السيارة وكبس عليه مرة اخرى دون جدوى ، وتقدم منه شرطي انيق وساله

ـ شوبيها ؟

فاجابه السائق

ـ بيها العمى ، إمبارح يا أخي دفعت مائتين ليرة .

وساله الشرطي

ـ وهلع ؟

ـ نارية مفي ـ شوها المهنة ، عشرون سنة ، تخلص عشية ، وتأتي عشية ، ويخلص يوم ويأتي يوم ثان والنتيجة موت . وانقلب السائق الى بركان يتفجر بحمم من

السباب على الدنيا وعلى حظه منها . ولحسن الحظ لم تكن السيارة حيث عطلت بعيدة من فندق برنتانا حيث ينتظرني صديقي الدكتور الدوري فاخذت طريقي اليه وكان الى جانب هذا الفندق سطيحية واسعة تعلو قسماً منها عريشة من الكروم تحملها اعواد مترابطة بفن وذوق وتناسق ، وتتدلى من العريشة عناقيد العنب بحباته الحمراء والبيضاء .

اما القسم الاخر من السطيحية فمسقف ليمنع هطول الندى في ساعات الليل .. وبرمانة رطبة ، وخصوصاً في الامسيات فيهرع نزلاء الفندق من السطيحية المكشوفة الى السطحية المسقوفة وشاهدت وانا اصعد درجات مدخل الفندق ثلاثة اصدقاء عراقيين يحيطون بطاولة دائرية عليها اكواب الشاي ، هم : محام مرموق في بغداد ، وهو اعزب متحرر ويحب الدعابة البريئة ، ونكي وله آراء في الحياة في غاية الطرافة ولو انها غير قابلة للتطبيق انياً.. اما الصديق الثاني فموظف كبير في احدى مؤسسات الدولة العراقية ، والصديق الثالث من العراقيين القاطنين في لبنان ، ولم ار بينهم صديقي الدكتور الدوري الذي اخطرته بزيارتي له في مساء هذا اليوم ، بهذا الفندق ولم اره ايضاً على طاولة اخرى في السطيحية . وكان الوقت اصيلًا حين انضممت الى هؤلاء الاصدقاء الثلاثة ، والشمس تغطيها الغيوم الوطيئة ثم تظهر ثم تختفي وهكذا كان الجو متقلباً ولكن دون مضايقة . قال لي صديقي المحامي .

ـ اتشرب شيئاً ؟

فقلت له

ـ انتظر مجيء الدكتور الدوري لنتناوله معاً .

كان الاصدقاء الثلاثة يتحدثون حين انضممت اليهم عن طبيعة لبنان وخيراته الطبيعية ، وتنوع سطح ارضه ، وما تنبت من شجر وثمر ، واسواق ، والبشر النظيف المذواق في ملبسه ومأكله ، وقال احدهم

ـ معدل الجمال بين النساء في لبنان عال .

وقال آخر .

ـ هواء البحر هو السبب

وقال آخر .

ـ هو العنصر .

وقال الثالث .

ـ كلاهما يا اخوان .

وانتظرت الدكتور الدوري ساعتين وانا مع هؤلاء الاصدقاء الثلاثة دون ضجر الا حين يخطر ببالي تأخر الدوري لسبب لاأعرفه ، وهوالدقيق والملتزم في مثل هذا الامر ، ولم يحضر الدوري ، وعرفت بعد ذلك من كاتب هذا الفندق انه غادر برمانة الى بحمدون . فنهضت اودع الاصدقاء الثلاثة لاعود الى بحمدون .

وسواق سيارات الاجرة في لبنان يعرفون بالمران الذين ينتظرون على قارعة الطريق مرور سياراتهم لتحملهم الى حيث يقصدون ، فيتوقف سائق السيارة حين يحدس ان الذي يقف على حافة الطريق انما هو في انتظار سيارات الاجرة ، فلم انتظر طويلًا على حافة الطريق حتى وقفت سيارة اجرة الى جانبي ، ولم تكن هناك اية ضرورة لاساله عما اذا كان متجهاً الى بيروت فهذا هو الطريق اليها وليس الى غيرها من القرى والمدن وصعدت الى جانب سائق السيارة ، ثم توقف السائق بعد ان درجت السيارة قليلًا حذاء إمرأة تمسك بكل من يديها طفلًا فيما بين الخامسة والسابعة من العمر ، وسالت السيدة السائق .

— على الرياش ، ؟

فاجابها :

— اصعدي ، ومدّ يده وفتح لها وهو في مكانه باب السيارة الذي خلفه فافرجتها بما يكفي لها ولطفليها وصعدت ، فخاطب السائق المرأة عن طفليها قائلًا .

— واحد يقعد ، وواحد يقف .

ثم اردف يقول : ليرة ونص .

فقالت باستغراب .

— ليرة ونص ؟ كيف ؟ . نحن اولاد ضيعة وحدة ياخي .

فابطأ السائق سيارته حتى وقفت ، فسالته المرأة ،

— شوهاي ، ليه وقفت ؟

فرد عليها باقتضاب

— ليرة ونص

فقالت المرأة بامتعاض

— ليرة ونص ليرة ونص ، ماقلنا شيء خلصّنا .

وتحركت السيارة تنحدر على الطريق بين اشجار الصنوبر وانا اسمع صرير اجنحة صراصيرها بعصبية وبغير انتظام . وما لبثت المرأة ان عادت تقول :

— مابنعرف ، شو (نزاد) جديد في التسعيرة ، كل مرة نعطي ليرة وربع .

ولم يردّ عليها السائق ، ثم قالت :

ـ نصحونا نصيّف في برمانة ، والسرفيس على المتبة ، والله مانو على العتبة ، فيكون اذا هيك على (الرئبي) . وليرة ونص كمان ، هاي دي أونطة ، وإلا بتلوا النزام !

فاجابها السائق :

ـ النزام زاتو ، ليرة وربع عنك وربع ليرة للصبي الجالس وبلاش ربع ليرة عن الصبي الواقف .

كانت هذه المرأة لحوجه فقالت :

ـ يعني الصبي بربع ؟ ، انا ادفع ربع ليرة عن الاثنين .

فقال لها بملل ظاهر .

ـ يأمي انا الت لك ليرة ونصف ساعة صعدتي الى السيارة ، موش بعد ماصعدت

فالتفتت المرأة نحوي وقالت تسالني :

ـ يا زلمة إحكي ؟

وماذا اقول ، فلم اقل شيئاً لاي جانب منهما ، فقالت تخاطب السائق متخاتلة .

ـ خلصنا ، بدنا نسكت احسن .

وبعد لحظات عادت تخاطب السائق بتودد وكان لم يحدث شيء ولا كانت ثورتها عليه من اجل ربع ليرة ، فسالته :

ـ شو ماحدا منكم يشرفنا ، ليه ؟

ولم يجبها السائق ، وعادت تساله :

ـ كيف جورجيت ؟

فاجابها دون اهتمام :

ـ مليحة .

ـ والاولاد اسم الله عليهم ، ماأحلاهم ، ثم بسطت راحة يمناها على رأس الطفلة التي في حضنها وقالت :

ـ هم زي بضاعتنا (تقصد اولادها) .

ثم سالته :

ـ ما عرفتهم ادول بنات كرامة ؟

ـ ما عرفتهم ؟ ، طالعين على امهم ، (ثم امسك لحظة وسالها) :

ـ كيف كرامة ، صار زمان ما طلعت على بيتنا ! ووينها هلاء ؟ .

ـ لسة بالأوبيتال تبع الخالدي
ـ يعني صارت ممرضة رسمي ؟
ـ بس ماهيتها لسّه مائة وخمسين ليرة ، (واضافت) :
ما بتريد تشتغل بالليل ؛ شغل واولاد مابيصير ،
هذا هو الدوغري ياخواجه فليب .
ثم سالته بتعجل .
ـ نسيت اسالك عن عمو الياس ، كيفو ؟
ـ بالسرير
ـ ياعيب الشوم .
ـ وطانيوس ؟ .
ـ طانيوس على البرآد ، وشغلو مليح ، وهلّا عندو ستة شغيلة لانه اخذ مكاين جداد فرنساوية .
ـ وبيو ؟
ـ رفتوه ، وهلا طانيوس حل محله ، والمثل يؤول عينك على مالك دوا
وسالها :
ـ وفينو بيو هلّا ؟
فاجابته :
ـ ماني عارفة .
ثم اضافت بتهكم .
ـ مراتو بتعرف .
ـ شو مابتعرفي انت ؟ .
فاجاته دون اكتراث
ـ يمكن عند كتانة (واضافت) لسه ازعر موش متل خيو طانيوس .
فقال لها بصيغة الدفاع عن بيو
ـ بيصير ، موش اليوم غد
فاجابته محاججة
ـ شو صغير حتى يصير ، طانيوس كان عمرو تسع سنين وماهيتو ليرتين باليوم ؛ الديك الفصيح من البيضة يصيح !
ثم قالت بعجالة :
ـ هون دخلك اذا بتريد .

فتمهل في سياقة السيارة وهو يقول لها :

ــ تكرمي .

وحين انحدرت من السيارة . قال لها :

ــ اوعي تنسي تبينوا علينا .

ودرجت السيارة بعد ان غادرتها تلك المرأة . واردت ان ادردش مع السائق فسألته :

ــ تعرفها ؟ .

فاجابني ، كمن يقول بديهية :

ــ من ضيعتنا .

ثم قلت :

ــ شاطرة .

فقال :

ــ هي كمان تشتغل بحياكة البلوزات

ثم اردف يقول :

ــ شايف دول الصغار الحلوين ، يومياً يحملوا باقات الزنبق ويبيعوها للناس في فندق البستان .

وسألته :

ــ اليسوا في مدرسة ؟ .

فاجابني :

ــ طبعاً هن في المدرسة ، وهلة عطلة ، والناس تحب هيك شغلة ، طفلة صغيرة تبيع زنبق ، شيء نظيف وفيه ربح كمان . ومدّ السائق يده نحو مزهرية صغيرة مثبتة قرب مقود السيارة ، وكان فيها بعض اصص الزنبق وسألني :

ــ شايف هايدي ، انا اشتري الزنبقة بفرنك ، شيء كويس موش هيك ؟ .

وفجاة سألني السائق :

ــ عراقي ؟ .

فاجبته :

ــ نعم عراقي ، من بغداد .

فقال يسأل :

ــ شو العراقيون لسّه قلال بها الموسم ؟ .

واردت ان اخابث هذا السائق فقلت له :

ــ انتو مابتريدونا .

فردّ علي باستغراب .

ــ شوها الحكي ، احنا يا سيدي بنريد نعيش ، والعراقيون احسن المصطافين بلبنان .

* * *

هذا هو اللبناني وذلك كان نموذجا للمواطنة اللبنانية ، ومادار بينهما نموذج لبعض حياة اللبنانيين الواقعية الجادة .

وهكذا عدت من برمانة دون ان احظى بزيارة الدكتور الدوري .

جميلة خان وجميل الزهاوي / ١٩٦٢

هذه السيدة هي ارملة الشاعر جميل صدقي الزهاوي وناشرة دواوينه ، وهي من عائلة تركية محترمة . وقد عرفتها من خلال خدمتي لها حين كانت تشكو من مرض نسوي عارض ؛ فضلا عن انها من اقارب زوجتي ، وهي بالرغم من كونها في السبعين فانها ماتزال تحتفظ بنعومة الانوثة الوقور ، كما ان لها اسلوباً جذاباً في سرد الاحداث والنكت ، وتهوى اقتناء شجيرات الظل ، كما كان لها مطبخ مشهور بالاطعمة التركية اللذيذة ، وقد هداها الله تعالى ان تميل الى مجالستي ، فتزورني بين حين وحين وهي تحمل في كل مرة شيئاً من مطبخها مثل المربيات والطرشي ودولمة الزيت والتركلاغي ، وتكون زياراتها لي في ايام الجمع ، وهو اليوم الذي خصصته لاستقبال ضيوفي . ويوماً زارتني هذه السيدة فاخذت مكاناً كما اعتادت ان تفعل قريباً من مجلسي في الصالة ، وصرنا نتحدث في شؤون الحياة ومنها حياة زوجها الراحل جميل الزهاوي ، والمقالب التي تنسبها اليه ، وبينما كانت منهمكة في حديثها ادارت ظهرها فجاة عني لتواجه النافذة التي كانت امامنا وهي مستمرة في الحديث عن زوجها الزهاوي ، واستغربت من هذه الحركة ، فسألتها فيما اذا كانت غير مرتاحة في مكانها ، فاجابتني وهي تشير باصبعها الى صورة عبد الكريم قاسم التي كانت تقابلها في الصالة .

ــ لا فانا مرتاحة في مكاني ، ولكني لااريد ان اقابل هذا الخبيث ، فقمت وقلبت الصورة لتواجه جدار الصالة . فقالت لي بامتنان :

ــ هذا افضل .

وكانت محكمة الشعب الخاصة التي يرأسها المهداوي في تلك الايام جادة في النظر بقضايا المتهمين باضرار الشعب ، ومن قاوم الضباط الاحرار في ثورتهم في شهر

تموز سنة ١٩٥٨ ، ومن هؤلاء المتهمين اللواء غازي الداغستاني ، فحكمت عليه بالاعدام ، ولجميلة خان علاقة وثيقة بعائلة الداغستاني ، حتى ان اخت غازي الداغستاني (عوش خانم) صارت تسكن في بيت جميلة خان بعد وفاة زوجها جميل الزهاوي .

ولا تزورني جميلة خان مرة الا وتذكر واحدة من نوادر زوجها جميل افندي قالت لي ذات مرة ان من اصدقاء زوجها (محمود السنوي) ، وكانت بينهما مداعبات ، فسأل محمود السنوي جميل افندي : اين تقع مدينة الزهاو ياأستاذنا ؟ وحدس جميل افندي ان في هذا السؤال إستصغاراً لمدينة زهاو فاجابه جميل افندي :

ـ سألتني ، حقك ، تريد تعرف اين تقع زهاو ، فخذ مكبّرة وفتش في الخريطة عن مدينة (سنة) فاذا وجدتها فالمدينة الكبيرة التي بجابنها هي زهاو

وقالت لي في مرة اخرى : كان جميل افندي يهوي تربية الطيور ، وصباح ذات يوم وجد ان قطاً سطا على برج طيوره وأكل احد طيوره ، وفي صباح يوم آخر اكل القط طيراً آخر وجرح اثنين ، فنادى على خادمه (عبد) واعطاه ديناراً ليقتل ذلك القط باية طريقة يشاءها فخفر عبد ليلته وقتل القط ، ولما رأى جميل افندي القط قتيلاً على ارضية برج (حمامه) ندم على قتله ولم يتناول فطوره في ذلك اليوم ، وطلب من خادمه (عبد) ان يأتيه بعصا طويلة ، وربط القط في احد طرفيها وربط الطيرين القتيلين في طرفها الآخر ، وطلب من عبد ان يحمل العصا على كتفه ويدور في شارع الرشيد ويدخل المقاهي ويقول لمن فيها ان هذا القط قتل هذين الطيرين كما قتل غيرهما من الطيور وصاحب هذه الطيور قتل هذا القط ، فهل كان ذلك جريمة من صاحب الطير ام ان ما فعله كان جزاء وفاقاً ؟ . وخرج الخادم عبد من بيت جميل افندي وهو يحمل العصا بما ربط في طرفيها متجها نحو شارع الرشيد وعاد بعد ساعتين وقال لسيده الزهاوي وهو يبتسم : ان الناس ايّدوا مافعلته بهذا القط ياعمي . اما جميل افندي فسأله : وهل ذكرت للناس اسمي

فاجابه الخادم : كلا ياسيدي فقال له جميل افندي : كان يجب ان تذكر للناس اسمي لتكمل المهزلة ، ثم ضحك بملء فمه وهو يقول للخادم : انت شيخ الكذابين وانا شيخ المغفلين فانت لم تصل الى ابعد من مترين عن البيت ، وعدت لتقول انك فعلت ما امرتك به ، وانا اعرف باليقين انك لم تفعل ذلك وانما طلبت منك ان تفعل ذلك لاروح عن نفسي ، انا اريد ان اضحك لااكثر من ذلك .

وقالت جميلة خان وكان جميل افندي يحب الاستماع الى الحكايات التي ترددها العجائز ، وكنا نستاجر له احداهن لتقص له حكاية ، ويوماً بدأت احداهن

تقول : (كان ماكان في سالف الدهر والاوان ، ملك عظيم ، له سلطة لاحدود لها ، واموال طائلة لا حصر لها . ويوماً تناول عشاءه مع ضيوفه من اعيان البلد والوزراء فلما كان صباح اليوم الثاني وجد ذلك الملك ميتاً في فراشه ورفع جميل افندي رأسه عن الوسادة وسأل المرأة العجوز : مات الملك ؟ فأجابته العجوز : نعم وجد ميتاً في فراشه ، فما كان من جميل افندي الا ونهض قائما وصار يلطم وجهه وينتحب ويصيح : (او ويلاخ يابه مات الملك ، اويلاخ يمه مات الملك) فقامت العجوز مذعورة وتناولت عباءتها واتجهت نحو باب الغرفة لتغادر البيت ، فاستوقفتها جميلة خان غير ان العجوز اصرت على مغادرة الدار وهي تقول لها يمّه رجلك مخبّل ، آني ماأريد هذه الشغلة . وغادرت البيت بلا عودة . فقالت جميلة خان تعاتب زوجها : جميل افندي : انت شسويت ، شصار بيك ، تخبلت ؟ فأجابها جميل افندي :

شلون اطرد هذه العجوز من البيت ريحتها جايفة وتخن بكلامها .

رحم الله جميل افندي الزهاوي .

السيدة الأمريكية / ١٩٦٢

لاصف هذه السيدة التي رأيتها مساء يوم ٤/٦/ ١٩٦٢ في عيادتي بمستشفى السامرائي ، هي في عمر الخمسين تقريبا ، طويلة القامة برشاقة ، شعرها كستنائي ، معروقة الجسم ، واسعة العينين في وسن خفيف ، منفرجة الفم في إبتسامة حلوة .. هكذا يستطيع اي واحد ان يصف هذه السيدة اذا كانت نظرته لها عابرة ، ولكنني على قدر مارأيتها فثمة صفات اخرى تجعله في اعلى مستويات الزوجية والانوثة . اول يوم رأيتها في عيادتي كانت بصحبة زوجها وهو في مثل عمرها ووسامتها ، امريكي مثالي في ملبسه ونطقه وفي قص شعر رأسه ، وقد جلسا جنباً الى جنب حتى تماست ذراعاهما فكانا نموذجاً لزوج وزوجة متحابين ، والحب لايتحقق الا اذا تعادل الزوجان شكلاً وروحاً ، وهذا مالمسته في هذه السيدة الامريكية وزوجها الامريكي .

واستجوبت هذه المريضة تزوجت في العشرين وانجبت بنتاً بعد ثلاث سنوات ، وفيما عدا ذلك ليس في تاريخها الطبي مايهم ، ولاحظت بطرف عيني ان زوجها يمد يده الى حضنها حيث كانت تعقد يديها ، ويدس اصابعه بين اصابعها ، ويميل اليها حتى ليكاد يلتصق وجهه بوجهها .. واستمرت هذه السيدة تقول :

ـ قبل ستة أشهر بدأت اشعر بالآم في اسفل بطني ، ولم اعرها إهتمامي في أول الامر غير انها صارت شيئاً فشيئاً تزداد شدة وتكراراً ، فاجريت لها عملية واستؤصل

بها من حوضي ورم بحجم بيضة الدجاجة ، ونصحني طبيبي ان اعرض نفسي على إختصاصي بالامراض النسائية بين حين وحين .

وسالتها :

ـ هل زودك الطبيب بتقرير عن العملية ؟ .

فاخرجت من حقيبتها ورقة كان فيها مفصّل خطوات العملية ، وورقة اخرى بتقرير المختبر الذي فحص شريحة من الورم مجهرياً ، فاذا هو من النوع (الخبيث) ، ولما وقفت على التشخيص في هذا التقرير نظرت إليها بمعنى خاص أبركته هذه المريضة حالًا ، وهي لابد كانت قد قرأت هذا التقرير وعرفت مخاطر هذا المرض اللعين وقسوته ولو بعد حين ، فاذا هي تقول لي

ـ دكتور أعرف ان الورم خبيث !

وشد الزوج على قبضة يدها بينما إستمرت الزوجة تقول :

ـ اعرف ذلك وقد اوصاني طبيبي ان أعرض نفسي على طبيب يختص بهذا المرض ، هذا هو كل ماعندي لانفذ توصياته .

وفحصت هذه السيدة فلم اجد فيها مايدل على عودة المرض في مكانه او في مكان حوضها ، وهذا لايعني شيئاً ، وعودته قد تجيء بلا انذار مسبق ، فيظهر في مكانه او في مكان آخر من هذا الجسم البشري المنتصب امامي ، انه مرض وحشي غادر ونهم في تحطيم هذه الانسانة التي حباها الله كل صفات الخلق الجميل ، ولم استطع ان اقدم لها خدمة اكثر مما اوصى به اطباؤها في امريكا ، ونهضت وهي تشكرني بتكرار وغادرت عيادتي وهي تقول لي :

ـ لقد كنت لطيفاً معي ، فشكراً جزيلًا ، وساراك في الشهر القادم .

ولم ارها بعد ذلك ، غير انها خلفت وراءها في عيادتي اريجاً زكياً لايمل عبقه من له حس انساني وتذوق في تقدير جمال الانوثة .

يهودي عراقي في أوسلو بالنرويج / ١٩٦٢

في منتصف شهر آب كنت في أوسلو عاصمة النرويج ، وبعد ان اتعبني المشي في متحف (كارل ملزى) دخلت احد المطاعم المطلة على البحر .

ومتحف كارل ملزي مجموع من تماثيل من الرخام من صنع نحات نرويجي اسمه (كارل ملزي) ، وقد يكون الاسم ملزي لعائلته لاجزءاً من اسمه المركب . ومن التماثيل التي تملأ بستاناً واسعاً اجتذب انتباهي باعجاب ثلاثة كان احدها عند

مدخل هذا المتحف وهو يمثل جنيناً في الوضع الذي يكون به في رحم امه اي انه كان ممتدلاً برأسه ، وجميع اطرافه مثنية لتاخذ اصغر حيز في الرحم ، اما التمثال الثاني الذي شدني لدراسة اجزائه فيمثل حياة الانسان وهو جنين ، ثم وهو وليد ، ثم وهو شاب ثم وهو كهل ، واخيراً وهو شيخ لايقوى على الحركة . وكل هذه المراحل منحوتة من قطعة واحدة من الرخام ومنتصبة بعلو كالذي نراه في ارتفاع المسلات المصرية بقي ان اقول ان كارل ملزي من عائلة نبيلة وجن عقله حين بلغ سن الشباب وهوى النحت وانقطع عن الدنيا اليه ، فلا يراه احد ولا يرى احداً من الناس . فلما توفي دخل ورثته ذلك البستان الذي حبس نفسه فيه فوجدوا فيه العجائب من تلك التماثيل ، فابقاها الورثة في اماكنها ولم يضيفوا اليها إلا لافتة رفعت على باب البستان تحمل اسم (متحف كارل ملزي) .

واعود الآن لأسرد مالاقيته في المطعم الذي دخلته لاتناول غذائي فيه .

كان المطعم غير صغير ولا كبير ، غير انه انيق ونظيف جداً ، واخذت مكاني على احدى مناضده في انتظار من ياتي لاطلب منه ماأريده من طعام . وفيما كنت اتكلم مع النادل الذي جاءني بقائمة الغداء انتبهت الى رجل في نحو الخمسين من عمره او اكثر ، يكثر التطلع اليّ ، فتحاشيت مبادلته النظرات .

ومع ذلك رأيته بزاوية عيني يستمر ينظر اليّ ، فتضايقت منه ، ومالبث ذلك الرجل حتى نهض من مكانه وتقدم من طاولتي وسالني بادب

— تسمح لي لبضع دقائق ؟

فقلت له دون ان ابدي ارتياحاً لطلبه .

— تفضل .

وأخذ مكاناً على كرسي على طاولتي . كان اسمر البشرة ، كث الشارب وذا قيافة محترمة . وتطلع الى وجهي وسالني :

— عراقي ؟ .

— نعم انا عراقي ، من بغداد .

وإستغربت ان يعرف انني من العراق !

فسالته بعد لحظة سكوت بيننا :

— كيف عرفت اني عراقي ؟ .

فاجابني :

— قلبي عرف انك من بغداد ، فسالتك ان كنت عراقياً خشية ان ابتعد عن الصواب .

وسالته :

ـ ماذا تقصد بان قلبك عرفني من العراق .

فاجابني :

ـ لانني مثلك (عراقي) وقلبي يخفق حين ارى عراقياً (واضاف) وهو يخرج من محفظته بطاقته الشخصية ويقدمها لي ؛ انا من محلة البو شبل ببغداد واسمي اسحاق بلبول ، ابن عم سليم بلبول اذا كنت تعرف هذا الشخص في بغداد .

فقلت له :

ـ اعرفه وهو صاحب بغداد الجديدة

فقال :

ـ نعم انه هو ابن عمي :

وانفتح الباب للتحدث اليه بامان ، فسالته :

ماذا تعرف عن بغداد .

فاجابني :

ـ غادرت بغداد وانا بعمر خمس عشر سنة قاصداً عمتي (سارة) في منجستر . وكانت تعيش مع زوجها على صنع قبعات النساء ، فضمني الى سرب من العاملات في بيتها ، وبعد سنوات تزوجت ابنتها . وتوسع معمل عمتي وصرت مدير مبيعاته . ويدعوني عملائي لهذا السبب (ملك القبعات) .

وسالته :

ـ ماذا تذكر عن بغداد .

فاجابني :

ـ اذكر شارع العباخانة ، ومحلة البو شبل ، وطوب ابو خزامة . كما اذكر الجسر الذي يربط بقواربه جانب الرصافة بجانب الكرخ .

فقلت له :

ـ اصبحت هذه ذكريات ، وكثير من شباب العراق لم يروا الا قليلا منها .

ـ ياليتني ارى بغداد !

ولم اقل له ما يمنعك ، ولكني سالته :

ـ هل تتوق الى رؤيتها حقيقة ؟

فاجابني :

ـ بكل تاكيد .

ثم سكت وادار رأسه ينظر الى بعيد ثم ادار رأسه نحوي وسالني :

ـ اسمك ياأخي :

ـ اسمي كمال السامرائي ، دكتور كمال .

ـ واين تقيم في اوسلو ؟ .

ـ في فندق (العقبان الثلاثة) . 3 FALCONSHOTEL

فقال لي :

ـ غريب انا اقيم في هذا الفندق (ثم اضاف) سوف اسافر غداً الى (برجن) لارى مغيب الشمس عند منتصف الليل . ثم (سالني) : هل تحب ان ترافقني الى برجن ؟ وإن زرتها فانا اقيم في فندق (العقبان الثلاثة) ايضاً . ونهض وغادر المطعم .

وبعد ان انتهيت من تناول غذائي طلبت النادل لادفع حسابي فقال لي :

ـ مستر بلبول طلب مني ان اضيف حسابك على حسابه . وغادرت المطعم الى الفندق ، فوجدت على المنضدة التي تتوسط غرفتي باقة من الزهور وعليها بطاقة اسحاق بلبول .

وبعد ثلاثة ايام غادرت اوسلو الى (برجن) وقصدت فندق العقبان الثلاثة ، وسألني رجل الاستعلامات ان كنت حجزت غرفة باسمي ، وفي هذه اللحظة سألني هذا الرجل .

ـ اسمك ياسيدي ؟ .

فقلت له :

ـ دكتور سامرائي .

فقال لي :

ـ طبعاً ، حجز لك مستر بلبول غرفة في الطابق الخامس وهذا هو مفتاحها .

وفتحت باب غرفتي فكان على احد مناضدها حزمة من الاوراد وعليها بطاقة باسم (بلبول) .

ولم يعجبني البقاء في برجين اكثر من يومين ، واكثر ما اجتذب انتباهي الى مافيها بعض تصرفات السابلة في الشوارع او القاعدين على حافات الطرق ، فاذا سألتهم عن مكان في هذه المدينة نهض من اساله واقفاً باحترام ليجيبني بتفصيل عن المكان الذي اقصده وقد يقودني بنفسه الى ذلك المكان . ورأيت ان عطلتي الصيفية على وشك الانتهاء فحزمت امتعتي لاعود الى بيروت عبر باريس واستانبول ، فكان هذا الطريق طويلاً ومتعباً ، فوصلت بيروت في ظلمة الليل .

كابوس / صيف ١٩٦٢

ينتابني احياناً كابوس اثناء نومي ، فاشعر باختناق يقطع انفاسي ، فاتحرك واتقلب في فراشي بتكرار دون وعيي وارادتي واستنجد بصراخ لفكه عن رقبتي ، ولكن دون جدوى . وقد تكون هذه الظاهرة وراثية ، فابي واخي الاكبر كانا يشكوان منه . وتنكر الكتب الطبية انه من نتائج التخمة بطعام العشاء . وفي مايخصني فان الكابوس الذي ينتابني لا علاقة له بالماكل او المشرب ، فقد يحدث وانا نائم على الطوى دون عشاء من اي نوع او كمية ، فيسبب لي مواقف محرجة ومزعجة وخصوصاً عند سفري حين انام في غير بيتي . وقد لاينتابني شهراً او اكثر ، وقد يتكرر اكثر من مرة في الاسبوع الواحد ، ويكون شديد الوطأة او خفيفاً استيقظ له في بدايته فاجهضه واتخلص منه قبل استفحاله حين رجعت من اوسلو الى بيروت ، قصدت فندق (سبلندر) ببحمدون والليل في منتصفه ، وكنت تعباً فآويت الى مخدعي في احدى غرفه دون تناول العشاء ، ولا انكر كم نمت ولكنني لم انم طويلاً حتى سمعت طرقاً على باب غرفتي ، ولما استوعبت الطرق كنت حينذاك بين النائم واليقظ ، ولما صحوت تماماً عرفت بسرعة كل شيء فقد كنت ضحية كابوس ثقيل يجثم على صدري فاصرخ باعلى صوتي حتى استيقظ عليه بعض النائمين من نزلاء الفندق ، فهرعوا ومعهم بعض خدم الفندق لنجدة من يصرخ ، غير انهم لم يعرفوا مصدره من بين الغرف القريبة من غرفتي ، وانصت للهرج الذي حصل في كريدور الطابق فاذا واحد يقول انه من غرفة الدكتور (وهو يقصدني بذلك) ، ونفى آخر ان يكون من غرفتي واضاف انه من الغرفة التي إلى جوار غرفتي واعدت رأسي على وسادتي والعرق يتصبب من وجهي ، ولم انم بعد ذلك الا قليلاً .

ونزلت الى صالة طعام الفطور ، ثم نزل بعدي جاري الكويتي ، واخذ مكانه قريباً مني ، ورأيت الخدم يتهامسون وهم يشيرون الى هذا الكويتي على انه هو الذي كان يصرخ في نومه بغرفته المجاورة لغرفتي ولم يكن هذا الرجل يدرك مايدور حوله من الهمس ، اذ انه لم يكن قد فعل شيئاً يستوجب ذلك . اما انا ففعلت ما كان يفعله الخدم وصرت انظر الى ذلك الكويتي البريء وهو يزدرد فطوره باطمئنان ، لاثبت لهم انه هو ولست انا من ازعجهم في الليلة الماضية بصراخه .

حكاية المحامي سلمان الشيخ داود / آذار ١٩٦٢

الشيخ احمد الداود وزير الاوقاف عدة مرات في الحكومة العراقية ، وابنه سلمان محام ناجح وصحفي جريء ، ونائب في احدى دورات المجلس النيابي ، وقد لعب دوراً في سياسة الصحف العراقية ابان الحرب العالمية الثانية . وكان يتملق للوصي على عرش العراق الامير عبدالاله ليحصل على منصب وزاري ، غير ان ذكاء الوصي كشف عن عيوبه الشخصية فابعده عن هذا المنصب . وكان سلمان يكثر من الاسفار الى اطراف الشرق والغرب القريب والبعيد ، وهو محدث لبق لو انه لايمط نطقه حين يتكلم ، وقيل انه يجيد الكتابة اكثر مما يجيد الكلام .

وكنت يوماً في مجلس رجالي بدار السيد ابراهيم الخضيري بمنطقة المسبح ، تطرق فيه ضيوف هذا الرجل الى مشاهداتهم في اوربا ، فقال سلمان فيما قال :

ــ في بعض اقطار اوروبا يعد شرف الرجل كل مايخص حصانة اعضائه التي تعلو المحزم ، فكذب اللسان وسرقة اليد ، والقتل من الاخلاق المذمومة التي تمس الشرف ، وعند بعض الامم الاخرى يعد من الرجولة التحايل المشروع لتحقيق المكاسب والمراتب العالمية . وتعزيزاً لنظريته قص علينا ماياتي . ــ في سنة ١٩٣٢ كنت في لندن ، وقد استأجرت غرفة في بيت عائلة تتكون من زوج وزوجته وابنة واحدة .. وكان يصلني من بغداد ما تتعجب له هذه العائلة ، فاكرمهم منه بسخاء ، واستطعت بهذه الطريقة وبغيرها ان اغوي صبية هذه العائلة الجميلة ، وصار بيننا مايصير تحت المحزم . وكانت ام هذه الصبية لاتقل جمالاً عن جمال إبنتها بالرغم من اثر العمر على جوانب من وجهها وجسمها ، فعرجت على إغوائها ايضاً حتى سقطت في شباك محاولاتي في غياب ابنتها في الحانوت الذي تعمل فيه ، فصرت اسرح وامرح بين الام وابنتها كما اشاء (ثم قال وهو يضحك) ولم ينج مني من هذه العائلة الا الزوج المنهمك بعمله في ورشة حدادة حتى ساعة متأخرة من النهار . واستمر (سلمان الشيخ داود يقول) :

ــ وذات يوم بينما كنت ارتقي سلم العمارة الى شقتي فيها رأيت إمراة عجوزاً على باب شقة تقابل شقتي ، فابتسمت لي فحييتها تلقائياً ، وتكررت مثل هذه المقابلة مرتين ، فسألتني :

ــ انت من الهند ياسيدي ؟ .

فاجبتها :

ــ لا ، انا من بغداد العراق .

فقالت وهي تشهق :

ـ آ ، بلد الف ليلة وليلة ، اليس كذلك ؟ .
ـ نعم انا من تلك البلاد .
ثم قال سلمان :
ـ ويبدو ان هذه المرأة لها معلومات عن الشرق العربي ، وتتشوق لمعرفة المزيد عنه ، فدعتني الى تناول الشاي في شقتها لاحدثها عن بغداد وماضيها الاسلامي ، فلم ار باساً من قبول هذه الدعوة ، فكان مساءً ممتعاً مع عائلة هذه العجوز ذات الذكاء والثقافة الواسعة . وعدت الى شقتي ، فدهشت لوجوم اصحاب الشقة ، وصدّهم عني بما يشبه السخط او الغضب . ودام هذا الحال يومان فلم أتحمل نفورهم مني ، فسألتهم عن سبب هذا الصدود القاسي غير المتوقع ، فطلبت الام من زوجها ان يخبرني عن السبب فانبرى هذا يقول لي بعد ان تنحنح بوقار مفتعل :
ـ اسمعني ياضيفنا العزيز ، ان العائلة التي زرتها تلك المساء غير شريفة (قال سلمان الشيخ داود) وبهت لما سمعته من اب العائلة التى أساكنها ، فكيف تكون تلك الجارة العجوز غير شريفة ، والام وإبنتها اللتان اساكنهما في حضني كل يوم ، فسالت رب البيت عما فعلته تلك العجوز لتكون غير شريفة ، فاجابني بكل بساطة :
ـ ان رب عائلة تلك الشقة قد تعاون مع الالمان في الحرب الاولى ، وقد اعدم بسبب خيانته وتورطه في امور عسكرية لاتعنيه ، فبقي العار يلاحق عائلته حتى هذا اليوم .
وختم سلمان الشيخ داود كلامه بقوله :
ـ قد يكون كل شيء ، في بعض البلدان ، فوق مستوى السرّة من كذب وسرقة وقتل ، من المفاخر والتباهي ، اما العلاقات التي تكون تحت مستوى السرة في انكلترا فتعد ضرباً من الحب ، بل يسمونه حباً عملياً . وهذه حكم العادة والتطبع والعياذ بالله .

زوج وزوجته في موقفين متضادين / ١٩٦٢

هذه الحكاية ذات مقطعين ، لزوج وزوجة ، والزوج زميل من الاحداث في المهنة والزوجة معلمة في بغداد .
كلمني هذا الزميل هاتفياً ذات يوم ، يقول :
ـ تسمح لي ان اراك بعد ان تنهي من عملك مع المرضى مساء هذا اليوم ؟
ـ انا في انتظارك في الساعة العاشرة هذا المساء .
ودخل غرفتي ومان استقر على كرسي الى جانبي حتى بدأ يقول .
ـ انا زميلك ، وارجو منك ان تكون لي أخاً ، وانت تستطيع ان تساعدني اذا اردت .

كان عصبياً وخجلاً ويريد ان يبدأ حديثه من كل اطراف ما يريد ان يعرضه علي.

ـ تعرف انني تزوجت .

فقلت له :

ـ لاعرف ، ومبروك على اية حال .

ـ ياليتني لم اتزوج ، لامن اجل نفسي بل من اجل زوجتي ، فهي خير فتاة وافضل مني ، والمشكلة في لافيها . فساعدني .

ـ اريد ان افهم موضوعك اولاً ، انت عصبي فاهدأ وخبرني امرك .

ـ انا لست عصبياً ، ولكنني متالم ، والالم يثير العاطفة او يقلبها الى الضد . وموضوعي سر واي سر ، وهو يخصني اكثر مما يخص زوجتي ، فهي بريئة منه ، وخجلي من عرضه عليك لايفوقه خجل .

ـ لم افهم منك حتى الان اي شيء ،

ـ طيب ، انا تزوجت كما قلت لك قبل شهر او اكثر ، ولكن .. بالاختصار انه دكتور شيء مخجل ، بالاختصار لم استطع ان اضاجعها كما يجب ، وانا اقدر ما كان يصيبها اثناء ذلك من خيبة الامل ، وانت لاتقدر ماكان يصيبني من خجل .

فقلت له :

ـ مثل هذه الحالة كثير الحدوث .

وسالني :

ـ هل عرفت مثلها قبلاً ؟ .

ورأيت ان اطمانه فقلت له بشيء من المبالغة :

ـ كثير .

ـ ربما تكون حالتي خاصة ، والموضوع في الاساس انني لااعرف كيف يتم الاتصال بين الرجل والمرأة .

كنت اعرف هذا الزميل منذ كان طالباً معي في كلية الطب ، كان هادئاً ، منطوياً على نفسه لايصاحب احداً ممن معه في الكلية ، واليفه الوحيد هو الكتاب ، وكنا كطلاب نتحدث في ساعات خلواتنا في كثير من الامور الحياتية بما فيها علاقة الرجل بالمرأة ، وكان هذا الزميل يشاركنا في كل حديث الا ما يتعلق بالمرأة ، فاذا طرقناه انعزل عنا وكاننا قد ثلبناه او وجهنا اليه شتيمة .

وعدت الى زميلي اساله .

ـ ألم تضاجع إمرأة قبل اليوم ؟

ـ لم يحدث ذلك في حياتي .

ـــ الا تشتهي مضاجعة المرأة ؟

ولم يجبني على هذا السؤال ، فقدرت كم هو خجل ان يذكر مجرد حبه للمرأة . ورأيته بعيداً عني في فكره .

ـــ اين سرحت ياأخي ؟ .

فاجابني :

ـــ اذكر مرة واحدة ، اذكر ذلك كطيف ، وكان يوماً بعيداً ، قبل اكثر من خمسة عشرة سنة ، وكانت في بيتنا خادمة صغيرة ، اصغر من عمري ، لااعرف اذا كان ذلك عملاً جنسياً ، فقد صرخت بالرغم من استكانتها لعبثي بها فاخافتني الى حد الذعر ، وهربت منها رغم تشبثها بتلابيبي ، ولم اعد اليها ، ولا قربتها ، بل صرت أخافها واهرب منها ، ولما غادرت بيتنا بلا عودة فرحت لذلك كثيراً . ومن ذلك اليوم صرت اشعر ان في مقاربة المرأة شيئاً مخيفاً او ضاراً ، ومع ذلك اقول لك الحق ياأخي ، انا احب اية امرأة اشتهيها ولكن بخوف وخجل .

استمعت الى كل ذلك من الزميل الذي جلس يحدثني بتردد وخجل عن زواجه ، واخيراً سالته :

ـــ هل تحب عروسك ياأخي ؟ .

فاجابني :

ـــ كيف لااحبها ، وهي تحبني ايضاً .

ـــ إذن لاتخف والوقت كفيل ان يحل عقدة امرك معها .

وبدا عليه شيء من الارتياح وغادر عيادتي بعد حديث مستفيض طال اكثر من ساعة .

اما المقطع الثاني من هذه الحالة المرضية فهو مايخص زوجة ذلك الزميل ، فقد دخلت عيادتي ذات يوم بعد اكثر من ستة اشهر إمرأة في العقد الثالث من العمر مستحبة السحنة ، جريئة في نظراتها ونطقها ، وسالتني :

ـــ أنا زوجة زميلك (ح) .

وتفاجات ، فلم اكن قد رأيتها قبلاً ، غير انها اثارت ماكان لي من معلومات عن زوجها زميلي (ح) التي ذكرتها فيما تقدم ، فرحبت بها ، وكان بودي لو عرفت ماآل اليه امره معها . ولكنني تجنبت هذا السؤال ، حتى جاءني تلقائياً وبشكل غير متوقع .

ـــ تزوجت قبل تسعة اشهر تقريباً ، وكانت الاشهر الاولى من زواجنا تعيسة كادت تؤدي الى الفراق بيننا .

ولم أشأ ان اقول لها انني اعرف تفاصيل ذلك فذلك سر لا تبيح لي المهنة ان افشيه . فقلت لها :

ـ تفضلي ، داومي على الكلام .

فقالت ، وعبرة في صدرها :

ـ تجاوز زوجي تلك المحنة .

واحببت حين سمعت هذه النتيجة ان اعرف ما فعلاه للتخلص منه ، وهل استشار زوجها طبيباً آخر غيري او اخذ علاجاً نوعياً فبرىء من تلك الحالة ؟ ولكنني لم أسألها عن ذلك . وداومت تقول وهي تتنفس وتبكي في آن واحد .

ـ هو الان على نقيض ماكان بعد شفائه ، وصار يكلمني بخشونة ويهينني ويحتقرني ويبتعد عني ، ولا اذكر كيف بدأت هذه التحولات ، واظنها كانت مفاجاة ، وعللت تصرفه الى كثرة اشغاله ولكن ذلك لم يكن سبباً ،

ورأيت ان اسألها :

ـ وما دخلي انا بينكما الان ؟ .

ـ الحقيقة انني لاأعرف بالتمام فيما اذا كان لك دخل فيما بيننا ولكنني اعرف ان لك معرفة وتواصل مع زوجي ،

واردت ان اقول لها :

ـ لماذا لاتستشيرين طبيبه ؟ .

ففاجاتني تقول :

ـ انت طبيبه ، وقد باح لي بهذا السر في ايامنا الاولى .

بدت لي هذه الزوجة من نوع خاص ، هي متوسطة في جمالها ولكنها ذات ثقافة عالية ، وذكية ، وربما يهزها الاطراء بنشوة ، بل لاترتاح في مكان الا اذا كان فيه من يطيل النظر اليها فتتجه حينذاك بكامل نفسها اليه ، باهتمام ورغبة تريد ان تشعر ان الناس بها معجبون ، سواء كان زوجها من بين هؤلاء او لم يكن من بينهم . ولو سنحت لها الفرصة امام من يعجب بها لبسطت له دون تردد الحديث عن مؤهلاتها الكثيرة ، وعذابها النفسي من صبرها الطويل بزواجها .

هذه المرأة على ماأعتقد كانت من هذا الضرب من بنات حواء ، اما زوجها فكان على شاكلة اخرى ، في مرحلتيه اثناء شهر العسل وبعده باشهر ، فاراد داخله بعد ان عرف الفوارق بينه وبين زوجته ان يتبوأ موقعاً مغايراً لايخلو التصرف فيه من الانتقام والتشفي .

وغادرت هذه المرأة عيادتي دون ان تكون لي الجرأة لاقول لها : انصرفي الى ارضاء زوجك وحده ، وبهذا تحافظين على كرامتك ورضى زوجك .

زيارة الى القاهرة / ١٩٦٢

في يوم ١٩٦٢/٤/٥ كنت انا والدكتور تحسين معلّة والدكتور جابر محسن مع وفد كبير من كلية الطب ، على الطائرة العراقية متجهين نحو القاهرة . وفي مطار القاهرة استقبلتنا الوجوه السمر ، وكان الوقت قريباً من مغيب الشمس . واستغربنا حين طلب منا بوليس المطار ان ننتظر حتى تتم بعض الاجراءات الامنية ، وطال انتظارنا في المطار بينما غادر جميع ركاب الطائرة وطاقمها فاتصلنا تلفونياً بالسفارة العراقية في القاهرة وجاء الى المطار احد موظفي السفارة ليستطلع الامر ، وغاب عنا وعاد الينا وهو يقول لنا ان من اعضاء الوفد العراقي يهودي باسم مسلم ، ولابد ان في تغيير اسمه غاية ، وسألناه : وهل هذه حقيقة فقال لنا :

ــ نعم ، واسم هذا الطبيب (منير سلمان) اما اسمه الحقيقي فهو (مير شلومو) .

وتملكتنا الدهشة وسألنا موظف سفارتنا :

ــ واخيراً ؟ .

ــ سوّي الامر وسيدخل هذا الدكتور القاهرة (ثم قال) وطبيعي ان المباحث الخاصة ستضعه تحت المراقبة :

وحملتنا سيارة التاكسي الى القاهرة . هذه مصر الجديدة ، والى يميننا قصر البارون (امبامة) بحجارته الوردية وعقوده المشيدة على الطراز القوطي . ومررنا بمحطة القطار وامامها يقبع تمثال رمسيس ، ثم عبرنا كوبري الجلاء عند قدمي تمثال سعد زغلول ، ووصلنا الى فندق البرج ، وتقدمنا من موظف استعلاماته فاخذ جوازات سفرنا وتفحصها بدقة ونقل ما فيها من المعلومات الى دفتره الكبير ، وطلب منا ان يكتب كل واحد منا هويته على ورقة خاصة قدمها لكل واحد منا ، واخذها منا وهو يقول :

ــ اهلا فيكم ياأخوان .

وحمل نوبي حقائبنا وهو يتقدمنا ويقول تفضلوا ، وتبعناه الى المصعد ، وسدّ بابه وراءنا وهو يقول :

ـ الى الطابق الرابع .

كانت غرفتي تطل على حديقة الاندلس ومن ورائها نهر النيل العظيم ، وعلى مرأى الطرف الشمالي منها كوبري الجلاء ، وعبر النهر امامنا تماماً ، فندق (هلتن ـ النيل) وعلى اليمين فندق سميراميس العتيد ، ثم فندق (شبرد) ، وكنت اعرف ان لهذا الفندق فرندا واسعة على حافاتها اشجار المانكا والبرتقال . وشبرد القائم امامنا الآن حديث الهندسة والبناء ، وليس امامه فرندا وقد بني على انقاض شبرد الاول الذي احرقته النيران ايام الشغب الذي حصل في اول ثورة مايس / ١٩٥٢ .

وفي اليوم الثاني عرفني الدكتور جابر بالدكتور علي غيته ، وهو جراح مصري غير ان مخبره لا يمثل الرجل المصري ، في العقد الخامس من عمره ، طويل القامة ذو عينين متفحصتين بصرامة ، وفي مساء اليوم التالي كنا في داره الفخمة بأثاثها الوثير وتحفها على الجدران وعلى المناضد وغير ذلك ، مما يدل على غنى موروث قديم ، وذوق ذي حشمة آفلة . وكان قد سبقنا الى دار الدكتور غيتة الدكتور السباعي وهو جراح اختصاص بالاورام الخبيثة ونهض الدكتور غيته وهو يقدمه الينا بكلام مملّح .

ـ الدكتور السباعي ، الاختصاص بالسرطانات والعياذ بالله منها لا من الدكتور السباعي !

وظهر لنا في لحظات ان بين غيتة والسباعي صداقة متينة ، وصارا يتراشقان بالنكات دون حرج ، ثم دخل الصالون سفيرنا في القاهرة آنذاك ثم توالى ضيوف آخرون : اللواء فلان ، البكباشي فلان مدير السكن والفنادق والدكتور علي شعبان طبيب النساء وبادر الضيوف المصريون يتحدثون ، وهم اذا اسرعوا في الكلام تضيع عليّ متابعته وتشعب الحديث الى مايخص الطب واختصاصاته الدقيقة ، وعن العدالة الاجتماعية ، والاشتراكية العربية ، وفي لحظات سكوت سالت الدكتور غيته فيما اذا يمكن زيارة الرئيس جمال عبد الناصر ، وام كلثوم ورؤية سد اسوان ، وهي ثلاثية امانينا ، نحن العراقيين في هذه الدعوة فاجابني بروح فكهة :

ـ لاحاجة لموعد مع سد اسوان فهو يستقبل زائريه دون موعد سابق ، وسترون ان ام كلثوم هي التي ستطلب منكم موعداً لزيارتكم ، ولو ان المجاملة تقتضي لها العكس اما زيارة الرئيس جمال فنسال لكم عنها وساله الدكتور جابر بسذاجة ولكن بقصد .

ـ اريد على الاقل ان ارى (عزبة) وأرى (باشا) .

وقال الدكتور علي مداعباً :

ـ العزبة معناها عندنا مزرعة تتوسطها قلعة كبيرة لرجل موسر ، او متنفذ في

الدولة ، ومعناها عندكم ايه ؟ ياخي دكتور جابر ؟ .

فاجابه الدكتور جابر :

ـ معناه إمرأة ارملة في مقتبل العمر .

فقال له غيته :

ـ تريدها كده ، والا كده ؟ .

وضحكنا .

ثم قال غيته :

ـ واما عن الباشا فعندنا الدكتور اسماعيل (ابن الباشا) (وأضاف) : افلا يدل مظهره علي باشاوية ابيه ؟ .

ورد عليه الدكتور اسماعيل :

ـ امك عمرها كام ياعلي ؟ .

وفطن علي الى ماينطوي عليه هذا السؤال فاجابه :

ـ عندنا عزية واحدة فقط .

وعاد اسماعيل يسأله مرة اخرى :

ـ حنضرب (ام علي) اليوم وإلا لا ؟ .

ورأيت هذا السؤال خالٍ من الادب ، ثم علمت ان ام علي التي قصدها الدكتور اسماعيل نوع من الحلوى تقدم بعد الطعام ، ففتر استهجاني لهذه المداعبة ، فاجابه دكتور علي :

ـ زي ما ضربناها في بيتكم ، .. ياابن الباشا .

كان الدكتور علي مضيافاً بعين واسعة ، وروح مرحة وكانت حرمه سيدة وقور مليحة الوجه بالرغم من فوات شبابها ، اما (ام علي) التي لم ارها تتحرك عن كرسيها الملتصق بجسمها الممتلىء فاكثر ما جلب نظري اليه الشبه العظيم الذي بينها وبين ابنها الدكتور علي .

وسالت الدكتور علي كيف اقابل الشيخ مصطفى اسماعيل ؟ :

وسمعتني حرمه التي كانت تجلس على طرف غير بعيد عني .

ـ الرئيس جمال ، السد العالي ، عزية ، مصطفى اسماعيل وام كلثوم ، هذه كلها مختارات ، ايوه مختارات عظيمة وكان صوت ام كلثوم في تلك اللحظات يتعالى في الصالون : عيني في عينيك .

وسالت سيدة تجلس الى جانب بكباش :

ـ مين اللي طلب رؤية مصطفى اسماعيل ؟ .

فقال لها الدكتور علي :

ــ الدكتور السامرائي .

وانتظرت تعليق تلك السيدة بتخوف ، فقالت :

ــ عظيم يادكتور ، مصطفى اسماعيل مقرىء عظيم وهو المفضل عندي بعد المرحوم محمد رفعت والشمشاعي . (واردفت) مصطفى اسماعيل فنان مبدع في قراءة الايات الكريمة .

ولما وضعت الحلوى على المائدة قال الدكتور اسماعيل وهو يجس صحف (ام علي) .

ــ ام علي ماأطيبها ، ساخنة .

واراد الدكتور غيته ان يرد عليه :

فاسكته الدكتور اسماعيل بقوله :

ــ سيبها على النكته ياخي وبس .

ما ابهج لهجة المصريين وماعمق الغازهم في النكات ، وانفض الحضور في الساعة الواحدة صباحاً ، والدكتور علي غيته يقول لكل من يغادر بيته :

ــ بدري ياخي .

الا لصديقه اسماعيل فقد قال له :

ــ مع السلامة يابن الباشا .

• • •

وفي ليلة كنا بشارع عماد الدين ، فاقترح الدكتور جابر محسن ان ندخل احد الملاهي التي تكثر في هذا الشارع ، وحين صرنا قريباً من احدها ، قرأنا على ناصيته اسم (الفردوس) . وكان يقف على مدخله رجل طويل القامة ، نوبي الملامح ، ويضع على رأسه طربوشاً احمر فاقعاً ، ويرتدي صديرياً كحلي اللون موشحاً بقصبات من معدن لماع ، قد يكون من الفضة ، كان هذا الشخص واقفاً فقط ، وكان واجبه ان يبقى هكذا بلا حركة الا استقبال الداخلين الى هذا الملهى بابتسامة باهتة . وعلى جدار الجانب الايمن المقابل لموقف ذلك الشخص علقت صور داخل إطارات لنساء بثياب لاتستر من اجسامهن إلا القليل . وولجنا مدخل هذا الملهى وبعد خطوات فيه دفعنا باباً متحركاً وصرنا بين حشد من الناس على كراس وامامهم طاولات تملأ سطوحها عدد من الكؤوس وقناني المشروبات . وكان المكان مضيئاً كانه من كثرة الانوار في وضح النهار بالرغم من كثافة الدخان المتصاعد من افواه المدخنين في كل مكان منه . واخذنا مكاننا غير بعيدين عن المسرح ، وماكدنا نستقر على كراسينا حتى رفعنا رأسينا لننظر

الى من على المسرح . كانت عليه مجموعة من الموسيقيين الضاربين على الطبلة والرق والعود ، والكمان ، وثمة فتاة في باكر شبابها واقفة تغني . كانت هذه الفتاة رشيقة الجسم بتناسق انثوي جذاب ، وبسحنة سمراء خلو من المساحيق ، وعينين دعجاوين ، وانف دقيق ، كانت فلاحية الهيئة والحركات والنظرات ، واستمرت هذه الفتاة تغني على طبيعتها وكانها ما زالت تخطو بحذر في ممرات حقل متشابك الادغال ولم يكن صوتها جميلًا غير انه كان ينضح بالبساطة وبنغمة يرتاح اليها السماع فعددتها على ذلك حديثه الإنتساب الى مهنة الرقص والغناء في هذا المكان ، غير اني رأيتها مما يرتاح اليها الرجل الطبيعي حتى لو وقفت صامتة بلا حراك ، وارتفع صوت بعيد عنا وقريب من المسرح ، يقول :

ـ اموت بالبلدي .

فابتسمت هذه الفتاة بتكلف وحياء ، وقال مخمور آخر :

ـ ينصر دينك ، هزّي شوي .

وقال آخر يؤيده :

ـ يادين النبي لو تهز .

فتصورتها تستجيب وتهز ، فلم ار في ذلك حلاوة الا لو شمل الهز صدرها الناهد الناقوسي التكوير والتفتت الفتاة الى ذلك الرجل وعلى وجهها إمارات الحيرة فيما يجب ان تفعله ، وهل تستجيب لطلب زبون هذا الملهى ؟ وارضاء الزبائن في قواعد المهنة في مثل هذا المكان يجب ان تطغى على نوازع الراقصة وحياؤها كما هو وسيلة لارضاء صاحب الملهى الذي يتاجر بمحرمات طبقة هذه الصبية .

وصاح مخمور آخر .

ـ انا في عرضك لو تموعت شويّ .

واخيراً حركت رأسها على جيدها الدقيق يمنة ويسره وهي تضع قفا يمناها تحت حنكها بينما مدت يدها اليسرى مستقيمة الى امام وكانها تصوب طلقة الى طريدة ، فصاح ذلك الرجل المخمور بنشوة .

ـ ايوه كده ، واقتليني حلالًا يابت الاجاويد .

وصاح مخمور آخر .

ـ مرة اخرى ياامبرة .

وصاح آخر .

ـ ملكة والله موش اميرة .

وجنّ الضارب على الطبلة ، وقفز عن كرسيه الى وسط حلبة المسرح . وبيده

اليسرى الطبلة بينما يضرب عليها باليمنى ، وبدت لي هذه الحركة تمثيلية مفتعلة لتزيد من اثارة الفتاة لارضاء الزبائن . فحركت الفتاة جذعها على محزمها الدقيق ، وناسقته بحركة من هز رقبتها مرتين ومرة اخرى ثم صارت تخلط بين الحركتين ، وضاعت عليها ضربات الايقاع التي يقودها ضارب الطبلة ، وصارت تتخبط كما تنتفض السمكة في شباك الصياد . واخيراً سقطت على ارضية المسرح هامدة بلا حراك ، فاسدلت الستارة ، واشتد على اثر ذلك صياح من في قاعة الملهى يطلبون رفع الستارة ليزيدوا من نشوتهم في رؤية ذلك العرض الراقص ، غير ان الستارة لم ترتفع ، واكثر الاحتمال ان تلك الراقصة لم ترقص بعد ذلك في الاقل في هذه الليلة ، او الى آخر حياتها ، وغادرنا الملهى ولاصفة لنا إلا الخسارة في لهو رخيص .

مع عبدالكريم قاسم ١٩٦٢/٦/٥ في وزارة الدفاع ومظاهرات ضده في شوارع بغداد / حزيران ١٩٦٢

في صباح يوم ١٩٦٢/٦/٥ كنت في قسم التوليد بالمستشفى الجمهوري حين جاءني احد المضمدين الذين يعملون في العيادة الخارجية بهذا المستشفى وقال لي ان ثمة جريح واسمه (يونس عبدالمجيد) يقول انه ابن اخيك وانه يطلبك لتراه ، ونفضت يدي من العمل واسرعت الى العيادة الخارجية .كان يونس قد ضرب على رأسه حتى سالت منه الدماء وغطت معالم وجهه ، فلم اعرفه إلا بعد ان تكلم معي . في ذلك اليوم كان قد تظاهر جمع غفير من الفلاحين في مسيرة الى وزارة الدفاع ، قيل انها كانت تأييداً للزعيم عبدالكريم قاسم ، وهي حركة لم ترضِ الشيوعيين يومذاك فتصدوا لتلك المسيرة امام وزارة الدفاع وضربوا المتظاهرين بالعصي وفرقوهم ومنعوا إظهار نصرتهم للزعيم ، وقال البعض ان الشيوعيين ضربوا الفلاحين لانهم على مادعاه الشيوعيون كانوا لايريدون نظام الاصلاح الزراعي . واكثر الاحتمال ان ماحدث امام وزارة الدفاع ماكان مفتعلاً اصيب فيه الفلاحون باذى وكذلك بعض المارة في الشارع وبعض السيارات فيه ، وكان من بينهم ابن اخي يونس عند مروره وهو يسوق سيارته بهذا الشارع ، فادخله الجنود الحرس الى دائرة الانضباط العسكري ، ولما شاهدوا ما اصاب رأسه احالوه الى المستشفى لمعالجته . وطلب مني ابن اخي يونس ان اذهب الى وزارة الدفاع لاخذ سيارته التي تركها في رحبة الوزارة وتذكرت آمر الانضباط العقيد عبدالكريم الجدة ، وهو من اصدقائي القدماء منذ ايام الدراسة الثانوية ببغداد ، فقصدته (كما انا) بالقميص وسروال العمليات الابيض ، وعرضت عليه ماجئت من

اجله ، ونادى الجندي الذي يقف على باب دائرته ان يصحبني الى السيارة لاتعرف عليها واخذها ، وفيما انا اتهيأ لمغادرة دائرة عبدالكريم الجدة واذا بعبدالكريم قاسم يملأ باب الدائرة ، ونهضت امامه بارتباك ، فتقدم مني وهو يقول بوجه باش :

– مرحبا دكتور كمال .

واجبته :

– مرحبا .

– كيفك ؟ .

– شكراً وأنا بخير .

والتفت وهو مايزال يمسك بيدي الى عبدالكريم الجدة ، وقال له بلهجة آمرية عسكرية :

– تعال معي ياعبدالكريم :

وأخلى يدي وخرج ومعه العقيد عبدالكريم الجدة وبقيت انا وحدي في الغرفة .

لقد رأيت عبدالكريم بوجه اقل قسوة وصرامة من صوره على صفحات الجرائد وفي شاشة التلفزيون ، غير انه حين امسك بيدي شعرت كانه قبض عليها بحزمة من عظام ، وحينئذ تذكرت حين كنا طلاباً في الثانوية المركزية ان يده المعروقة كانت على ماتذكر تكسوها البثور الندية ، كما ان جرس صوته الامري العاصف ذكرني بمشاجرته مع اليهودي ادور محلب في مقهى خليل وراء صفوف المدرسة الثانوية ، وكان في تلك المعركة مخذولاً غير ان الصلح فيما بينهما سرعان ماحدث ولم يصل علمه الى ادارة المدرسة . ورد الى خاطري ذلك الحادث وانا انتظر عودة عبدالكريم الجدة لكي يساعدني على اخذ سيارة ابن اخي يونس . وفي هذه اللحظات رأيت في زاوية من زوايا الغرفة منضدة وعليها صحن ملىء بالعنب الاسود ، وطال انتظاري وأنا وحيد في الغرفة فتقدمت من صحن العنب وقطعت حبة من عناقيدها ودفعتها الى فمي وبدأت الوكها ، واذا بعبد الكريم قاسم يلج الغرفة ويتقدم مني وكانه لم يقابلني قبل دقائق في هذه الغرفة .

– مرحباً دكتور كمال .

– مرحباً .

ورأيت عبد الكريم الجدة يشير اليّ من وراء ظهر عبد الكريم قاسم ان انسحب من حضرة الزعيم عبد الكريم ، وحين مررت به عند باب الغرفة قال لي : انتظرني ، فاهملت طلبه وغادرت غرفته لاستقل سيارة ابن اخي يونس ، وكانت بحالة سيتألم لها يونس اشد الالم . وجال في خاطري سؤال وانا اسوق السيارة .

ـ كيف نكر الزعيم عبد الكريم اسمي ولم اره منذ نحو ثلث قرن .

عضو في مجلس رئاسة الجامعة ٣ تشرين الثاني / ١٩٦٣

رشحني مجلس عمادة كلية الطب لامثل الكلية في مجلس رئاسة جامعة بغداد ، فتململت لاعتذر غير ان عميد الكلية الدكتور احمد عزت القيسي الح علي بقبول الترشيح . ودخلت لاول مرة دائرة رئيس الجامعة حيث يعقد مجلسها ، عن طريق غرفة سكرتيرة الرئيس وهي سيدة انكليزية وزوجة احد اساتذة الجامعة . وكان لحظة دخلت غرفتها يحتل كرسياً قبالتها رجل في نحو العقد السادس من عمره ذو لحية طويلة عريضة لاتزال تخالطها بعض الشعرات السود ، وقد عرفت بعد ذلك انه ابو رئيس الجامعة الدكتور عبد الجبار عبدالله ، ولم أكن قد رأيت قبلاً رئيس الجامعة ، فلما صرت في داخل غرفته الرحبة ركزت نظري على ملامح وجهه ، فقد بدا لي انه كان احد اصدقائي في يوم ما . ونهض عن كرسيه ومدّ يده اليّ ليصافحني بترحيب . ولما اخذت مكاناً على احد الكراسي التي صفت متلاصقة بجدران الغرفة ، صرت اتلفت حولي لارى الوجوه التي سبقتني الى هذا المجلس ، فلم اعرف احداً منهم سوى الاستاذ كمال ابراهيم الذي درست عليه اللغة العربية بمدرسة متوسطة الحلة سنة ١٩٢٩ ، وفتح رئيس الجامعة باب الحديث بيني وبينه وقال :

ـ انت لم تتغير كثيراً إلا في زيادة الشعر الابيض في رأسك (وأضاف) تذكر اننا كنا تلامذة في صف واحد بالثانوية المركزية ؛ على اني لم اذكره إلا تخميناً فقلت له :

ـ انك لابد صرت انحف كثيراً مما كنت في تلك السنوات .

ـ هذا صحيح (واضاف) وانت تبدو اكبر عمراً .

وتدخل احد اعضاء المجلس وهو الاستاذ رشيد العبيدي عميد كلية الشريعة وقال :

ـ انا اعرف عائلة الدكتور السامرائي ففي اكثر افرادها يظهر الشيب بعمر مبكر (وقال ايضاً) ان اخاه رشيد توفيق كان صديقي وزميلي في جامعة آل البيت ، وهو يبدو الآن شيخاً بالنسبة لي .

وفي اثناء هذا الحديث دخل الغرفة بالتتابع الاستاذ (باريت) عميد كلية طب الاسنان بجامعة بغداد والاستاذة خدوري عميدة كلية التحرير للبنات ، والدكتور مهدي المخزومي عميد كلية الاداب ، وافتتحت الجلسة بقراءة محضر الجلسة السابقة ، ثم نوقشت بعض الافكار الجامعية التي طرحها رئيس الجامعة ، والكتب التي وردت الى الجامعة من مختلف كلياتها .

واعضاء هذا المجلس يحسنون صياغة التعابير والاهتمام بالشكليات اكثر من جوهر المواضيع . واستمرت الجلسة ثلاث ساعات كانت تدار من خلالها صواني استكانات الشاي والليمون الحامض والقهوة الزكية ، وهذا تقليد لم آلفه في مجلس كلية الطب ، كما تخلل المباحث بعض النكت وخصوصاً اذا انطلقت قريحة الدكتور الخياط عميد كلية البيطرة ، وهكذا تكونت مبكراً عندي فكرة ان اعضاء المجلس يهتمون بابراز شخصياتهم كمتكلمين اكثر مما يعنيهم طرح افكار جديدة في دراسة المواضيع التي ترجع الى رئاسة الجامعة ، فاذا عرضت فكرة مقبولة ، لايتورع اكثر من عضو عن ان يؤيدها بكلام يطول اكثر مما اطال فيها صاحب المبادرة الى تلك الفكرة وقد يتلوه عضو آخر وآخر وهم يضربون بنغم على الوتر نفسه ويوماً قال لي الدكتور سلمان فائق وكان يمثل كلية الطب بوصفه عميد هذه الكلية .

ـ اعجب كثيراً مما اسمعه بتكرار من اعضاء المجلس (واضاف) وانا والاستاذ (باريت) الذي لايعرف حرفاً من اللغة العربية على حد سواء في فهم بعض ما يعرض بهذا المجلس .

وفي تلك الأيام عين الاستاذ احمد عزت القيسي مساعداً لرئيس الجامعة ، فشغرت وظيفة العمادة بكلية الطب .

وذات جلسة في الجامعة طلب مني رئيس الجامعة ان يراني على انفراد بعد الانتهاء من الجلسة ، وبدأ يقدم ما يريد ان يعرضه عليّ ، قال :

ـ لابد من تعيين عميد لكلية الطب في خلال ايام معدودة خلفاً للدكتور احمد عزت القيسي ، وتطبيقاً لقانون جامعة بغداد عليّ ان ارفع الى وزارة المعارف اسماء ثلاثة اساتذة بكلية الطب ليختار الوزير واحداً منهم (واستطرد يقول) وقد استطلعت آراء بعض زملائك في هوية العميد المقبل ، واريد ان اعرف رأيك بهذا الموضوع .

فقلت له :

ـ ان العميد الذي يفيد الكلية هو من يتوفر فيه العمر والعلم والقدم في الكادر التعليمي ، وربما قبل هذه المؤهلات ان يكون راغباً في العمل الاداري وله مكنة فيه . وعلى هذا فانا ارشح الدكتور مهدي فوزي والدكتور سلمان فائق .

فقال لي بتوجس وهو يقرأ عيني :

ـ قيل لي ان الكتور مهدي فوزي لم يحصل على مرتبة الاستاذية بحسب شروطها وانما اعطيت له اعتباطاً ، كما قيل لي ان الدكتور سلمان فائق لايتقيد بساعات الدوام الرسمي ، (ثم سألني) علمت من اضبارتك انك اقدم استاذ من خريجي كلية

الطب ، اليس كذلك ؟ .

فعرفت ماهدف اليه من هذه الاشارة ، فقلت له :

ــ انا لاافيد الكلية كعميد ، لانني لاارغب في العمل الاداري .

وبعد يوم واحد رفع رئيس الجامعة اربعة اسماء الى وزير المعارف ، ووصل كتاب الوزير الى الكلية بتعيين الدكتور سلمان فائق . وهو آخر عميد بكلية الطب حتى سنة ١٩٦٣ .

وفي جلسة اخرى تالية قرأ رئيس الجامعة كتاباً من كلية الشريعة للنظر في زيادة المخصصات لاعاشة الطلبة في تلك الكلية فاعترض احد اعضاء المجلس قائلاً :

ــ ان هذا المجلس يعالج نظم التعليم وما له علاقة بالحياة الجامعية لا الامور المعاشية ويعارضه عضو ويقول :

ــ بل الاعاشة هي العمود الفقري في القضايا الجامعية ، فاذا جاعت البطون خوت الرؤوس وتوقف التفكير .

ويقول الرئيس باسماً :

ــ اصبح الموضوع طبياً ، بطون ورؤوس .

ويلتفت بعض الاعضاء نحوي . فاقول :

ــ ليس عندي تعليق ! .

ويضغط الرئيس في هذه اللحظة على زر الجرس ، ويفتح باب غرفة المجلس ويدخل الفراش ، ويقول الرئيس بأمر دون ان يلتفت الى الفراش .

ــ شاي .

ويجيء الفراش بصينية عليها استكانات الشاي وشاي النومي الحامض ، ونلهو باحتساء هذا المشروب بضع دقائق ، وبعدها يعود الاعضاء الى الكلام عن ارزاق كلية الشريعة ، فيقول احدهم :

ــ ارجو ان يشترك هذا المجلس بالمسؤولية في جميع الامور الجامعية ، العلمية والمالية .

ويقترح الرئيس تاجيل المناقشة بهذا الموضوع ، ويلتفت الى المقرر يساله شيء آخر في جدول اعمال هذا اليوم ؟

يجيبه امين الجامعة .

ــ موضوع القدم في الرتب الجامعية ؟ لم يدرس بتفصيل فارجو ان تدرس مجدداً وبتفصيل ويقول عضو :

ــ هذا موضوع درس وبت فيه ولا ضرورة لاعادة دراسته مرة اخرى .

ويقول امين الجامعة معترضاً :

ــ وصلتنا عدة اعتراضات من اعضاء الهيئات التدريسية ولا ارى من الصواب اهمالها .

وينقسم المجلس فريقين ، واحد يطلب إعادة النظر فيه وآخر يعارض بشدة ، ويطول الجدل فكان نهاية هذه الجلسة حين قال الرئيس :

ــ تؤجل إعادة دراسة هذا الموضوع الى جلسة قادمة .

وينفض المجلس . وغادرته كما اغادره في كل مرة بحقيقة وهي ان للمتكلمين في العلوم الانسانية اسلوباً في المحاججة يتصف بالاطالة بالشكليات والمقدمات التي قد تخرج عن صلب الموضوع اكثر مما يعتاده التدريسيون في عرض افكارهم في المواضيع التطبيقية .

مقتل عبد الكريم قاسم ١٩٦٣/٢/٩

بالرغم من ان آخر ايام عبد الكريم قاسم كانت توحي ببداية النهاية من حكمه ، فان الثورة البعثية قد حدثت فجاة وبدون مقدمات انذارية ، ففي يوم ٨ ــ ٩ شباط من سنة ١٩٦٣ حوصرت وزارة الدفاع بالدبابات ، وهاجمتها طائرتان من القوة الجوية ، كما هاجمت بعض الطائرات مطار الرشيد والمثنى ، ودامت هذه الحال طيلة النهار ، والراديو يذيع بتكرار عن دكّ (قلعة الدفاع) ، واحالة بعض كبار الضباط والاداريين على التقاعد ، وتعيين آخرين كان بعض منهم في غياهب سجون عبد الكريم قاسم فافرج عنهم واعيدوا الى سابق رتبهم ومراكزهم العسكرية ، كما انيطت ببعضهم مناصب وزارية او دوائر مهمة كبيرة ، وقد عرفنا كثيراً منهم مما دلنا على ان الانقلاب قومي لا شيوعي . تساءل الكثيرون عن عبد الكريم قاسم : هل هرب ؟ هل قتل ؟ ام دفن حياً تحت انقاض ابنية وزارة الدفاع التي دكتها طائرات الثوار . وكنا نريد ان تمشي عقارب الساعة بسرعة ، متطلعين الى معرفة نهاية هذه الحركة لا التي تتقدمها من اسرار الاحداث المثيرة تقول الاذاعة ان (قلعة الدفاع قد هوجمت وهدت على رؤوس اصحابها) ونحن نعرف ان في هذه القلعة فوج كامل فهل ابيد هذا الفوج ؟ او انها استسلمت ؟ . واذاع الراديو بياناً يدعو الاطباء الى الالتحاق بمستشفياتهم حالاً ، إذن هناك جرحى بين قوات الجيش المدافع والمهاجم ، او ان النداء كان تحوطاً لما قد يحدث ، واتصلت تلفونياً بالدكتور نجيب اليعقوبي الذي كان يجاورني في منطقة المسبح التي اسكن فيها ، ولما اخبرتني زوجته انه استجاب لنداء الراديو وذهب الى

المستشفى . فكرت فيما اذا يتوجب علي ان انهب الى المستشفى كما فعل زميلي نجيب فقررت ان انهب ، ومسؤولية وعيب اذا لم استجب لمثل هذه الدعوة التي تبنها (الحكومة الجديدة) ، وارتديت ملابسي على عجل ، وسقت سيارتي الاولدزموبيل على مهل ، وانزلت زجاج نوافذها حتى لايفوتني سماع من يطلب مني الوقوف . وكان في طريقي بيت المهداوي رئيس محكمة الشعب ، وامام مدخله حافلة عسكرية ، تساءلت وانا اسوق سيارتي بحذر مما قد يعترضني في الطريق ؛ هل ان المهداوي لايزال في بيته ؟ وان هذه الحافلة حرس له ، ام انها حرس عليه ، كنت اسوق سيارتي وانا افكر في اي من الاحتمالين لوجود هذه الحافلة ! ولم اهتم لمعرفة او عدم معرفة اكثر الاحتمالين توقعاً . وكان الشارع العام مظلماً ، ومثله الشوارع الفرعية التي تصب فيه ، واسمع بعض الطلقات النارية بين حين وحين في اماكن مختلفة ، وبعضها قريب مني ، فأخافني الموقف وهممت ان اقف في مكاني ، واستبعدت فكرة العودة الى بيتي حين لعلع الطلق من ورائي ؛ وحلّت المصادفة عقدة ترددي حين اوقفني شاب يلبس الخاكي ، ومد عنقه نحوي وانا في السيارة ليتبين شخصي ، فعاجلته ،
بقولي : انا كمال السامرائي ؟ فسالني مستفهماً : دكتور كمال السامرائي ثم قال انا (علي) بن حسين جميل ، ولكن ماذا دفعك ان تخرج في هذه الساعة ، فقلت له .

ــ هو نداء وزارة الصحة ليلتحق الاطباء بمكانات وظائفهم .

ــ إذن يا عمي كن حذراً ، وسق ببطيء شديد ، واستجب لاي طلب ممن هم في الشارع من الحرس القومي ، وسوف تعرفهم من الرباط الاخضر العريض الذي يشدون به انرعهم ، وكلمة السر (عروبة) ، لاتنسى هذا الاسم . والحرس القومي في هذه المنطقة وحتى باب المعظم يعرفها ويعمل بها ، (عروبة) لاتنسها ، وان الخطورة الكبيرة بين باب المعظم والمستشفى الجمهوري واخذت طريقي على مهل نحو باب المعظم ، وعند مدخل باب الشيخ و (تبة الكرد) تكثّف اطلاق النار ، فاخترقته بسلام ولكن بخوف شديد . واوقفني جندي شاهر السلاح عند ساحة باب المعظم ، فذكرت له كلمة السر (عروبة) ، فقال لي (هي) الآن وعلى طول شارع الرشيد (جهاد) وشارع المستشفى واردف يسالني عن وجهتي ، فلما اخبرته عن ضرورة وصولي الى المستشفى الجمهوري فقال لي : انت (تدوّر) موت ، تفضل موت . وكانت في طريقي دبابة ووراء مرقبها جندي متحفز للرمي واستانفت سيري نحو شارع المستشفى الجمهوري ، وكان مظلماً وفي هدوء مخيف الا من بعض طلقات نارية متتابعة بدت لي وكانها اصوات مدافع اسمعها بين حين وحين . وكنت اسوق سيارتي ببطيء شديد وانا في حيرة بين ان افتح كامل اضوائها الامامية او اطفئها كلياً ، فاخترت الحالة الاخيرة ،

ووصلت الى مدخل المستشفى ، واذا هو بكل اطرافه في ظلام دامس ، واوقفت سيارتي قريباً من مدخل قسم النسائيات فيه ، وحين ولجت هذا القسم وكان مظلماً ايضاً الا من بصيص ينبعث من فتيل مغموس بالكحول مما نستعمله في مختبر هذا القسم . وتقدمت بحذر لادخل غرفتي المجاورة تماماً لمدخل القسم ، وبالرغم من الظلمة التي تعمها استطعت ان اعرف ان عدداً من الاشخاص كانوا يحتلون كراسيها ، وعدداً آخر ، يقعدون على ارض الغرفة او واقفين بين الكراسي . وبادرتهم في الظلمة اقول :

ــ السلام عليكم .

وسمعت واحداً يرد لي التحية قائلاً :

ــ وعليكم السلام .

ــ أنا الدكتور كمال السامرائي .

وقال من رد اليّ التحية :

ــ نحن من ضباط حرس وزارة الدفاع .

وسالني :

ــ من اين جئت الى المستشفى يادكتور؟ .

فاجبته :

ــ من منطقة المسبح .

ــ وماذا كان في طريقك الى المستشفى؟ .

ــ ظلام دامس ، وطلقات نارية وخصوصاً في منطقة تبة الكرد .

ثم سالني :

ــ اهذا التلفون مباشر ام متصل ببدالة المستشفى؟ .

فاجبته :

اذا تريد تتصل بخارج المستشفى فادر رقم صفر ثم ادر الرقم الذي تريده .

وادار هذه الارقام وسمعته يسال :

ــ دائرة الانضباط؟ انا المقدم علوان .

ــ ....

ــ نحن عشرة ضباط من حرس وزارة الدفاع فابعثوا ضابط في شاحنة ليحملنا اليكم ،

ــ .....

وسالني هذا الضابط المقدم :

ـ اين نحن الآن من فضلك ؟

فاجبته :

ـ في قسم النسائيات والولادة .

فردد ذلك ليسمعه من على الطرف الثاني من التلفون .

وعاد يتكلم في التلفون : ونحن في شعبة الولادة ، افهمت زين ؟ .

وبعد اقل من نصف ساعة وصلت سيارة عسكرية ضخمة غطاؤها من القماش السميك وانحدر عنها شخص لم اتبين رتبته في الظلام ووقف في مدخل غرفتي ، وبعد لحظات قال لمن كان فيها من حرس الدفاع .

ـ تفضلوا الى السيارة .

وخرجوا من غرفتي متخاذلين نحو السيارة الضخمة التي عرفت من خلال لغطهم انها من دائرة الانضباط العسكري .

وكان ذلك في ليلة يوم ١٩٦٣/٢/٩ . وفي هذه الليلة كان عبد الكريم قاسم قد ترك مخبأه في وزارة الدفاع الى قاعة فيصل الثاني من بابها الخلفي الذي ينفذ الى حديقة هذه القاعة ، وكانت تلك الليلة آخر ايامه في الحياة على ما علمت بعد ذلك .

موقف مع ممرضة /يوم ١٩٦٣/٣/٦

يتملكني الضجر احياناً من اعمالي المتلاحقة ، وحين فطنت الى نفسي بهذا الحال وجدتها كأنها مشدودة الى عربة لزوماً عليّ ان اسحبها بما فيها من اثقال وهي تسير على ارض غير مستوية فتحطمت اجزاء من دواليبها ، وصعب دورانها . واني لاسمع من كثير من زملائي انهم مثلي مشدودون الى عجلات لا يستطيعون منها فكاكاً ولابد ان يسحبوها ليلًا او نهاراً ، فلا راحة عندهم ولا استجمام ، وآخرون من فئة اخرى لا هم لهم الا جمع الطوابع مثلًا ، او السهر في الملاهي ، او اقتناء الاربطة ذات القيمة العالمية ، فلا يهتمون الا لمناسبة تخص هواياتهم المترفة ، ويفارقون الدنيا فلا يبقى لهم اثر محمود يفيد الناس ، وهؤلاء ايضاً يشكون وينتقدون ما لا يرضي انفسهم ، ومما لايتوفر لهم الحصول عليه . كل يشكو من حياته ولكن على نسب وانواع بحق او بدون حق .. وفي حالات ضجري او تعبي من كثرة العمل ، او الاحداث المؤلمة فيه ، في هذه الحالات افقد احياناً السيطرة على تصرفاتي الشكلية او الموضوعية المهمة فياسرني موقف لا يتفق مع السلوك المهني لإرضاء نفسية المريض او عقليته ، وحدث مثل ذلك صباح يوم ١٩٦٣/٣/٦ حين رن جرس تلفون بيتي في ساعة مبكرة فتناولته وانا بين النائم واليقظ ، واذا بصوت يقول :

ـ انا سستر (ن) .

وعرفتها حالاً ، فقد كانت من بين الممرضات والقوابل اللاتي عملن معي سنوات طوالاً في ردهة الولادة بالمستشفى الملكي ، وكانت تمارس التطريح الجنائي في دارها بعد ساعات الدوام الحكومي ففصلت من الخدمة ، غير انها إستمرت تمارس عملها الاجرامي بجرأة وتحدٍ ، وكنت ممن ينظر في الشكاوي عليها التي تحيلها الوزارة عليّ ، واثبات وقوع التطريح الجنائي ليس بالامر السهل ، فاكثر ضحايا العملية يمتنعن من ذكر اسم الممرضة التي قامت بعملية الاسقاط ، واذا ذكرت المريضة اسم تلك الممرضة فمن السهل ان تدعي هذه الممرضة ان مريضتها قد استشارتها وهي في حالة نزف رحمي فنصحتها بمراجعة احد الاطباء الاختصاصيين ولم ترها بعد ذلك ، كما ان كثيراً من مثل هذه الحالات هي من نوع الحمل غير الشرعي ، ومن البديهي في هذه الحالة ان لا تشكو المريضة امرها الى السلطات الطبية ، وتفضل الموت على إفشاء سرها ، وعلى هذا الاساس تمادت الممرضة (ن) في عمليات التطريح ، وصرت انظر اليها كغول يفتك بصحة النساء وسمعت الممرضة (ن) على التلفون تقول :

ـ اختي يادكتور كمال بحالة نزف رحمي شديد .

وفجأة خطر ببالي انها في ورطة تطريح ، وتريدني انقاذ موقفها ، فاردت ان اتأكد من ذلك فسألتها :

ـ كم عمرها ؟ .

ـ فوق الخمسين ، وانت تعرفها .

فقلت لها بتهكم :

ـ متى رأيتها ، البارحة ؟ .

ـ لا قبل عام .

ـ منذ متى هي في حالة نزف ؟ .

ـ منذ اسبوع ، ارجوك دكتور استعجل .

ـ اين هي الآن ؟ .

ـ في مستشفى السامرائي .

وتذكرت المريضة حين دخلت الغرفة عليها ، كانت هي نفسها التي رأيتها قبل سنة او اكثر ، بدينة بافراط ، نبضها معتدل الضربات ، وضغطها بحدود ١٥٠ / ١٠٠ ملغم زئبق .

فقلت اخاطب / اختها (ن) : اريد ان ارى الفوطة فاجابتني :

ــ ابدلتها قبل ساعة .

ــ اريد ان اراها ، وارى الفوط القديمة وجائتني بها فاذا الدم عليها لا يكاد يغطي من سطح الفوط إلا قليلًا ، فقلت للمرضة (ن) .

ــ الحاحك لاجيء الى المستشفى بسرعة وفي هذا الوقت المبكر من صباح هذا اليوم جعلني اعتقد ان حالة المريضة في خطر ، فاجابتني كمن يستطيع ان يحاجنني بموضوعها :

ــ دكتور الدم يجي ويروح .

والممرضة (ن) عانس وقد فاتها قطار الزواج ، فصارت قلقة ومتهورة وعنيدة ، فقلت لها :

ــ انت يا (ن) قلقة على اختك دون مبرر .

فقاطعتني تسال :

ــ والان ، ماذا ستعمل لها ؟ .

فاجبتها ببرود متعمد :

ــ لن اعمل لها شيئاً .

ــ إفحصها .

ــ ولا أفحصها في الوقت الحاضر .

فاستغربت ، وسالتني :

ــ اذن لماذا جئنا بها الى المستشفى ؟ .

فقلت لها :

ــ تستطيعون ان تاخذوها الآن او تتركوها حين ذلك اكون انا المسؤول عنها (واضفت) وقد علا صوتي .

ــ اسمعيني يا (ن) اتركي المريضة لنرى ما نعمله لها والا لن ارها قط ، فهي الآن في المستشفى وأنا المسؤول عنها طالما هي في المستشفى وسكتت وغادرت المستشفى وهي حانقة وغادرت اختها المستشفى وهي راضية .

عملية بولدون الوحيدة في مستشفى السامرائي يوم / ١٩٦٤/٦/٥

هذه هي الحالة الثامنة لإصطناع المهبل في مريضة تشكو من عدم وجوده خلقياً في جسمها . وكانت المريضات السبعة الاولى من الطبقة الفقيرة اللاتي يلجأن الى المستشفى الملكي المجاني ، اما هذه المريضة فمعلمة في مدرسة خانقين الابتدائية .

ـ اسمك من فضلك ؟ .

ـ

ـ عمرك ؟ .

ـ عشرون سنة .

ـ مم تشكين ياإبنتي ؟ .

فاجابتني بحياء .

ـ تزوجت منذ ستة أشهر ، ولم يتم الزواج بيني وبين زوجي الى الان .

ـ عجز في زوجك ؟ .

ـ لا ، فان السبب فيّ .

ـ كيف عرفت السبب فيك ؟ .

ـ سترى بعد الفحص .

وعرفت حالًا من جوابها ان الشكوى تخص اعضاءها الانثوية ، فلا يستطيع زوجها الدخول فيها .

وفحصت هذه المريضة . كانت كاملة الانوثة في جسمها وجمالها إلا في عدم وجود مهبل فيها ، فنسرت الحالة للمريضة فقالت لي :

ـ اعرف نلك ، وقد استشرت طبيبة في خانقين فنصحتني ان استشيرك في معالجتي .

فقلت لها :

ـ سيكون العلاج بعملية .

ـ عرفت نلك من الطبيبة التي فحصتني في خانقين .

ـ وهل اخبرتك ان العملية لاتحقق الانجاب ، بل انها تجعلك صالحة للمعاشرة الزواجية فقط ، ولابد ان يعرف زوجك نلك .

فقالت :

ـ ان زوجي هو ابن عمي ، وهو لايريد اكثر من نوام علاقتي معه (واضافت) وانا اريد العملية في هذا المستشفى لا في مستشفى الحكومة . ولانني احتاج في هذه العملية الى من يساعدني فيها وله المام بخطواتها ، كما انني لم اكن قد قمت بمثلها في مستشفى خصوصي ، فلذلك كله حاولت إقناعها باجراء العملية في المستشفى الجمهوري ، غير انها اصرت إلا ان تدخل مستشفى السامرائي ، فلم استطع رفض طلبها ، ولم يبق لاجراء العملية إلا ان اكلم زوجها عن طبيعة مرضها وما يجب ان اعمله لمعالجتها . وكان باستطاعتي ان انفذ العملية نون إخباره ، غير ان اخباره من

الادب الطبي والاجتماعي . وحضر الزوج امامي ، وكان شاباً في مثل عمر زوجته ، وقد بدا لي من فرط اضطرابه كأنه هو الذي ستجرى له العملية ، فسالني :

— هل العملية خطرة ؟ .

فاجبته :

— استطيع ان انفي احتمال الخطورة بها في الحالات الاعتيادية .

ثم سالني :

— هل سبق ان اجريت عملية مثلها ؟ .

فاجبته :

— ستكون هذه العملية هي الثامنة في تجربتي بها .

ولم يعلق على جوابي ولا سالني سؤالاً آخر ، بل استدار وانسحب من امامي .

واجريت العملية بعد الفحوص المختبرية اللازمة . وكانت اصعب من اية عملية سبق ان اجريتها . وكانت الصعوبة من جانب الطبيب المقيم الذي ساعدني فيها وتوقعت ان لا ترضيني نتيجتها وعواقبها ، وغادرت المريضة المستشفى بعد خمسة ايام بحالة تبدو جيدة .

وطلبت منها ان تزورني بعد ستة اسابيع ، وانتظرت زيارتها ولكني لم ارها بعد ذلك .

وزير الصحة يشكو من اعمال قسم النسائيات في المستشفى الجمهوري

فوجئت بكتاب من وزارة الصحة محوّل اليّ بواسطة مدير المستشفى الجمهوري ، وفيما يأتي نص الكتاب

وزارة الصحة

العدد ١٢٦٨ / التاريخ ١٩٦٣/٣/٢٤

مدير المستشفى الجمهوري

معلوماتنا تفيد ان في شعبة الامراض النسائية والتوليد تماهل وتقصير في واجبات اعضاء الشعبة تجاه المواطنين ، فلابد من الفات نظر المسؤول عن ذلك .

التوقيع / وزير الصحة

وقد رأيت في هذا الكتاب الجفاف وانعدام الاصول الحكومي ، كما ان فيه حكماً لايستند على حقائق ، فرفعت الكتاب الاتي بواسطة مدير المستشفى الجمهوري الى

السيد الوزير

السيد وزير الصحة

بواسطة السيد مدير المستشفى الجمهوري

اشارة الى كتاب وزارة الصحة رقم ٥١ ذاتية وتاريخ ١٩٦٣/٤/٢٤

اننا نعترف ان في قسم الامراض النسائية والتوليد نقوصاً واضطراباً في السنوات الاخيرة ، وذلك بسبب نقل اربعة طبيبات مرة واحدة من هذا القسم الى مستشفيات اخرى دون تعويض ، وكانت من تلك الطبيبات الطبيبة القدمى التي ترتكز عليها اكثر الاعمال المهمة والمستعجلة ، وبديهي ان نقل هذ العدد من الطبيبات دون تعويض يؤثر على العمل واتقانه في هذا القسم ، وكنت اعتقد ان هذا التاثير السلبي سيكون متوقعاً من لدنكم مقدماً . ان المقيمة القدمى ضرورية لاعمال التوليد في الليل ، اذ لايصح استدعاء الطبيب الاختصاصي الاقدم ليلًا لمجالة بعض الحالات المرضية التي تحتاج الى معالجة فورية ساعة دخولها المستشفى . ووجود المقيم الاقدم في هذا القسم تنظيم قديم درجنا عليه منذ سنة ١٩٤٥ وحبذا لو اطلعتم رئيس القسم على اوامركم الادارية قبل اصدارها بالصيغة التي وصلتني .

اما تنظيم العمل في العيادة الخارجية ليشمل كافة اعضاء الشعبة فهو في التطبيق ، واذا وصلتكم شكوى منه فإنها لم تصلني .

وأخيراً ارجو من سيادة الوزير ان تطلعوا الى ماياتي

(١) ان هذه الشعبة ليست للمستشفى الجمهوري وحده بل لعموم مستشفيات بغداد ، ولبعض المستشفيات من خارج بغداد ايضاً .

(٢) اكثر من ثلثي اعمال التوليد تحدث في الليل ، فلابد من توفير الكادر الليلي .

(٣) الحالات النسائية الروتينية اكثر من اي حالات اخرى في اية شعبة من شعب المستشفى .

(٤) لابد من مولدين (اثنين) قدامى لتنظيم العمل في هذا القسم

(٥) من الضروري تعيين طبيبة دائمية في العيادة الخارجية تساعدها طبيبتان من منتسبي هذا القسم بحسب جدول يضعه القسم . وبتاريخ ١٩٦٣/٣/٣١ رفع مدير المستشفى كتابي الى وزارة الصحة وفيما ياتي نص ذلك الكتاب رقم ١٢٤٤٣ :

مديرية مستشفى الجمهوري
(الادارة والذاتية)

العدد ١٢٤٤٣
تاريخ / ٩/ ١٩٦٣/١٠

الى وزارة الصحة

م / تقرير عن دائرة الامراض النسائية والتوليد .

نرفق طياً التقرير الذي وضعه الاستاذ كمال السامرائي حول دائرة الامراض النسائية والتوليد مع مقترحاته لرفع مستوى هذه الدائرة راجين الاطلاع عليه . مع العلم ان هذه المديرية تود ان تعلق على المقترحات التي وردت في نهاية التقرير بالملاحظات التالية :

(١) نؤيد ضرورة وجود ممرضة ذات خبرة بالادارة لتكون مسؤولة عن القسم . وسبق لهذه المديرية ان طلبت من الاستاذ رئيس القسم مفاتحة ممرضة بريطانية موجودة في العراق ، وهي لاتعمل في اية مؤسسة حكومية او غير حكومية ، من اجل السعي لتعيينها في هذه الوظيفة ، وفي حالة عدم نجاح هذا المسعى فالدائرة تقترح ان تكون الممرضة الفنية نجمة داود والتي تعمل الان كمعاونة لرئيسة الممرضات مسؤولة عن هذا القسم .

(٢) و (٣) لايمكن تحقيق هذين المقترحين إلا بزيادة عدد القوابل الموجودات في المستشفى ، ويمكن حل هذه المشكلة بابقاء عدد من طالبات دورة القبالة الموجودات حالياً وخاصة انهن قد اكملن فترة التدريب .

(٤) عينت في جناح الامراض النسائية ممرضة فنية هي من خيرة ممرضات المستشفى ، ويمكن للقسم تدريبها على هذا النوع من الاعمال ، وسوف لن تقوم الادارة بنقلها من هذا القسم .

(٥) ان احداث دائرة رعاية الامومة والطفولة في هذا المستشفى من الاهمية بمكان ، إلا ان مايحول دون ذلك هو عدم وجود المرافق اللازمة من غرف وغيرها لمثل هذه العيادة ، وكمحاولة لمعالجة هذا المقترح اقترح احد اعضاء القسم ان تكون العيادة الخارجية التدريسية كمركز رعاية للحوامل — يومين في الاسبوع ، وقد تكون مسؤولة عنها الدكتورة هائلة الخوجة باعتبارها اختصاصية في هذا الموضوع وسبق لها ان اشتغلت به لمدة طويلة

(٦) نؤيد هذا المقترح بكل حرارة

الدكتور فؤاد غالي

مدير المستشفى الجمهوري

وواضح جداً ان ليس في كتاب مديرية المستشفى الجمهوري ردّ على مضمون كتاب الوزارة .

الولد يعرف كيف يحمل نعش ابيه / ١٩٦٤

في بيت صديقي الزميل جابر محسن ، ونحن نواسيه بهزل وجد على ولادة إبنته الثالثة . فقلنا له لن يكون في وقت قريب فرق كبير بين الولد والبنت بالنسبة للابوين ، وقلنا ليس هناك فرق حتى في الوقت الحاضر ، وقلنا قد تكون البنت اقل مشاكل من اخيها الولد في هذه الايام ، وقلنا غير ذلك في هذه المعاني وفي غيرها . وكان من بين الحاضرين في هذا الاجتماع ضيف كبير العمر عرفت من لهجة كلامه وثيابه انه من مدينة (عانة) التي ينتمي اليها صديقي الدكتور جابر .

قال هذا الرجل موجهاً كلامه نحوي

ـ لاياخي ، انت واهم . الفرق بين الولد واخته كبير وسيبقى كبيراً الى يوم الدين في بلاد العرب والمسلمين على الاقل ، فقلت له :

ـ تعني الولد يحافظ على التسلسل العائلي واسم العائلة .

فقال لي :

ـ هذا فرق ، فالبنت اذا تزوجت لم تعد بعد ذلك من عائلة ابيها بل فرد من اسرة زوجها ، واولادها من ابناء زوجها لا من ابناء ابيها . والفرق الاخر ان (الولد) هو الوحيد الذي يعرف كيف يحمل نعش ابيه !.

وسرحت افكر في معنى كلمة هذا الرجل ، وكل كلام يفسر بظروفه الزمانية والمكانية ، فاذا فيه كثير من الحقيقة الى الوقت الحاضر . والميل الى انجاب الذكور حس ينفرد به الانسان حضرياً كان ام صحراوياً . مثقفاً او امياً ، وقد ذكرت فيما تقدم فرح الابوين من الاوربيين الذين يدخلون مستشفى السامرائي حين يرزقون بولد ويعكس ذلك اذا رزقوا ببنت فيتسللون هاربين من المستشفى دون ان يودعوا احداً ممن خدمهم .

في مطار المثنى / آذار ١٩٦٤

في صباح يوم ١٩٦٤/٣/٤ بينما كنت آخذ دوري للحصول على تأشيرة الخروج في مطار المثنى للسفر الى بيروت ، تقدم مني شاب يرتدي سترة بنية اللون وسروالاً بلون الرماد ، وسألني :

ــ دكتور كمال السامرائي ؟ .

فاجبته :

ــ نعم انا كمال السامرائي

فقال لي وفي فمه تكشيرة تعني التصرف بسلطة .

ــ تعال معي .

وتبعته الى غرفة صغيرة تطل منافذها على ساحة المطار ، وبادرني بسؤال اذهلني .

ــ دكتور الموضوع بيدك ، فاجعله مختصراً ولا تراوغ .

ــ اي موضوع ياأخي ؟ .

ــ انت تعرفه ، فلوس ؟ رسائل مكتوبة ، شفهية ؟ ، لان عندي معلومات انت تحمل رسائل وفلوس الى الاردن .

وفي هذه اللحظات سمعت من يناديني بالمذياع لاتقدم فقلت لهذا الشاب :

ــ انهم ينادونني الى الطائرة .

فاجابني دون اكتراث .

ــ هذا موضوع يخصنا ، ولابد ان اتحرى حقيقته ، واريد ان اعرف ماعندك من الرسائل الى بيروت او الاردن .

ــ حسن واذا لم تجد عندي ماتفتش عنه .

ــ تسافر بكرة ؟ .

وحملق في وجهي بعصبية وطلب مني ان انهض قائماً ، ودار في تفكيري انه لو صفعني على وجهي فماذا يجب ان اعمله ، لن اضربه طبعاً ، هل اخنع ام احتج على هذه المعاملة ؟ .

لم يضربني ، ولكني رأيته غولًا يتحفز لاهانتي ، وامرني ان افرغ مافي جيوبي ، فاخذها من يدي ونشرها على المنضدة الحديدية التي بيني وبينه وفرش اصابع كفيه عليها ، وسألني :

ــ بعد .

ــ بعد ماذا ؟ .

ـ اخلع حذاءك وجوربيك ؟ .
وفعلت ذلك طائعاً .
وسألني :
ـ عندك رسالة شفهية الى الاردن ؟ .
ـ انا مسافر الى بيروت لا الى الاردن .
ـ انا اعرف انك مسافر الى بيروت ، ولايصعب عليك السفر منها الى عمان ، لاتطوّلها وتعرضها ، عندك رسائل شفهية الى بيروت او الى عمان ؟ .
فاضحكني سؤاله ، وشر البلية مايضحك .
فقال لي بغضب :
ـ تضحك !
ـ اضحك على موقفي ، هل اقول لك عن رسالة تسبب لي جرماً ؟ .
فقال بانتصار :
ـ اذن عندك رسالة ؟
واردت ان اقول له :
ـ يا اخي انت امرك غريب .
ولكنني لم اقل له ذلك .
وسكت برهة ثم قال لي :
ـ لابد ان افتشك .
ولما انتهى من هذه المهمة سألني بوقاحة ؟ .
ـ كم عندك في بنوك الخارج ؟ ، بنوك بغداد ؟ .
فاجبته هازئاً :
ـ عندي الكثير والحمد لله .
واخذ ذلك ماخذ الجد وسألني :
ـ في اي بنك ؟ .
فاجبته هازئاً ايضاً :
ـ في بنوك كثيرة (واضفت) ، ولكن يا اخي ماشانك وما املك ؟ .
فلم يجبني مكتفياً بضحكة مفتعلة قصد بها الالحاح في اداء وظيفته ، وكظمت غيظي وامسكت عن الرد على اسئلته وقلت له خذني الى مسؤول اعلى :
ـ طبعاً آخذك !

ونقلني بسيارته (الفيات) الى (الامن العامة) بمنطقة السعدون واوقفني في بهو هذه الدائرة حيث يزدحم كثير من الناس بمختلف الاعمار والطبقات والفئات . ومن بعيد رأيت على باب غرفة ينفذ الى هذا البهو شخصاً يطيل النظر اليّ ، ولم اتذكر انني رأيته قبلاً ، وتقدم مني وقال لي :

ــ تفضل دكتور استريح عندي في الغرفة .

غير ان شرطياً كان قريباً مني قال له :

ــ لايجوز ذلك بأمر المعاون (مثنى) .

فقلت لذلك الشخص :

ــ انا اشكرك ، وسابقى واقفاً في مكاني .

وفي هذه اللحظات طلع علينا المعاون (مثنى) وهو الذي حملني بسيارته من المطار الى هذه الدائرة ، وناداني باسمي ان اتبعه ، فادخلني الى غرفة جانبية كان وراء منضدة وسيعة تملأ حيزاً كبيراً من الغرفة ، شاب انيق في نحو الثلاثين من عمره خاطبه مثنى يقول :

ــ سيدي هذا هو الدكتور كمال السامرائي الذي كلمتك عنه تلفونياً من مطار المثنى .

وعرفت بعد ذلك من مراجع دخل غرفته ان اسم هذا الرجل (صباح) فقال لي صباح :

ــ تفضل استريح .

وفي هذه اللحظة دخل عليّ احد اساتذة كلية العلوم وتقدم من السيد صباح وأسرّ في اذنه شيئاً ، ثم اسر صباح في اذن ذلك الاستاذ شيئاً ، وابتسم صباح وهو يقول لي :

ــ آسفين وتستطيع السفر بكرة صباحاً .

وغادرت مكتب السيد صباح وانا بحال نفسية يرثى لها .

وعرفت بعد ذلك باشهر ان معاون الشرطة مثنى وجد بين اوراق محفظتي وصلاً بثلاثة آلاف ليرة لبنانية وهذه كانت سبب مأساتي .

اول جائزة تقديرية

مؤتمر اتحاد الاطباء العرب في الجزائر / ١٩٦٤

في اليوم العشرين من شهر تموز سنة ١٩٦٤ ينعقد مؤتمر الاطباء العرب في الجزائر العاصمة ، فتهيأت بشوق لأرى الجزائر الشقيقة التي صمدت وضحت بمليون شهيد حتى نالت الاستقلال سنة ١٩٦٢ من فرنسا التي جثمت على صدرها زهاء

قرن وثلث . وكان من الذين شاركوا في هذا المؤتمر الدكتور شامل السامرائي والدكتور عزت مصطفى والدكتور جابر محسن وآخرون من العراقيين ، وحطت الطائرة (اير فرانس) التي اقلتنا في مطار الجزائر العاصمة ، وتوقعنا بفرح ان نقابل من مواطني هذا القطر الشقيق بما هو بمستوى كفاحهم المرير ضد فرنسا المستعمرة ، من شعور بالاخوة العربية ومعاملة سمحة من اهل هذا القطر ، بل توقعنا ان نقابل كما لو كنا من اهل هذا البلد خاصة ان (عبدالكريم قاسم) كان يمد الثوار الجزائريين بالمال والسلاح لمقاتلة فرنسا الجائرة . غير اننا فوجئنا بالخيبة التي لم نتوقعها قط ، فقد كان موظفو دائرة الوافدين الى القطر يتكلمون بلغة خليط من العربية والفرنسية وبلهجة غير مفهومة ، وطلبوا منا ان نملأ استمارات الدخول الى المدينة فاذا هذه الاستمارات مكتوبة بحرف دقيق وباللغة الفرنسية ، واستعلمنا من موظفي هذه الدائرة عن بنود هذه الاستمارة ، فاذا اجوبتهم فظة ، وغير مفهومة ايضاً . وتهنا فيما يجب ان نفعله حتى قال احدنا : لولا انني اعرف ان هؤلاء القوم يمرون بمرحلة إنتقالية الى الحياة العربية بعد حياتهم الطويلة مع الفرنسيين — لولا اني اعرف ذلك ليأست ان يعودوا الى اصلهم العربي !

وعلمنا ان نقابة اطباء الجزائر قد حجزت لنا غرفاً في فندق (البيتي) ، وهو اشهر وربما اكبر فنادق العاصمة ، مع ذلك فلم يكن مكيّفاً باستثناء قاعة الطعام ، وكان الجو حاراً ورطباً فاضطرنا ذلك ان نجتمع في كثير من ساعات النهار في تلك القاعة ، وفي صباح اول يوم بعد وصولنا الى الجزائر العاصمة دخل القاعة شاب يرتدي لباساً بلون الخاكي فقام له الدكتور عزت واستقبله باسم (منذر الونداوي) وشرع هذا حين جلس الى جانب الدكتور عزت يسبّ جمهورية الجزائر وسمعت الدكتور عزت يسأله : مالامر يا منذر ؟ .

فأجابه منذر بهزء وحنق رفض ابن بْلا رئيس الجمهورية ان يقابلني في هذا اليوم وعين لي موعداً ليقابلني بعد يوم غد ، فرفضت قبول موعده ، وسأعود الى بغداد باقرب يوم .

وفي صباح اول يوم بعد وصولنا الى الجزائر حدث ما عكر صفونا ، واثار نفورنا من اهل هذا القطر ، فقد خرج الدكتور جابر من غرفته الى بهو الفندق وهويشتم ويلعن المرأة الفرنسية المسؤولة عن جناح غرفته ، وسألناه السبب فقال :

— لم يكن في الحمام (دوش) فطلبت منها بالاشارة اناءً لاغرف به الماء واصبه على جسمي ، فلم تفهم مني ماأريده فمسكتها من يدها وقدتها الى داخل الحمام ومثلت لها ماأريده بالاشارة ايضاً ، فاذا هي تثور عليّ وتزعق بوجهي وتخرج من الغرفة

متعجلة وتعود بعد لحظات ، وسألنا الدكتور جابر ، والسبب ؟ .

ـ يا معودين ، هي بكد امي .

ونقلنا الامر الى مدير الفندق ، وهو شاب جزائري ، فطلب تلك المرأة الى مكتبه ، وحين حضرت شرعت مجدداً تشتم الدكتور جابر بعصبية ، واخيراً فهمنا من مدير الفندق انه حين قادها الى الحمام اعتقدت انه اراد منها ان تستحم معه ، فغاظها هذا الطلب وثارت عليه .

وساعة انعقد المؤتمر في صباح اليوم التالي توسط وزير الصحة حلقة نقابة اطباء الجزائر على المنصة ليرحب بالاعضاء الوافدين الى الجزائر ، ووقف خلف الوزير رجل وهو يمد عنقه ويحنيها الى جانب اذنه ويقرأ بصوت خفيض في اذن الوزير ورقة كانت بيده ، ويردد الوزير مايقرأه كلمة كلمة ، كان ذلك الرجل يقرأ باللغة العربية ويردد الوزير مايقرأه بلغة عربية مفككة وبلهجة مضحكة ، فضحك بعض المؤتمرين بصوت مسموع ، وضحك معهم الوزير نفسه .

وفي مساء ذلك اليوم اقيمت للمؤتمرين دعوة عشاء في دار المقيم الفرنسي حاكم الجزائر قبل الاستقلال . وهذه الدار قصر منيف مبني على الطراز المغربي القديم الذي لاتدخل فيه مادة الحديد او السمنت ، كما لم يكن يضاء بالكهرباء بل بالشموع والفوانيس النفطية ، وموقعه خارج المدينة وتحيطه حديقة غناء واسعة .

وكان وزير الخارجية (بوتفليقة) ينتقل بين المدعوين ويتحدث اليهم عما فعله الجزائريون ليتخلصوا من حكم فرنسا والتضحيات التي قدموها فداء لذلك . ومما قاله : ان في الجزائر اليوم مليون يتيم ويتيمة ، واستعجل احدنا وقال له :

ـ حبذا لو نحصل على شرف تربية هؤلاء اليتامى في العراق .

فاسكته بوتفليقة بقوله :

ـ نريد ان ينشأ اولادنا في بلادنا وعلى ايدينا ياحكيم .

• • •

وبدأت الجلسات العلمية في اليوم التالي ، وكنت ممن شارك فيها ، وكان موضوعي في جراحة انغلاق الرحم بعد الولادة ، واصلاحه بعملية (سبيتلي) التي طورتها بنفسي ، وقد نلت بهذا البحث جائزة المؤتمر ، فكانت اول جائزة تقديرية انالها في حياتي الطبية ، فكان فرحي بها كبيراً غير انها لم تنسيني ثقل الجو الإجتماعي والطبيعي في الجزائر فقررت العودة الى بغداد باقصى ماأستطيع من السرعة . فقصدت مكتب خطوط (إيرفرانس) وفي طريقي اليها قابلني الدكتور شامل السامرائي عائداً من هذا المكتب وكان مثلي يريد ان يعود الى بغداد فلم يحصل على مكان في اية طائرة الا

بعد يومين اخريين ، وحين عرفت منه ذلك كنت اعود ادراجي ، غير اني قررت ان أجرب حظي مع دائرة خطوط الايرفرانس وواصلت سيري الى هذا المكتب ، وبينما كنت اخطو اليه وقع نظري على فرنك فرنسي مرمي على الارض فتناولته وفركت التراب عنه وادخلته في جيب سترتي وانا اقول فيما بيني وبين نفسي : هذا هو تعويذتي لاحصل بها على كرسي في طائرة الايرفرانس . وكانت السيدة التي قابلتني فرنسية بدينة ، ويدور حول رقبتها الممتلئة عقد من الكهرب بحبات كبيرة بلون قشر الجوز وكلمتها بالانكليزية ، ولم اكمل طلبي منها حتى قالت لي :

ـ اذا استطعت ان تهيء نفسك في خلال ساعة فأنا استطيع ان اضعك في قائمة المسافرين الى (نيس) بفرنسا ، ومنها تحوّل الى إحدى طائرات ايرفرانس ايضاً الى جنيف لتأخذ ساعة وصولك احدى طائرات هذه الشركة ايضاً الى بغداد ، وسألتني :

ـ هل عندك سمة دخول الى فرنسا او سويسرا ؟ .

ثم استدركت تقول :

ـ لاحاجة الى (فيزا) لانك لن تخرج من المطارين .

وعدت الى الفندق وحزمت حقيبتي وحملتها بيدي الى مكتب ايرفرانس ، وبعد نصف ساعة تقريباً كنت في احدى طائراتها الى نيس ، وفي الجو الى هذه المدينة مرقت الطائرة بمنظر لاانساه . فقد مرت بين جبلين من الثلوج (والوقت في تموز) فسببت سرعتها سقوط كتل ضخمة من تلك الثلوج الى قاع لم ار غوره ، ومددت يدي الى جيبي افرك باصابعي الفرنك الفرنسي ليقيني الاقدار ، ومرت الطائرة دون خوف مني إلا بقدر يسير ، وبعد وقت لم يطل كثيراً حطت الطائرة على مطار نيس ، وترجّلت منها وانا احمل حقيبتي بيدي وافرك باليد الاخرى الفرنك المعدني الذي في جيبي . وسألت المضيفة عن الطائرة التي ستقلع الى جنيف ونفحتها قبل ان تجيبني عنها قدراً من الفرنكات .

فاجابتني : هيا اسرع الى تلك الطائرة من الباب رقم (٤) وبعد دقائق صعدت سلم الطائرة الى داخلها ، وبعد نحو ثلاثة ارباع الساعة حطت الطائرة في مطار جنيف ، وترجلت منها وسألت احد العاملين على ارضه عن الطائرة ايرفرنسا التي ستقلع الى بغداد ، وفركت الفرنك الذي في جيب سترتي فقادني ذلك العامل الى الطائرة التي كانت تتاهب للاقلاع من ارض المطار فكنت في داخلها بعد دقائق وادخلت يدي في جيبي لافرك الفرنك باصابعي على ما جاد به لي من سهولة الحصول على الطائرة التي حملتني الى بغداد ووصلتها سالماً مرتاحاً والحمد لله .

ان كل ماستطيع ان اقوله عن تاثير تلك التموينة ، انني لمست مما حدث لي يوم حملها ما يدعوني الى الاعتقاد باحتمال تاثيرها في خلق الحالة التي اراحتني في العودة الى بغداد .

الاحدب الصغير في الجزائر / ١٩٦٤

استسيغ ذكر تفاصيل سفرتي الى الجزائر لحضور مؤتمر الاطباء العرب الذي انعقد في شهر تموز سنة ١٩٦٤ والذي مر ذكره آنفاً في ذلك اليوم حملت حقيبتي اليدوية الى مطار جنيف بسويسرا لاستقل طيارة على خطوط (ايرفرانس) الجوية الى مدينة الجزائر العاصمة . وكان المطار غاصاً بالمسافرين من المغادرين والوافدين . وبعد ان اتممت معاملة السفر في دوائر المطار اخذت مكاني على كرسي في صالته ووضعت حقيبتي بين قدمي ، واخرجت علبة السكاير من جيبي واشعلت واحدة منها وانا اراقب حشد الناس يدخلون الصالة او يخرجون منها الى الطائرات الجاثمة على ارض المطار . وسمعت في هذا الصخب من قال باللغة العربية : ذاك هو (جورج ساندر) . فأثار انتباهي هذا الاسم ، ثم تذكرت انني شاهدته في اكثر من فلم سينمائي ، فرأيت الناس يحتشدون حول رجل طويل القامة ، منحني الظهر بيسر وهو يخطو بمهل بين زحام الخلق الكثير . ولما اقترب مني كان يقود الى جانبه طفلة بنحو العاشرة من عمرها ، وتذكرت ملامح هذا الرجل على شاشة التلفزيون فاذا هو جورج ساندرز بالتاكيد ، غير انه بان لي اكبر عمراً واثقل جسداً وابطا حركة مما كنت اتصوره ، ولمعت (كمرات) الصحفيين وتحلقوا حوله وصاروا يلاحقونه باسئلتهم عن خصوصياته واعماله .

— هل لك مشروع سينمائي جديد ؟ .
— من هذه الصبية التي تقودها بيدك .
— هي ابنتي .
— من زوجتك الاولى ام من الثانية ؟ .
— ليس من احداهن ، هي ابنتي بالتبني .

ورأيت مجموعة اخرى من الناس تدخل صالة المطار ، فرفع جورج ساند في تلك اللحظة يده عالياً يهزها وهو ينادي على شخص بعيداً عنه ، والتفت الى الجانب الذي يشير اليه فاذا الممثل السينمائي (بول براينر) برأسه الحليق ، وقد بان لي اقصر قامة مما يظهر في الافلام السينمائية ولكنه هو بذاته كما برزت صورته في مخيلتي في فلم (الملك وانا) ، وتقابل الممثلان الطويل جورج ساند والقصير بول برينر ، وتحركا

الى باب الخروج الى الطائرة اثر سماعهما النداء للتوجه الى الطائرة التي ستقلع الى باريس ، وسمعت في هذه اللحظات من يتكلم بالعربية ، وكان يجلس على كرسي خلفي ، ومن يستطيع ان لايدير اليه رأسه ليرى الوجه الذي يتكلم باللغة العربية في بلد لايتكلم إلا بالفرنسية ؟ كانت لهجة هذا الذي يتكلم خلفي مغربية واضحة من الامالة التي يتكلم بها ، وكان هذا شاباً في منتصف العشرينات من عمره ، واستدللت من لباسه والحقيبة المنتفخة بالكتب المدرسية التي بيده انه لابد ان يكون طالباً في احدى الجامعات الفرنسية ، كان زحام المسافرين شديداً فلم اكلف نفسي الانتقال الى جانبه خوف ان افقد الكرسي الذي اجلس عليه اثناء حركتي منه . وخرجت من الصالة مع من خرج منها في اتجاه الطائرة التي اعلن عن قرب اقلاعها الى الجزائر ، واتخذت مقعداً الى جانب شباك في الطائرة فرأيت نلك الشاب يدخلها ، فاشرت اليه بيدي ليحتل المقعد الذي الى جانبي ، وقلت له :

ـ انا من العراق ، من بغداد .

فأجابني :

ـ وانا من فاس بالمغرب .

وتجاذبنا اطراف الحديث ، فعرفت منه انه يدرس الطب في جامعة (جنيف) بسويسرا ، وحينذاك قلت له :

ـ وانا طبيب في جامعة بغداد وانا في طريقي لحضور المؤتمر الطبي العربي في الجزائر .

ثم تحوّل حديثنا الى ما عمله الجزائريون في ثورتهم ضد فرنسا التي احتلت قطرهم ، فاثنيت على صبرهم وجلدهم لنيل الاستقلال ببلادهم . وقصّ عليّ نلك الشاب حدثاً من جملة ما ابلى به الجزائريون . في نضالهم البطولي ، وقال انه واقعي من اوله الى آخره ، فسجلته بطريقتي الآتية .

في احدى حارات الجزائر العاصمة بيت متداعي الجدران ، وليس فيه مايدل على السكن الا بابه الذي انخلعت اكثر الواحه بسبب القدم والاهمال ، فاذا طلع الصبح ينفتح هذا الباب ويخرج منه عجوز في الستين من عمره لياخذ طريقه الى السوق ثم يعود حاملًا بيده قليلًا من الخبز والجبن . ويدخل الى بيته ويرد الباب وراءه بهدوء ، ويتجه صامتاً الى حجرة صغيرة تتكىء على احد جدرانها طاولة خشبية عتيقة وعلى جانبيها المتقابلين كرسيان صغيران ، وعلى جدار الجانب الآخر من الحجرة مناصب ورفوف معمولة من الطين والجص صفت عليها ادوات الطبخ القليلة ، ويضع هذا

العجوز قليلاً من الشاي في ماء الابريق الذي تركه على موقد قبل ان يغادر البيت ، ثم يرفع كوبين من الرف ويضعهما على المائدة ويضع بينهما قطعاً من الخبز والجبن ثم بعد ذلك يقعد على كرسي في هذه الحجرة ويظل صامتاً ساهماً حتى يحين وقت الافطار ، فينادي على ولده الذي ينام معه في الحجرة الوحيدة في هذا البيت ، ويناديه مرة اخرى وثالثة فينهض ولده بتكاسل الى المائدة ، فاذا اتما تناول فطورهما تناول الاب حقيبة يده الصغيرة المتهرئة وولى الى مكان عمله في دوائر الأمن الفرنسية .

هذا العجوز اسمه (نايل) واسم ولده (منذور) وهما كل عائلة هذا البيت الوضيع . اما ام الولد فقد توفاها الله بمرض السل ولم يكن ابنها منذور قد بلغ الثالثة من عمره بعد ، فتولى ابوه رعايته فحنا عليه بأبوة صادقة . ثم مرض منذور من العوز وسوء التغذية بمثل المرض الذي توفيت به امه ، وخلف في ظهره حدبة وفي رجليه قصراً فجعلت هذه من جسمه شكلاً مشوهاً ، واذا نهض انطوى ظهره على بطنه ، واذا مشى عرج ، فعرفه سكان حارته باسم الاحدب الصغير وطغى هذا اللقب عليه حتى نسى الناس اسمه ، وشب منذور حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره ، وهو عديم الحول على العمل ليساعد ابيه في سبيل العيش ، فانعزل في بيته الا في اوقات غير منتظمة كان يجلس فيها مع اترابه من اولاد الجيران على عتبة داره يتحدثون ويلعبون ، ويستذكرون بفخر نضال الثائرين في الجبال ، حتى اذا حل المساء عاد ابوه نايل من عمله في دوائر الامن الفرنسية فيتناولان عشاءهما البسيط ثم يسمران قليلاً ثم ينامان ، وحين اشتدت ثورة احرار الجزائر على الفرنسيين الدخلاء في بلادهم وتعسفهم في ادارة شؤون المواطنين فيها نظمت الطلائع المحاربة وفرق المقاومة السرية والتي تعمل في الجبال ، واشترك في هذه الثورة كل صغير وكبير من الرجال والنساء كل بحدود اختصاصه وامكاناته الا الاحدب الصغير وابوه نايل الذي ظل يعمل في دوائر الامن الفرنسية ، وطبيعي ان تصبح اخبار هذه الحركة الوطنية حديث الاولاد اتراب منذور حين يجتمعون به على عتبة داره . وذات يوم حين حمي الوطيس واتسع نطاق الاعتقالات غمز احد اصدقاء منذور قائلاً : ان اباه يعمل لحساب فرنسا في دوائرها بالجزائر ، فاستشاط منذور غضباً لهذا التعريض ، ولكم بيده المعقوفة الصبي الذي شاكسه ، وتضارب الاثنان وانتهى الامر بانسحاب منذور متورم الوجه مدمىً وهو يجر رجله الكسيحة الى عقر بيته حيث بكى وبكى على طول مابقى من النهار . ولما عاد ابوه فزع مما رآه على وجه ابنه منذور ، فسأله بهلع :

— ماهذا ياولدي ؟ .

فاجابه :

ـ ليس شيئاً مهماً ياأبي .

ـ ولكن عيناك متورمتان ، وهذه الدماء على وجهك ؟ .

فأجابه :

ـ ضربني صبي في الطريق .

ـ ضربك صبي ؟ ولماذا ضربك ياولدي ؟ .

فاجابه مننور :

ـ انا الذي بدأت بضربه ياابي .

وصمت الاب قليلاً وهو يفكر : كم كانت حالة ابنه يائسة حتى رفع يده ليضرب بها نلك الصبي ، فسأله :

ـ ولماذا ضربته يامننور ؟ :

ـ لقد عابني ، فكان عليّ ان اضربه .

فتوجّع ابوه في داخله اي وجع ، لقد ظن ان الذي ضربه قد اعابه على خلقته المشوهة ، فقال له :

ـ انه صبي شرير ياولدي ، فليس في الخلقة مايعاب .

فأجابه مننور بجزع :

ـ ماكان يغيضني لو انه عابني على خلقتي .

ـ إنن بماذا أثارك حتى ضربته ؟ .

فسكت مننور ، وادار وجهه عن ابيه ، فعاد ابوه يسأله :

ـ تكلم ياولدي وقل لي ماالذي اثارك لتضرب الصبي ؟ .

فادار مننور وجهه الى ابيه وقال له :

ـ قال انك تعمل مع الفرنسيين !

وجفل الاب العجوز ، ولكنه تدارك موقفه وقال :

ـ انا ؟ نعم انا اعمل مع الفرنسيين ، وما العيب في نلك وكثيرون مثلي يشتغلون في دوائرهم لكسب لقمة العيش .

ـ ان نلك الصبي لم يعن نلك ياأبي .

ـ ماذا كان يعني إنن ياولدي ؟ .

ـ قال انك تعمل لحسابهم ضد احرار الجزائر ، وانك وشيت بالمقاومين الاحرار .

فقال له ابوه بشيء من الارتباك .

ـ وهل تصدق نلك ياولدي ؟

ـ انا لم اصدقه ولذلك ضربته .

وارتمى مندور على صدر ابيه وهو يقول له والعبرة تعاني الخروج من صدره .

ـ انت ياابي خير الرجال واصدقهم في حب الجزائر .

فقال ابوه :

ـ انا لا اعمل الا لصالح الجزائر ياولدي فاطمئن .

وتكررت مضايقات الاولاد للاحدب الصغير . وتكرر الخصام والتضارب ، فضاق مندور بهذا الحال وصار لايفكر إلا بالكشف عن حقيقة ابيه في الدوائر الفرنسية .

ويناقش مندور الموضوع مع نفسه (ان ابي لا يمكن ان يخون الجزائر ، فان الابوة التي المسها فيه لايجوز إلا ان تكون من صفات الاباء البررة والرجال المخلصين لوطنهم؟ وانا اعرف ذلك يقيناً ، غير ان ماأعتقده بأبي لايعترف به اصدقائي ، فلاعمل شيئاً لاثبت لهم اني وابي نخلص للجزائر ونفتديها بكل غال وعزيز ، ولا نعمل إلا لمصلحة الجزائر الحبيبة فطلب الانتماء الى المقاومة السرّية ، غير ان ادارة هذه الحركة ردته (اليس هو ابن مندور الذي يعمل في الدوائر الفرنسية ؟ والولد على سر أبيه وهذا يكفي ان لا يعتمد عليه) فتألم من ذلك واظلمت الدنيا في عينيه ، وشعر لاول مرة في حياته انه مخلوق لانفع منه ، وانه ايضاً عالة على ابيه وعلى الجزائريين عامة . فهمّ ان يحسم موقفه مع ابيه ، فانتظر عودته الى البيت بلا صبر ، وابتدره .

ـ ياأبي اني في حال لااطيق احتماله ، فالكل يقولون انك تعمل لحساب الفرنسيين في الجزائر .

فرد عليه ابوه بجزع :

ـ قلت لك انني لااعمل الا في سبيل الجزائر ياولدي :

ـ هل اصدقك ياابي ؟ فلست ابغي اكثر من ذلك . اريدك فقط ان لاتنسى حق الجزائر علينا ، وان لاتعمل إلا لمصلحتها ،

ـ ثق بي يامندور .

ـ انا أثق بك ياابي .

ثم سكت مندور قليلًا ليقول .

ـ وانا ياابي إلا يتوجب عليّ ان اعمل شيئاً ما مثل غيري في سبيل الجزائر ؟

فاجابه ابوه :

ـ انظم الى المقاومة السرية .

فاجابه مندور بحسرة .

ـ لقد رفضوني ياأبي .

ـ هل رفضوك بسببي ؟ .

ـ لاأعرف لذلك سبباً آخر .

فتألم ابوه لهذا الجواب القاسي ، وسأل نفسه : كيف اساعد مندور ليكون مثل غيره ممن يدفع ضريبة المواطنة ، فلابد ان احقق له امنيته ان ينضم الى جموع العمل السري ، وصمم على امر كتمه عن ولده ، وهو الكتوم والصبور في سبيل الوصول الى الغاية . وفي اليوم الثاني اعتقلت السلطات الفرنسية مندور بتهمة العمل في المقاومة السرية ، وضرب وعذّب في حبسه ، ضرب على رجله الكسيحة وعلى حدبة ظهره ، فاي عذاب نفسي قاساه الاب وهو الذي وشى افتراء بابنه ليجعله في عداد الوطنيين في نظر اولاد حارته ! واطلقت السلطات الفرنسية سراح مندور بعد اسبوع من التعذيب ، فخرج بروح لاتنقص عن فضيلتها عيوب الجسم . ويبدو ان اعتقاله من قبل السلطات الفرنسية غير رأي اصحابه فيه ، فضموه الى منضماتهم السرية ، غير ان اصحابه لم ينسوا اباه الذي ادخلوه في قائمة خونة الوطن ، فالابن يعمل لنفسه لا ليمحو سيئات ابيه ، وكل ينال ماعليه من ثواب او عقاب ، فقالوا يوماً لصاحبهم مندور .

ـ آه لو ان اباك لايعمل الى الفرنسيين .

فأجابهم مندور بامتعاض :

ـ انه لايعمل للفرنسيين وانا واثق من ذلك .

فقالوا :

ـ انه هو الذي وشى برفاقنا الذين اعتقلوا قبل اسبوع .

ـ ياأخواني لقد كنت احدهم فكيف يشيء بي ، وانا اعرف كم هو يحبني !

ـ هذا ما لانعرفه .

ـ ماذا تعرفون إذن ؟ .

ـ ان (خليفة) شاهد اباك مع الجلاوزة الذين عذبوا الدفعة الثانية التي اتهمتها المباحث الفرنسية بحادث سيارة الكولونيل ميشيل .

ـ خليفة كذاب ، وانا لااصدق هذا الكذاب .

ـ لم يعد في الجزائر كذاب يامندور .

وحين آوى نايل وابنه مندور الى فراشيهما في مساء ذلك اليوم ، تململ مندور وادار مضجعه نحو ابيه وسأله :

ـ هل نمت ياأبي ؟ .

ـ لاياولدي ليس الى الآن .

وكان الاب نايل متعباً في ذلك اليوم غير انه ما كان احب اليه من التحدث الى ولده الا ان (يدردش) معه وحدس مقدماً انه سيعيد عليه تساؤلاته عن طبيعة عمله في الدوائر الفرنسية ، فهل اسهل على هذا الاب ان يدرك ما يدور في رأس ابنه من افكار وهواجس ؟ إذ ان قلبيهما ينبضان سوية بحب الوطن وافتدائه ، فلم ينفر من التحدث اليه ، ولا سخط عليه على تكرار اسئلته عن نوع عمله في الدوائر الفرنسية بل زها في سره بفلذة كبده الذي لاينفك يفكر بما يريح ضميره ويبرىء اباه من التهمة التي الصقها اصحابه به . وتمتم مع نفسه بلا صوت : (ان ابني والحمد لله بار بي وبوطنه) ومع ذلك خشي ان ما سيقوله قد لايقنع ابنه ، فقال له :

ـ نتحدث في الصباح يا مندور .

ـ بل الآن يأبي ، ارجوك ، لان اصحابي يقولون ان اباءهم رأوك بين الجلاوزة الذين يعذبون المعتقلين ، فهل هذا صحيح يأبي ؟ .

فاجابه ابوه ، بتخاذل :

ـ نعم كنت معهم كموظف مكلف للتاكد من تطبيق العقوبة .

فساله ابنه :

ـ هذا كل مافي الامر يأبي ؟ اريد ان اعرف الحقيقة .

ولم يجد ابوه جواباً ، فقال ابنه مندور :

ـ إذن مايقال عنك صحيح ياابي !

ـ سامحك الله ياابني ، فانا بريء مما يتقولونه عني ، وحاشا ان اخون وطني واهلي ، فنترك الحديث عن ذلك الى الصباح ، فانا متعب الآن .

وأرق مندور على وسادته التي بللها بدموعه ، كما ارق ابوه بصمته .

واستيقظ مندور على صراخ ابيه وهو فريسة كابوس ، ثم عادا ينامان ، فلما استيقظ مندور في الصباح لم يجد اباه على مائدة الافطار كما لم يجد ما يدل على انه أكل شيئاً مما عليها فقال في سره والحزن يعصر قلبه .

ـ لقد هرب ابي من قول الحقيقة ، وانه إذن لخائن ، وان اولاد الحارة لصادقون . فلن آكل من مائدته هذا اليوم ولا في اي يوم ، ولن يؤلمني خواء بطني من الجوع اكثر مما في قلبي من حزن وأسى ، وغيري من احرار الجزائر ينامون اياماً على الطوى ، ويموتون من الجوع والجراح . وانتظر مندور في بيته حتى عاد ابوه ، فاستقبله حانقاً .

ـ انت تعمل في سبيل فرنسا .

ـ سامحك الله ياولدي .

ـ ولن يسامحك الله يارجل .

وانعقد لسان ابيه ، وجهد حتى قال :

ـ ياولدي ...

فقاطعه ابنه قائلاً :

ـ لاتخاطبني بهذه الصفة ، فان هذه هي عاري ، ولن اكون ابنك بعد اليوم .

ـ انك تعذبني ياابني فلا تقس عليّ

فقال له مندور

ـ ان عذابي بسببك اشد ولااطيق البقاء معك .

وغادر مندور بيت ابيه وهو يهيم ، على غير هدى حتى قادته الدروب الى الجبال حيث يقاتل احرار الجزائر ، وشاهد ما يكابدونه من ويلات ومطاردة وجراح . وقد كتم سر ابيه عن هؤلاء الرجال ، ولكن هذا السر بقي يعمل في رأسه وقلبه كمثقاب ، وبلا هوادة . ويقول لنفسه مسلياً (مانذبي ان كنت ابنه ، فانا لم اختر ان يكون ابي) والتمعت في رأسه فكرة ان يقتل اباه لينقذ المواطنين والجزائر من وشاياته وخيانته الدنيئة ، واقسم باسم الجزائر ان ينفذ وعيده ، فان ذلك هو الكفارة عليه وعقاب الله له . (فلابد ان اقتله ، وانني لاشعر الآن اني لم اخلق إلا لهذه المهمة ، وقد اكون قد شوهت بحكمته تعالى لاعمل زاحفاً لقتل الغادرين الذين في متناول يدي بعد ان صرت عاجزاً عن حمل السلاح الثقيل والكر والفر في ميادين القتال) ـ (ساقوم ايها الاب الفاسد باخماد انفاسك لاتيح لابطال الجزائر ان يعملوا بعيداً عن ترصد جواسيسك بامان) وفي ليلة مظلمة انسل مندور من كهوف الاحرار واخذ طريقه الى مدينة الجزائر ، حتى اذا وصل مداخلها تلصص الى بيته حيث ينام ابوه ، وحين دخله شد قامته وخطا بهدوء وحذر الى مخدع ابيه . وفكر الا يوقظه قبل ان يطعنه بالسكين التي بيده ، ثم عدل عن هذه الفكرة (لابد ان اوقظه اذا وجدته نائماً) بل اتمنى ان اوقظ المدينة كلها لتشهد مصرع الخائن بيدي انتقاماً لاحرار الجزائر ـ وخطا دون تردد او وجل الى سرير ابيه في الحجرة الصغيرة التي كان الظلام يغمرها بثقل ، ومدّ يده ليتحسس موضع ابيه في السرير ، فاذا هو في سريره ، وهزّه ليوقظه ، ولكن ابوه لم يستيقظ ، ثم لكزه بسكينه ، ولكنه لم يتحرك ايضاً ، ونادى باسمه :

ـ استيقظ يا نايل ، انا مندور .

فلم يستجب نايل لنداء ابنه . ماأغرب المفاجأة ، طاش لها لبّه ، وكاد يفقد رباطة جاشه ، فقد وجد اباه غارقاً في دمائه ، وتمالك نفسه ، وظل برهة في مكانه

يفكر ، وقال :

ـ لقد سبقني الاحرار الى قتله ، واظنهم كانوا من شباب الحارة ، وحسناً فعلوا ، لقد قتلوه في ظلام الليل فاذا جاء الصباح فستكتشف السلطات الفرنسية مقتله وتبدأ باعتقال الشباب بلا تمييز بتهمة قتل هذا الخائن . ولكن الم اجيء انا لاقتله ، فلابد ان اكون انا القاتل دون غيري ، فالطبيعة التي خذلتني لاحارب على الجبال لاتضن عليّ ان اعمل في قعر الدور ، فلاخدم بلدي من هذا الحيز ، وهذه دائرتي ، واختصاصي انا (الاحدب الصغير) ، ثم لابد ان اكون انا القاتل والا فستعتقل السلطات الفرنسية عدداً كبيراً ممن ليس لهم يد في مقتل ابي . والقى نظرة اخيرة على ابيه المسجي على فراشه المنضوح بالدماء ، واندفع يعرج خارقاً الى الشارع ، الى دائرة الامن الفرنسية . وطلب مواجهة احد المسؤولين فيها ، فبادر قائلاً .

ـ لقد قتلت ابي وها انا بين يديك .

واستغرب المسؤول الفرنسي من دعوى هذا الصبي المشوه فساله :

ـ ماذا تقول ياصبي ؟ .

ـ قتلت ابي بهذه السكين .

ونظر المسؤول اليه . باحتقار ، إذ كيف يستطيع هذا الصبي المشوه الذي يشبه دودة القز ان يقتل مخلوقاً ؟ .

وقال له :

ـ انت معتوه ياولد !

ـ بل انا بكامل إدراكي .

وساله :

ـ ما اسمك ؟ .

ـ اسمي منذور بن نائل وابي موظف في دائرتكم .

ـ تقصد نايل بن مصطفى ؟ .

فاجابه منذور بجرأة واعتداد :

ـ انه هو نفسه .

فاستشاط المسؤول غضباً حين سمع ان القتيل الذي ذكر اسمه منذور هو افضل موظفي دائرته .

وساله :

ـ واين قتلته ياحقير ؟ .

ـ قتلته في داره وهو الآن ميت في فراشه بداري .

ـ ولماذا قتلته ؟ .

فاجابه بتشفٍ .

ـ لانه ينقل اليكم حركات احرار الجزائر .

فازداد المسؤول غضباً لصراحة مندور وانتشر الخبر الى كل مكان في الجزائر (لقد قتل الاحدب الصغير اباه الموظف بـدائرة الامن الفرنسية . ووجفت قلوب الشباب خوفاً من الاعتقالات العشوائية) ثم ورد في الخبر بعد ذلك (ان الاحدب الصغير اعترف بقتل ابيه) وقد سلم نفسه للسلطات الفرنسية ، فارتاح لهذا الخبر بعض الشباب ، اما الاحرار في الجبال حيث يقاتلون الفرنسيين ويقتلون فقد نزل عليهم الخبر نزول الصاعقة على الرؤوس الحاسرة إذ كان نايل العجوز من انشط الرجال الذين يعملون بسرية في خطوط العدو الفرنسي ودوائره الامنية لتزويد الثوار بالمعلومات العسكرية التي يخططها الفرنسيون لمطاردتهم وضربهم . وقد وشى ببعض الشباب من الجزائريين ومن بينهم ابنه مندور عن أمور تافهة تمويهاً على اعماله السرية الخطيرة التي ينقلها الى احرار الجزائر المقاتلين على جبالها الشم .

رحم الله نايل وعفى الله عن ابنه مندور ، فكلاهما بطل وعمل كل منهما بطريقته لتحرير بلده الجزائر .

الامتحانات في كلية طب الموصل / ١٩٦٤

في شهر حزيران ١٩٦٤ طلبت كلية طب بغداد انتداب طبيبين في كل من الامراض الباطنية والامراض الجراحية والامراض النسائية والتوليد للمشاركة في امتحانات الصف المنتهي بكلية طب الموصل ، فكنت انا والدكتور اسماعيل رشدي في امتحان الطلاب بالامراض النسائية والتوليد ، وفرحان باقر ومحمود الجليلي في الامراض الباطنية ، والدكتور (كلي) في الامراض الجراحية واستقر رأينا ان نسافر بالقطار ، وكنت اول من وصل الى محطة قطار الموصل بجانب الكرخ ، وهذه اول مرة ادخل فيها هذه المحطة . وكان منظرها الخارجي ، الذي لا يخلو من لمسات من العمارة الاسلامية ، يجتذبني في كل مرة امر بها لادخلها لارى كيف وفق مهندسها (الكرنل ورد) ان يحتفظ بتصميم فضاءآتها ومداريها بالطابعين الاوربي والاسلامي ، فاذا هو نجح في ذلك غاية النجاح ، غير ان التغييرات المرتجلة التي ادخلت عليها قد شوهت روعتها اي تشويه ، وهكذا عملت ايدي قليلي الخبرة والذوق

في كثير من العمارات الجميلة التي استحدثت سني بغداد في شتى الثلاثينات .

وكنت اول من وصل الى هذه المحطة ، ثم توارد زملائي وهم يحملون بايديهم الحقائب الصغيرة ، ويتطلع كل واحد منهم ليرى من وصل من زملائه الى المحطة ، وبسهولة حصلنا على تذاكر السفر من (الشبابيك) التي تحيط باحتها الوسيعة المرصوفة بالرخام . ولما التم شملنا توجهنا الى عربات القطار ، وصعدنا الى مقصورة واحدة ، وصرنا نتحدث في كل شيء . وغريب كيف ينبسط الاطباء حين ينعزلون الى بعضهم ، فترتفع المجاملات والكلفة فيما بينهم ، فينقد بعضهم بعضاً بلا حرج ولا تقيد ، وكان من بيننا اعزب واحد ، فالح زميل منا في التحدث عن العزوبة والعزاب والزواج والمتزوجين ، وشارك آخرون يغمزون ويلمزون الزميل الاعزب وكان في العربة الملاصقة للعربة التي استقليناها ثلاثة اوانس من طالبات كلية طب بغداد وقد تعرفنا عليهن في محطة القطار ببغداد .. فسال احدنا زميلنا العزب :

ــ ماذا تفعل لو كنت في عربة الاوانس الثلاث اللاتي في العربة الاخرى ؟ .

وساله آخر :

ــ ماذا تفعل للخادمة التي تفتح لك باب البيت حين تعود اليه متاخراً في الليل ، والاهل نيام ؟ .

ولم يجبه زميلنا الاعزب ، غير ان السخط بدا على وجهه ثم قال بعد لحظة :

ــ عيب .

فقال له ذلك الزميل المرح :

ــ موعيب ، ياما انا سويتها ويّا الخادمة

فاجابه الزميل العزب بسرعة وذكاء ولباقة :

ــ عندي خادم بالبيت مالك عيشة عندي .

وضحكنا جميعاً .

وقبيل وصولنا الى الموصل تراءت لنا ماذنة جامع الموصل وهو يلوح على تل واطيء ، كما تراءت لنا الى جانبها البيوت وما يفصلها من المزارع . الزاهية ، ثم المئذنة المائلة .

ونمت في تلك الليلة في فندق المحطة نوماً عميقاً ، فلا نداء تلفوني ولا واجبات مدرسية لطلاب الكلية وفي الصباح اجتمعنا حول مائدة طويلة لتناول فطورنا من (القشفة) اللذيذة وتوابعها من الشاي والقهوة ، وكانت قاعة الطعام انكليزية الطراز ، وكنت قد رأيتها لاول مرة في سنة ١٩٤١ حين كانت مزينة (ببار) مصنوع من الحجارة واغصان شجر البلوط . والتفت يميناً ويساراً لاتاكد من انني كنت يوماً ما

بهذه القاعة بالتاكيد ، فوثقت من ذلك بالرغم من عدم وجود البار ، او الباب المتحرك .
ولما ذكرت ذلك لزملائي نفى هؤلاء وجودها قبلًا . وفجاة طلع من باب جانبي نادل قصير القامة ، كبير العمر ، بحدبة يسيرة في ظهره ، وهو يحمل القوارير والاكواب والصحون وشرع يصفها على مائدتنا ، فسالته :

— كم سنة وانت تعمل في هذه الصالة ؟ .

فاجابني :

— منذ بناء هذا الفندق تقريباً .

وساله احد زملائي :

— هل كان في مكان ذلك الباب باب متحرك ؟ .

فاجابه النادل :

— نعم ، واسيء إستعماله فتكسّرت به قوارير واكواب فرفع . ونظر اليّ ذلك الزميل ليوثق لي صدق ذاكرتي .

وكان على المائدة رئيس جامعة بغداد الدكتور عبدالعزيز الدوري ، وهو جم الادب ، ومجامل كعادته ، وكانت كلية طب الموصل يومئذ احدى الكليات التابعة لجامعة بغداد فجاء الدكتور الدوري الى طب الموصل بهذه المناسبة ، وعلى مائدة الافطار تطرق الدكتور الدوري في حديثه الى (الدوائر) والى دراسة الطب بخمس سنوات ، دون حماس يذكر .

واذكر في مشاركتنا بهذه الامتحانات ان احد زملائي تصرف اثناء تصفية درجات الطلاب — مع استاذ الجراحة (كلي) كما لو ان ذلك الزميل هو صاحب الولاية على موضوع الجراحة في بلدته الموصل . غير ان الاستاذ كلي تصرف بادب فلم يفتح مع ذلك الزميل اللحوح باب الجدل العقيم ، كما اذكر ان ذلك الزميل وقف ضد طالب اسمه (عجيب) دون مبرر وحاول ان لا يدخله في قائمة الناجحين ، وكان هذا الطالب من انكى طلاب صفه في الامراض النسائية والتوليد وكذلك في موضوع الجراحة . فلما عدت الى بغداد رفعت الى رئيس الجراحة مقترحاً للاستفادة من الطالب عجيب بايفاده الى انكلترا لدراسة عليا في احد مواضيع الطب ليتاهل فيه الى ملاك التدريس في كلية طب الموصل ، وقد علمت ان رئيس الجامعة قد عمل بهذا المقترح ، وباي حال فان الطالب عجيب هو اليوم في مرتبة تعليمية عالمية بكلية طب الموصل .

الانثى والذكر من المولودين / ١٩٦٤

توليت بطلب من الاستاذ فتح الله عقراوي رعاية زوجته السيدة نزهت اثناء حملها الثاني ، وكانت قد فقدت ولداً ذكراً في بيروت قبل عامين تقريباً ، ولذلك كانت هي وزوجها الدكتور عقراوي في اشد حالات التوقع واللهفة في ان يرزقا ولداً تعويضاً عن بكرهما الذي فقداه اثناء الولادة ، وكان الدكتور عقراوي لاينفك يسالني : عما تحمله زوجته ، ذكراً ام انثى ، في هذا الحبل ، فانفي له علمي بذلك ، ثم ذكر لي وهو يضحك ان القابلة نديمة مشهورة بتوليد البنات والقابلة كاترين تولد الذكور ، والقابلتان موظفتان بدار التمريض الخاص ، ويوم احست زوجته بالطلق . قال لي :

ـ اريد ان انفي مايعتقده الناس ، فارجو ان تكلف نديمة لتوليد زوجتي ، فقد يكون دورها في هذه المرة ان يكون الوليد ذكراً خلافاً لما اشتهرت به في توليد الاناث وكلفت نديمة ان تقوم بتوليد زوجته نزهت فوضعت بنتا وهي التي سماها ابوها ميسون بعد ذلك . وقابلني عقراوي بوجه ليس فيه من المعاني الا الاعتراف بسخافة معتقدات الناس بجنس الجنين الذي تتحكم به القابلة اثناء الولادة .

وبعد عام ونصف تقريباً حملت السيدة نزهت ، واكتشفت انها حامل بتوأمين . ولاحظت ان زوجها الدكتور عقراوي قد انقطع عن اسئلته عما تحمله زوجته في داخل بطنها كما كان يفعل بتكرار في حملها السابق ، وبدا لي انه خضع لحكايات الناس في ان للقابلة علاقة بجنس الجنين ، فطلب مني ان تشرف على زوجته القابلة كاترين المشهورة بتوليد الذكور وجاء يوم المخاض فوضعت نزهت توأمين كلتاهما انثى ، ولا انسى ماطاف على وجه ابيهما لحظة انباته القابلة كاترين بذلك .

وقصة الدكتور عقراوي تذكرني بحكاية السيد ابراهيم كمال وهو وزير سابق وأب لبنتين ، وقد سالني ذات يوم عن طريقة تحقق الحبل بذكر ، فنفيت له امكانية ذلك . وعلمت بعد ذلك انه سافر الى اوربا ثم الى امريكا ينشد اطباء القارتين لتحقيق مايريده في حمل زوجته المقبل .. وعاد من سفرته الى بغداد ، وصرت اشرف على حالة زوجته اثناء حملها وهو يؤكد لي طيلة ايام حملها انه سيكون اباً لولد من هذا الحمل . وجاء يوم الوضع فولدت زوجته توأمين كلتاهما انثى فصارَ عنده اربع بنات ، ورأيته يومئذٍ في كريدور دار التمريض الخاص وهو قادم لزيارة زوجته في هذا المستشفى ، وقال لي بوجه متجهم تعلوه الحسرة .

ـ لو اننا يادكتور اكتفينا بابنتينا ولم نستشر الاطباء لكان ذلك افضل لنا بينتين لاباربع بنات .

ان معرفة جنس الجنين والتحكم في جعله ذكراً ام انثى امر عجز عن تحقيقه

الطب ، واذكر يوماً وانا طالب في السنة الرابعة بكلية الطب ، سألت استاذ الاشعة الدكتور ملز بعد الانتهاء من محاضرته في تصوير الجنين في رحمه عما اذا كان باستطاعته ان يعرف (جنسه) بالتصوير الشعاعي فنفى لي ذلك الا في حالات نادرة جداً ولما قلت له ان ذلك وارد في القرآن الكريم ، ففتح عينه بما يشبه الاستغراب وقال لي مستفهما :

ـ هل تذكر النص ؟ .

فوعدته ان انقل اليه النص في السورة والآية وحين اعطيتها له طلب مني ترجمتها الحرفية ، وفعلت ذلك كما اراد .

والملاحظ ان ثمة عوائل معروفة بانجاب الذكور فقط ، واخرى معروفة بانجاب الاناث فقط ، او على الاكثر يكثر في بعض العوائل عدد الذكور بنسبة كبيرة على عدد الاناث وفي عوائل اخرى عكس ذلك وفي يوم من الايام الماضية انتشرت نظرية (داوسن) في تحديد جنس الجنين وملخصها ان الطبيعة تسعى دوماً ان تعادل بين عدد الذكور وعدد الاناث ، وبما ان الاجنة الذكور عند خلقها في الرحم اكثر من الاناث كما ان أكثر البكور ذكور لذلك حسب نظرية داوسن فان سقوط الاجنة الذكور اكثر من سقوط الاجنة الاناث ، وهذا قد لا يكفي فصارت الولادات العسرة وموت الاجنة الذكور في اثناءهما اكثر مما في ولادة الاناث . ويستمر داوسن في تدوين ملاحظاته فيقول : وتظل الطبيعة تلاحق عدد الذكور في الحياة فتقتل منهم اثناء الحروب واثناء العمل الصناعي بما يجعلهم يقربون عدداً من الاناث وتطرف (داوسن) في نظريته حين قال (ان المبيض الايمن يختص بانتاج البويضات لحمل الذكور من الاجنة ، والمبيض الايسر لانتاج الاناث ، ثم قال مدافعاً عن هذه النظرية : ان المبيض الايمن له خاصية في اجتذاب الكروموسوم الصغير ليكون من اتحاده مع البويضة ولداً .. على ان الوقائع لاتؤيد ذلك .

ومنذ اقدم التواريخ يفضل الانسان الذكور على الاناث ليكون له قوة وذرية واسعة ، وحاول طرقاً عديدة لتحقيق ذلك لايخلو ذكرها من طرافة ، فقد اعتقد ان الزوجة اذا مسكت خصية زوجها اليمنى اثناء الجماع فسيكون الوليد ذكراً ، وفي الوقت الراهن لا في العراق وحده بل حتى في البلاد الراقية يفضلون الذكور على الاناث ، وخصوصاً في الولادات البكر ، وفي مستشفى السامرائي حين تلد الحامل ذكراً تعم الفرحة الاسرة كلها .

وهذا ينطبق على الامهات الاجنبيات كالالمانيات والانكليزيات فاذا رزقن بذكر وزع الزوج هدايا لكل العاملين في المستشفى اما اذا رزق بانثى فلا يحظى احد ممن في

المستشفى إلا بالشكر العاجل حين تغادر النفساء المستشفى .

صديقي الدكتور (ن) ١٩٦٤

ليس من عادة (ن) ان يجيء الى بغداد اكثر من مرة في الاسبوع ، فاذا هو امامي الآن ، وقد كان امامي قبل ايام معدودات ، وزارني قبل خمسة عشر يوماً ايضاً . دخل (ن) عيادتي في مستشفى السامرائي وتقدم مني وعانقني كما يفعل في كل مرة يزورني ، غير انه في هذه المرة اطال عناقه لي وفي انفاسه ريح من الحزن والقلق .

— غريبة يا(ن) جئت في هذا الشهر اكثر من اربع مرات ، خير ان شاء الله ؟ اشوفك غير مرتاح ، تعبان ؟ .

فقال لي بعجلة :

— انتظرك في غرفة السكرتيرة حتى تنتهي من مرضاك .

— طيب ، ولكن ماالامر؟ شكوى اخرى عليك ؟ .

— لا ، لاأبداً ، انتظرك في غرفة السكرتيرة .

وغادر غرفة عيادتي .

وعدت استقبل مرضاي ، وأنا ابحث فيما يمكن ان يجعل صديقي (ن) كئيباً وقلقاً بهذه الدرجة . وحين انتهيت من عملي لم اجده في غرفة السكرتيرة ، فسالتها عنه فاجابتني :

— خرج رأساً الى الحديقة ، وقد رأيته يذرع الحديقة طولًا وعرضاً .

وخرجت اليه وبادرني يسال بلهفة :

— اين نذهب هذه الامسية ؟ .

— الى حيث تريد .

— الى المكان نفسه .

وفي السيارة وهو الى جانبي ، سالته :

— ما دهاك يا (ن) انت تقلقني ؟ .

ولم يجبني ، غير انني حدست بسهولة انه في اشد حالات الاضطراب ، وبحاجة شديدة الى من يهوّن عليه امره او يقدم له نصيحة ، فقلت له وكانني وقفت على مافي افكاره من قلق .

— لكل مشكلة حل ، تكلم واشرح لي مصيبتك :

ولم يتكلم .

ودخلنا حديقة مطعم دجلة بشارع ابي نواس الذي اعتدنا ان نتلاقى فيه اذا جاء الى بغداد ، كان الطريق فيما بين مدخل هذا المطعم والطاولة التي قصدها (ن) غير مستوٍ ، وضياء الحديقة غير كاف لنتأكد من مواضع اقدامنا ، كما كانت مصابيح الحديقة بلون ازرق غامق ، فتعثرنا حتى وصلنا الى الطاولة التي قصدها (ن) واسرع ليأخذ كرسياً عليها ، ويبسط ذراعيه على سطحها ، وحرك قدحاً فارغاً كان موجوداً عليها ، ثم اعاده الى مكانه ، ثم دفعه الى وسط الطاولة كما كان . ورفع رأسه يطيل النظر اليّ ، فاحسست بروحه لابوجوده ونظراته دوماً نفاذة ، وكأنها في هذه المرة قد نفذت الى اعماقي ، ثم شرع يقول :

ــ إسمعني ياكمال ، مرّ شاب في احدى اسواق بغداد فاستوقفه رجل يعمل بتقطيع الزجاج وكان بضربة واحدة يقطع الزجاجة كما يريدها لعمله ، طويلة او قصيرة ، مستديرة او مستقيمة ، فاستغرب من الدقة التي يتحلى بها هذا الرجل ، واعجبته مهارته الخارقة في عمله ، وعاد الشاب الى اهله وقصّ على ابيه ما رآه من مهارة ذلك الرجل في تقطيع الزجاج ، فقال له ابوه : هذا من صفاء البال وارتياحه ياولدي ، واذا اردت ان تتأكد من ذلك ، فاتبع ذلك الرجل لتعرف مكان بيته ، واشتر في اليوم الثاني لحماً وبامية وطماطة واحملها الى بيته ودق بابه فاذا طلعت عليك زوجته فقل لها : ان استادي ارسل معي هذا (المسواك) . وستقولّ لك استاذك بعث المسواك قبل ساعة وفيه باذنجان الذي اشتهاه لغداء هذا اليوم لا بامية ، وانصرف عنها ، وعد في اليوم الثاني الى دكان ذلك الرجل الذي اعجبك في تقطيع الزجاج ، وفعل الشاب ما طلب منه ابوه ، وشد ماكان استغرابه حين رأى ذلك الرجل اذا ماضرب الزجاج بمطرقته تكسّرت قطعاً قطعاً ، واخذ زجاجة اخرى وحاول ان يقطعها بالشكل الذي يريده الا انه فشل ، وعاد الشاب الى ابيه واخبره بعجب ما آل اليه ذلك الرجل .

فقال ابو الشاب يفسر له ما غمضت عليه معرفته .

ــ حين عاد الرجل الى بيته قدمت له زوجته غدائه من البامية فاستغرب من ذلك وقال لها انه بعث باذنجان لغدائه اليوم . فقالت له زوجته ، جاء (صانعك) ومعه بامية واخبرني انك تريد غداء اليوم من البامية ، وطاش رأس الرجل وصار يضرب اخماساً لاسداس ، عمن يكون ذلك الرجل الذي تجاسر وبعث الى زوجته مسواك اليوم !! لابد ان ثمة رجل يراود زوجته وقد يكون إتصل بها في امور اخرى

وانتهى (ن) من هذه الحكاية وسألني :

ــ فهمت مغزى الحكاية ؟ .

ــ تقريباً .

ـ نعم عليّ شكاية أخرى بسبب خطا لايقع فيه حتى المبتديء في الطب . انتهيت ياكمال ، والمشتكي في هذه المرة هو مدير شرطة اللواء ، وهو لايحبني ولا أحبه ، واظنه سيقسو عليّ في شكواه .

ـ هون عليك ياعزيزي .

ـ وبماذا اهون على نفسي ، وانا اعرف انني ساقع في مشكلة اخرى ... لابد ان تفهمني ياكمال اذا انت فهمت الحكاية التي سمعتها مني ، وتوقع مني سلسلة اخطاء لاتنقطع ففهمت حينذاك ماذا قصد بتلك الحكاية ، ولكني اشفقت عليه ان اخبره بما جال بخاطري .

وكان يترع كاسه (بالعرق) بتلاحق . وفجاة قال لي :

ـ لاتحتقرني ياكمال ، فعندي طفلة وليس عندي من يرعاها من أهلي او اقاربي ، ثم كيف اعيش وحدي ، ومن يتزوجني وانا مطلاق ، ولا أظنني استطيع ان ارضي الزوجة . وبكى صديقي الدكتور (ن) بصمت وهو ينحني على الطاولة ويقبض بكلتا يده على الكاس التي افرغها تواً في جوفه ثم رفع رأسه وقال كمن يخاطب نفسه :

ـ لن يتالم على وفاتي إلا اختي (س) (واستدرك يقول) وانت ايضاً ياكمال .

فقلت له :

ـ انت تضخم الأمور وتبالغ في تفاصيلها .

فقال لي :

ـ بل ان اموري عدو لي وهي تلح في تحطيمي ياكمال .

وغادرنا المطعم بعد ساعتين وانا احمل همّ هذا الصديق العزيز ، ولزم الصمت وانا اسوق سيارتي واخيراً قال لي وهو يترجل عنها .

ـ قد لاتراني بعد اليوم ياكمال .

فقلت له :

ـ ماذا تعني ؟ .

فلمس مني ظنوني السيئة بما قاله فقال بعد صمت قليل :

ـ الافضل ان لاأجيء الى بغداد بعد اليوم .

مرض هربس زوستر / ١٩٦٤

اصبت حين كنت في لندن في صيف ١٩٦٤ بمرض يسمى (هربس زوستر) ، وحكايته معي تستحق الذكر لاسباب منها شخصية كما هي درس في ممارسة الطب ،

كنت اسكن في (رولاند هاوس) بلندن من ايام شهر تموز ١٩٦٤ ، وقد استيقظت على وخز في جنبي الايسر بناحية الورك او فوقه قليلاً ، وتحملت الالم طيلة النهار غير انه كان يشتد شيئاً فشيئاً وما حل المساء حتى ازداد وانتشر الى امام جسمي والى خلفه من منطقة محزمي ، فاضطررت الى تناول اخف المسكنات وهو الاسبرين وهو من الادوية التي استطيع شراءها من الصيدليات بلندن من غير وصفة طبية ، واشتد الالم في مساء ذلك اليوم حتى صرت احس به ينفذ الى نخاع عظام الورك ، وانتظرت الصباح على مضض ، واعرف ان الاستشارة الطبية لاتتيسر في لندن الا بموعد سابق ، وشكواي مفاجئة وحاولت ان اجد طبيباً يستقبلني عن طريق مدير رولاند هاوس السيد يوسف شمطوب وهو عراقي وفحصني هذا الطبيب باهتمام ، ونظر في عيني وهو يفرج فمه عن ابتسامة تعني التطمين ، وقال :

ـ لم اجد ما يدل على وجود ما يسبب الالم ، ولاباس ان تستمر تناول اي مسكن للألم تحصل عليه .

وشكرته وانا لست مقتنعاً برأيه ، فالشكوى من الالم لايستطيع كشفها الطبيب الفاحص في كل الحالات ، والمريض نفسه هو الوحيد الذي يقدّر اي ألم يقاسيه ، وكان المي من هذه الشاكلة ، وخرجت من عيادة ذلك الطبيب وكان فحصه قد حرّك ساكناً في جسمي اثار الماً في محزمي مما لا احتمله وخصوصاً اذا حاولت ان اثني جذعي او الويه . وقد اصبت يوماً بمرض في انني كما اصبت يوماً بمرض في ضرسي ، وكان الالم من كليهما شديداً مبرّحاً إلا انه لم يكن من نوع ولا درجة هذا الالم الذي اقاسيه في محزمي ، انه اشبه بمكواة حارة ملتصقة بجلدي تنفذ حرارتها كما تنفذ المسامير المحماة في لحمي وعظمي . وتناولت في تلك الليلة عدداً من جرعات الكوداين والمسكنات الاخرى دون حذر من مضاعفاتها التي تكون احياناً خطرة ، املًا بكسب الراحة بها ، ونمت قليلًا من الارهاق والالم لامن فعل المسكنات ، واستيقظت على ألم حاد في الجانب الايسر كانه من لسع الزنابير او الكي بالنار ، ونهضت من فراشي اداري حالتي بالمشي بين سريري ونافذة الغرفة ، وفي الصباح توجهت الى صديقي الاستاذ نكريكور في مستشفى همرسمث لينقذني مما انا فيه من الالام وعيناي حمراوان من السهاد ، واهتم هذا الصديق بامري وتناول التلفون واتصل بشخص ما وهو يقول لي :

ـ هذه هي (الرجسترار) مس جونسون المسؤولة في العيادة الخارجية هذا اليوم ، كما سمعته يقول لها :

ـ معي الآن زميل واستاذ بجامعة بغداد ، وقد حاضر في العام الماضي في هذه المستشفى عن الحالات الولادية في العراق ثم سكت يستمع الى من يتكلم معه .

— ....

فقال :

— ولكن حالته طارئة وهو متالم .

— .....

وانهى حديثه في التلفون ، وطلب من ممرضة سوداء شعر رأسها صوفي متكوثر ان تقودني الى من سماها (مس جونسون) في العيادة الخارجية ، وهو يقول لي : اطمئن ستكون بايد امينة وسوف ترتاح منها .

ومررت من خلال كريدور متعرج لاقف امام سيدة دون الاربعين من العمر بشعر كستنائي كثيف ، ونشاط ملحوظ في عينيها ونطقها وحركاتها ، وعرضت عليها شكواي قبل ان تسألني عنها ، وطلبت مني خلع ملابسي وطلبت من ممرضة تقف الى جانب سرير الفحص الذي اجتظمت عليه ان تساعدني على ذلك ، وشرعت انا دون ان اكلفها بخلع سترتي ورباط عنقي ، وقميصي ، واعتقدت ان ذلك كاف لفحصي ، غير انها قالت الفانيلا ايضاً والسروال .

ثم طلبت مني ان انهض وأقف معتدلاً ، ومدت اصابعها وانزلت حزام سروالي حتى اتضح شيء في هذه المنطقة ، ثم طلبت مني ان ادور نفسي ، ومست بخفة محزم جسمي الذي تتاجج فيه نيران الامي ، ورأيتها تفرج شفتيها لتبتسم وقالت :

— هريس زوستر ، وهذه هي الفقاقيع التي بدأت تظهر على سطح الجلد وشرحت لي ببساطة شكلها واعراض هذا المرض وسببه . وتناولت التلفون وكلمت صديقي الاستاذ ماك ريكر وذكرت له اسم هذا المرض ، وانها وصفت لي دواء استعمله موضعياً على الفقاقيع التي تبرز على سطح الجلد .

— هذا العلاج يخفف الالم اما دورة المرض فتاخذ مجراها وقد تطول شهراً او اكثر وفي خلال ذلك تخف الالام لتتوقف اخيراً .

والتفتت المس جونسون تسألني :

— سمعت ماذكرته للاستاذ ماك كريكور ؟ . ان الالام تخف يوماً بعد يوم ، ولا حاجة لفحصك مرة اخرى .

وشكرتها وغادرت عيادتها وأنا شديد الامتنان منها ، وقد خف الالم على انه لم يختف نهائياً إلا بعد اكثر من شهر . وفي آخر اسبوع من هذا الشهر كنت في بيروت في طريقي الى بغداد . وقد بدأت اشعر بالام في ظهري لاتشبه ذلك الالم الذي كان يحتل محزمي غير اني ظننته مضاعفة غير نادرة في مرض الهريس روستر فاضطررت ان استعمل العصا لاريح ظهري عندما امشي . ولاحظتني سيدة من اهل بحمدون التقي

بها في كل سنة اكون فيها في هذه القرية ، واستغربت ان استعمل العصا ، فلما اخبرتها الداعي الى ذلك وسببه ، قالت بأسف .

ـ الله في عونك ، هذا المرض نسميه في لبنان (إنطاق النار) ، اي حزام النار ، وقد اصبت به يوماً ولن انسى ايامه التي نغصّت حياتي ليلاً ونهاراً ،. الله يكون في عونك .

ولعمري فان اللبنانيين قد اجادوا في تسمية هذا المرض ، وهو نطاق من النار كما يشبهونه .

شيوعية متنكرة في مستشفى السامرائي / ١٩٦٤

في ظهر يوم ١٨/٤/١٩٦٤ اتصل بي تلفونياً مدير الامن العام السيد انور ثامر يقول : في مستشفاك شيوعية نشطة اسمها (... الوسواس) ولابد من القبض عليها ، فقلت له : ساستقصي وجودها في المستشفى واتصل بك . ونفت رئيسة الممرضات وجود مريضة في المستشفى بهذا الاسم . وبعد اقل من نصف ساعة دخل غرفتي شخص بملابس مدنية وقال لي انه المعاون (خ) وانه مكلف بتفتيش غرف المستشفى عن مريضة اسمها (.... الوسواس) فاجبته ان ذلك لن يكون برضاي ، وليس في المستشفى مريضة بهذا الاسم . وكان هذا الشخص مؤدباً فقال لي برجاء ان اتصل بالمدير العام ، واتصلت بالمدير انور ثامر فاذا هو يقول لي :

ـ لدينا معلومات مؤكدة ان المرأة التي نفتش عنها هي في مستشفى السامرائي وسيصلك من يتعرف عليها ، اذا كانت قد انتحلت اسماً غير اسمها! . (واضاف) وهي شيوعية مراوغة فلا نكاد نقف على اثر لها حتى تختفي مستعينة بصبغ شعرها وانتحال اسم غير اسمها . وجاءني شخص ليتعرف على الشيوعية التي يفتش عنها .

ـ هل تعرفها اذا رأيتها ؟ .

فاجابني :

ـ كما اعرف نفسي في المرآة .

وارتأى ان يتلصص لرؤيتها من خلال نافذة الغرفة التي تقابل سريرها فشخصها حالاً ، وسحب نفسه عن الشباك وهو يقول بتعجب :

ـ ما اعظم قدرتها على تغيير هيئتها !

وعاد الى غرفتي واخذ التلفون وكلّم مدير الامن العام ، وبعد ان انصت قليلاً الى المدير العام ، قدّم الي سماعة التلفون ، وهو يقول لي :

ـ السيد المدير العام يكلمك :

ـ دكتور ، لابد من اخذ هذه المرأة للاستجواب .

ـ ولكنها في اليوم الثاني بعد العملية التي اجريت عليها فلننتظر يومين اخرين رجاء ، على انه لامانع عندي ، ان تقام عليها حراسة من قبلكم ان رأيتم ذلك ، وبعد ثلاثة ايام اخذت هذه المريضة بسيارة شرطة الى مكان لاأعرفه ، وقبل ان تتحرك السيارة لوحت لي هذه المرأة بيدها علامة الامتنان والتوديع .

وفي صيف السنة نفسها بينما كنت اتسكع في شارع اكسفورد بلندن واذا بزوجها الدكتور (شريف ...) امامي وجهاً لوجه ، وحياني بترحيب حار وهو يشكرني على موقفي مع زوجته حين كانت في مستشفى السامرائي ، فقلت له بتواضع : هذا هو السلوك المهني ولم اعمل اكثر من ذلك ودعاني بالحاح الى تناول الغداء معه فاستجبت له مجاملة .

على ظهر الباخرة ازونيا / ١٩٦٤

هذه الباخرة من اجمل البواخر الايطالية التي تمخر البحر بين بيروت وفنسيا ، ففيها كل مايريح المسافر بما في ذلك حوض سباحة وسينما ، والسفر عليها بدرجتين ، وحين علمت ان الفرق بينهما من حيث سعة (القماير) والخدمات الاخرى غير كبير بالنسبة الى اجر الدرجتين ، لذلك سافرت مع زوجتي وبنتي وولدي عليها في الدرجة الثانية ، وكان المسافرون عليها والمودعون على رصيف الميناء جمع غفير ، وحين اقلعت عن رصيف الميناء بدت لي ، وكأنها جزء اقتطع من الارض الواسعة التي انفصلت عنها ، وصار من على ظهرها يتجمعون على حافة سطحها ليلقوا نظراتهم الاخيرة على المودعين المزدحمين بلا نظام على ارض الميناء ، ولما ابتعدت الباخرة في البحر انفرط عقد المسافرين وصاروا يتحركون في كل اتجاه وكأنهم ملزمون باداء هذه الحركة . وسطح الباخرة ميدان فسيح ينطلق اليه المسافرون على مدار ساعات النهار وخصوصاً في الساعات التي تسبق تناول الغداء ، ويستلقي بعضهم على كراسي طويلة وطيئة وعيونهم مغمضة او نصف مغمضة ، او يقراون الكتب بينما الاطفال يلعبون بنشاط بالكرات المطاطية الملونة ، وآخرون يهربون من قبضة ذويهم فتهرع الامهات وراءهم وقد اجتذب انتباهي في يوم اقلاع الباخرة شاب يغطي عينيه بعوينات داكنة وهو يفتح كتاباً بين يديه وقد استلقى بتراخ على كرسي طويل ، ولا أظنه كان يقرأ في كتابه بتركيز ، واكثر الاحتمال ان هذا الشاب كان اعزباً ، فعيناه تلاحقان كل النساء اللاتي يعبرنه دون اهتمام ، كما لم ار معه إمرأة طوال ساعات ذلك اليوم وعلى مقربة من هذا الشاب شيخ وإمرأة في مثل عمره ، وفي يد كل منهما كتاب يقرأ فيه بتركيز ، وكأنهما في

ماتم ، هذان زوج وزوجة بالتاكيد وقد يكونا في عيد زواجهما الستين ، وعدت بلا ارادة مني انظر الى ذلك الشاب الذي يغطي عينيه بالعوينات الداكنة . وكان يرتدي قميصاً من حرير منقوشاً بالوان متضاربة مضرب تنس ومفتاح كبير من طراز قديم ، وارقام ، وحروف لاتينية لم ار فيما بين جميعها رابطة . كما كان شعره طويلًا يصل الى اعلى كتفه .

ومرّت من امامي سيدة في العقد الثالث من عمرها ، تغطي بعض صدرها وردفها (بمايو) سباحة بلون البحر ، وتضع على عينيها عوينات داكنة ، وسحبت كرسياً واستلقت عليه ، وبسطت منشفتها التي تنضح بالماء على طرف كرسيها العالي ، وهزت رأسها مرتين او ثلاثاً لتنثر ما بين شعرها من ماء لابد انه كان من ماء مسبح السفينة الذي كانت فيه . ثم اخرجت من حقيبة يدها علبة بلاستيكية فتحتها وغمست فيها اطراف اناملها واخرجتها ملطخة بزيت ثخين وشرعت تدهن جسمها باناة واهتمام ، واعادت العلبة الى داخل حقيبتها التي وضعتها على سطح الباخرة قريباً من متناول يدها . ورأيتها تتراخى بتنهد وهي تبسط رجليها على امتداد كرسيها الطويل ، وترفع يديها وتمدها الى اعلى وتعقدهما فوق شعر رأسها . وفي هذه اللحظات ظهر امامي ذلك الشاب وقد لف حول رقبته شالًا عنابي اللون ، ثم خطا امام تلك الشابة وتعدّاها ثم عاد ومرّ امامها مرة اخرى ثم غاب عن ناضري ، بينما كانت الشابة ما زالت على كرسيها وهي تتطلع الى البحر حين تقدمت منها امرأة بدينة في نحو الاربعين من العمر . فانتبهت الشابة اليها وادارت رأسها نحوها ، وتبادلت معها بضع كلمات بغير اللغة العربية ، واخرجت من حقيبتها شيئاً فتناولته المرأة البدينة وغادرت الى داخل الباخرة . ورأيت ذلك الشاب المتانق يتقدم من الشابة وبيده قدح من البيرة ، وابطأ حين صار حذاءها وسمعته يسالها بالانكليزية .

— هل سبحت ؟ .

فادارت رأسها اليه بشيء من الاستغراب والامتعاض ، فبدا لي ان ليس بينهما تعارف سابق ، ولم تجبه على سؤاله ، وعادت تتطلع الى البحر وهي تتجاهل موقفه منها . وسالها الشاب وهو يشير بالقدح الذي بيده .

— تشربين ؟ .

فاجابته بملل واقتضاب :

— لاشكراً .

وسالها مرة اخرى :

— الى فنسيا ؟ .

ولم تجبه ، وقد تكون عدت سؤاله سخفاً فالباخرة لاترسو إلا في فنسيا ، وهي محطتها الاخيرة .

وسألها :

ــ ايطالية ؟ .

ــ لاعربية .

ــ وانا ايضاً عربي من الكويت (ثم استطرد) هذا موسم المعارض في فنسيا ومن الصعب الحصول على غرفة في اي فندق مالم تكوني قد حجزت عليها مسبقاً .

ــ زوجي ينتظرني في المرفا .

وكان جوابها هذا لطمة على الخد ، ومع ذلك ظل هذا الشاب اللحوح واقفاً في مكانه لحظات ، وفجاة قنف كاسه في البحر بغضب ولم يكن قد اتى على آخرها . وانسحب الى داخل الباخرة . اما هذه الشابة فبقيت على كرسيها وكانها لم تسمع سفاهة هذا الشاب الوقح .

** ** **

وفي لحظات تالية سمعت خطوات بطيئة وصرير عربة خافت ، كان ثمة رجل في العقد الرابع من العمر ، يدفع امامه عربة تملأ مقعدها فتاة في مطلع الصبا وهي تخفض رأسها حتى ليمس ذقنها اعلى صدرها ، كما كانت تترك يديها متدليتين الى جانب العربة وكانهما قد ربطتا الى كتفيها بخيط ، وكان الرجل يكلمها باللغة الانكليزية ثم رأيت الرجل يتوقف في مكانه ليمسح اللعاب الذي تساقط من زاوتي فمها الى حنكها وصدرها ، ثم عاد يدفع العربة برفق . وتحاول الصبية ان ترفع ساقيها الملفوفتين بجورب من جلد فتعجز فتسقط الساقان على عتبة العربة . وتوقف الرجل قريباً مني ، ومدّ يمناه ورفع حنك الصبية وهو يقول لها شيئاً بحنان وميوعة . وفكرت اتسائل : هذا الرجل هو باحتمال كبير ابوها ، فاين امها ؟ في المقصورة او متوفاة او مطلقة ؟ . وعاد هذا الرجل يدفع عربة الصبية حتى صارت بحذاء الشابة فصارتا موضع مقارنة غلبتني عن تجاهلها : شابة تتمتع بكل ما وهبها الله من نظارة الشباب ومتع الحياة ، وطفلة حرمت من ابسط مقومات الحياة وهي النطق والحركة . وفجاة تذكرت ذلك الشاب المتانق وغير المؤدب وهو يملك خير ماوهب الله للانسان من ثراء وصحة انه لم يستغلهما إلا لاطاييه وملذاته . وانتبهت الى ضربات الطبل تعلن للمسافرين على الباخرة ساعة وجبة الغداء . ويظهر ان تلك الصبية كانت تانس لتلك الضربات فخرج من فمها صوت ليس فيه معنى ولانغماً مع شيء من تعبير غير واضح على وجهها ،، فطرب لطربها ذلك الاب الحنون ياآلهي انها حكمتك .

وقمت الى صالة الطعام كما فعل كل من كان على ظهر الباخرة سوى الرجل وصبيته المعوّقة .

• • •

في مرفأ بيروت وقبل اقلاع الباخرة الى عرض البحر تعرفت بشكل سريع على شاب ألماني اسمه هيرمن يعمل في مطابع (مجلة العربي) ، واجتذب نظري ابهام يده اليسرى المقطوعة ولم اساله عما حدث لابهامه ، انما وهو في حديثه عن ماكنات الطباعة الالمانية المتطورة التي يعمل فيها في الكويت اشار الى دقة تلك المكائن وسرعتها واحتمال الاخطار من عدم الاحتياط منها ما يمكن ان تؤدي الى نتائج وخيمة على حياة من يعمل بها ، واضاف وهو يشير الى ابهامه : واقلها هذا الذي تراه في يدي ، واصبع الابهام في عملي هو نصف اليد بكاملها .

وحين دخلنا صالة الطعام كان ذلك الشاب النزق يجلس الى جانب ذلك الرجل الالماني وهما يتبسطان بالحديث . فقررت ان اساله في فرصة قادمة عن ذلك الشاب بدافع حب الاستطلاع لا غير ، وبينما كنت في مساء ذلك اليوم اتكىء على حاجز الباخرة تقدم مني الرجل الالماني (هرمن) ، وعاجلته بسؤال عن ذلك الشاب الذي كان الى جانبه في المطعم .

ـ تعرفه ؟ .

ـ اعرفه ، هو من البهبهانيين في الكويت ، مثرٍ كبير عن طريق كثير من الاعمال التجارية ووكالات المعامل الالمانية واليابانية .

ولم اذكر لهرمن تصرفات ذلك الشاب مع السيدة العربية ، غير اني قلت له .

ـ لم يبد لي رجل اعمال ناجح !!

فاجابني :

ـ على العكس ، هو من انشط تجار الكويت في اتصالاته مع التجار الاجانب (ثم اضاف) هو صديقي وانا اعرفه جيداً ، وساعرفك عليه ، وقلت له :

ـ لم ار معه عائلة .

فاجابني هازئاً باستنكار :

ـ متزوج ولكنه لا يسافر إلا وحده .

وقلت له باستغراب :

ـ متزوج ؟

ـ مزواج مطلاق ولااعرف بزواجه إلا حين يطلق .

وصلنا فينيسيا عصراً ، وكان الوقت شديد المطر ، ولم اكن قد حجزت لنا ماوى

فيها . وبمحض المصادفة مررت وأنا اسوق سيارتي بمكتب سياحة ، فاوقفتها قريباً منه ، وبعد مخابرة تلفونية واحدة وجد لنا صاحب المكتب غرفتين بفندق متواضع نصل اليه بالجندول ، اما سيارتي فكان عليّ ان اقودها الى كراج عبر مسلك ملتو لاصل الى الطابق الرابع في بناية سامقة في العلو ، ولم ار قبل ذلك اليوم (كراجاً) بهذه الهندسة ، وسقت سيارتي بحذر شديد صاعداً الى ذلك الطابق حيث اوقفتها الى جانب عدد غير قليل من السيارات كانت لوحات تسجيلها وتبعيتها الى مدن غير ايطالية فعرفت انها لسيّاح جاؤوا الى هذه المدينة ، ثم انحدرت بواسطة (مصعد) الى ارض الكراج . وتقدمت من حانوت صغير الى جانب هذا الكراج لاشتري علبة سكاير وكان صاحب هذا الحانوت شيخاً طاعناً في السن ، وحين قدّم لي علبة السكاير التي طلبتها اخرجت له من جيبي ورقة مالية بفئة المايتين لير ايطالي ، وعلبة السكاير بمائة وخمسين ليراً ، فقال لي بانكليزية ركيكة .

– ليس عندي (فكة) .

فقلت له :

– وأنا ايضاً ليس عندي اصغر من هذه الفئة .

فقال لي :

– اشتر شيئاً آخر مني لنسوي المعاملة .

وكانت بيني وبينه خزانة عرض فيها شتى انواع المبيعات كسكين صغيرة ، ومبسم سكارة ، وخاتم وما الى ذلك ، فاخترت منها خاتماً من معدن وسخ وحجر يحتمل ان يكون العقيق الرخيص ، ووضعته حالاً في بنصر يدي اليسرى ، واخذت علبة السكاير وسلكت طريقي الى سوق المدينة ، وما تلى من حكاية هذا الخاتم أمر غريب وربما يكون مضحكاً . إذ لم اصل الى بغداد والخاتم باصبعي إلا وصار ابيض ناصع البياض ، فقد يكون من الفضة او من معدن آخر غير ذي قيمة عالية . وفي بغداد اردت ان اعرف نوع الحجر الذي في هذا الخاتم ، فطلبت من مربية اولادي ان تاخذ الخاتم الى سوق الصاغة لتقييمه فقالوا لها انه من العقيق الرخيص وقيمته ليست اكثر من نصف دينار . وذات يوم زارني الجوهري (سيكال) الروسي اليهودي ، وكان الخاتم باصبعي فاردت ان اعرف منه قيمة الحجر الذي فيه ، فاجابني انه من نوع حجر (عين النمر) وسألته وكم تساوي قيمته فاجابني خمسون ديناراً بالاقل ، وهكذا كان الخاتم باصبع المربية بقيمة نصف دينار وباصبعي بخمسين دينار !

ولأعد الآن الى مدينة فينيسيا ، وهي اشهر مدن ايطاليا بعد العاصمة روما ،

وهي مدينة عريقة في القدم بالنسبة لتاريخ ايطاليا ، وعماراتها وبيوتها غائصة في البحر ، وليس فيها شارع بري ، بل جميع شوارعها قنوات بحرية ، والتنقل فيها بالجندول ، وهو قارب طويل له خصوصياته الفريدة التي لايقاربها اي قارب نموذجي إلا (المشحوف) المعروف في أهوار جنوب العراق وفي الجبايش بشكل خاص ، والفروق الذوقية والفنية بين هذين القاربين كبيرة وكثيرة .

وساحة (سانت ماركوس) في فينيسيا وما يطوف حولها من قصر الدوق والكنيسة والحوانيت والمقاهي ، والعمائر الاخرى ، هي ابرز معالم هذه المدينة ، وحين يضرب المملوكان المعدنيان ناقوس الساحة الكبيرة التي تعلو سطح الكنيسة ترتفع رؤوس من في الساحةلترى السواعد المتينة تعلن بضرباتها مسيرة الزمن وقوة الانسان والحديد ، كما تطفى ضرباتها على الموسيقى الناعمة التي لاتتوقف صادحة من جميع اركان الساحة التي تزدحم بروادها من السواح وهم يتناولون المبردات والخمور وكما تسرح في هذه الساعة طيور الحمام وهي منهمكة في التقاط حبوب الذرة من ايدي السياح وما سقط منها على الارض .

وكان القمر ليلة وصلنا فينيسيا بدراً كاملًا ، ومد البحر في اعلاه ، وتمر الجندولات من تحت القناطر وعلى ظهورها عشاق المناظر الجميلة ، وهم يتضاحكون بملء صدورهم واشداقهم ، وفي وسط الساحة حين توقف المطر إيطالي او غجري وهو يدلع قميصه ويضرب على كيتار ربطه الى عنقه ، ويغني بايطالية لم اعجز عن فهم مافيها من اللوعة والتودد . وكنت على قنطرة حين مرّ من تحتها جندول يجلس على فراشه الوثير النظيف فتى وفتاة متخاصران بتلاحم وكانهما شخص واحد ، وقلت لنفسي هذا هو الحب الجرىء الصادق ، وتابعت مسيري حتى انتهيت الى ساحل البحر بعد ان عبرت في طريقي الى هذا المكان قنطرتين ، وكان قريباً من الاخيرة ثمة بائع فاكهة يعرض على عربته صنوف الاجاص والكمثري والخوخ ، فتذكرت بائع الفاكهة الفرنسي بباريس الذي إتهمته بالتحايل في مابا‌عه لنا وكان اجدى ان يتهم هذا الفاكهاني الايطالي لاذلك الفرنسي ــ العربي .

وعدت ادراجي الى ساحة سانت ماركوس ، ومررت في هذه الساحة بامرأة في الاربعين او اكثر وهي تنادي باعلى صوتها .

ــ ميشيل ، ميشيل ولم اعرف على من كانت تنادي ، وظننت من الاسم انها وراء طفل او شاب بهذا الاسم ، ودفعني حب الاستطلاع الى ان اعرف ذلك ، ثم رأيتها تحث الخطى حتى إقتربت من فتى وفتاة كانا يتخاطران ويمشيان بتؤدة ، وكانت الفتاة طويلة القامة منكوشة الشعر ، اما الفتى فكان على الضد منها قصير القامة مملوء

البدن وشعر رأسه يطول حتى يضرب اعلى كتفيه ، وحين وصلت المرأة اليهما رفعت يدها ولطمت قفا الفتاة ، ويبدو ان هذه الفتاة كانت سادرة في حديث مع فتاها فلم تسمع من كان يناديها ، فادارت وجهها لترى من لطمها ، واذا بالمرأة تبصق في وجهها ، فلم تنبس الفتاة بكلمة او حركة ، ولا امالت وجهها لتتفادى ضربات المرأة ، واستدارت هذه المرأة بعد ذلك راجعة ادراجها ، ولم تستدر هذه المرأة لترى الفتاة إلا بعد ان وصلت الى كرسي في مقهى على حافة ساحة سانت ماركوس . اما الفتاة فقد تبعت هذه المرأة بخطوات بطيئة وعلى وجهها علامات الخجل والتذمر ، اما الفتى فظل في مكانه واقفاً وكل ما فعله ان دسّ يديه في جيبي سرواله وهو يرنو باهتاً الى فتاته وهي تخطو وراء المرأة . وحسبت ان هذه المرأة هي ام تلك الفتاة التي بصقت في وجهها ، وان ذلك الفتى هو صديق الفتاة على غير رضى امها . واخيراً نبذت التفكير فيما حصل بين المرأة والفتاة ، ولكني بدأت اركز على هيئة الفتى دون ارادة مني ، فكان شاباً لايغري اي فتاة بالزلل ، وكان ملبسه بالوان متنافرة وكان حذاؤه قذراً ، ووجه كوجه الحصان ، اما هي فكانت باي حال افضل منه قيافة وهنداماً ، وقلت لنفسي قد تكون هذه الفتاة في زلتها الاولى ، وعمرها المبكر فريسة لاغراء هذا الشاب الوقح .

• • •

وزرت قصر الدوق في فينيسيا والسجن المشهور الذي قضى فيه الشاعر الانكليزي (بايرون) ليلة بطولها ليستوحي منها مايقاسيه مساجين هذا المحبس الرهيب ، وتطلعت من خلال الفتحة الصغيرة التي يقف عندها السجين في طريقه الى المقصلة فيلقي منها آخر نظرة على الحياة قبل ان يفارقها لقطع رقبته .

وطفت باسواق فينيسيا وجميعها تنفذ الى ساحة سانت ماركوس وقطعت سوقها الطويل حيث تباع الاعمال الخزفية والزجاجية وما الى ذلك من الاعمال اليدوية ، وقد رأيت بعضها تستحق الاقتناء . وعند إحدى القناطر الذي يقاطعها ذلك السوق يجلس رجل متقدم في العمر على كرسي صغير بلا متكأ والى جانبه قطع من الخشب الابيض ، وبين قدميه مجموعة من الصور ، وكانَ وقتئذٍ يعمل في خشبة ليصنع منها تمثال حصان جامح على صورة له بسطها على ركبتيه اليسرى ، وقد اوقفتني ضربات هذا الرجل بسكينة في الخشب فلا يخطىء في ابراز مايريده عليها ، وفهمت دون ان اساله انه يعيش على ممارسة هذه الصناعة ، وصناعته رائجة بين السياح ، وخصوصاً الامريكان منهم ، وانا شخصياً احب اقتناء التماثيل الخشبية واحسبها لاتزال حية كما كانت ساعة اقتطعت من شجرتها المورقة ، على عكس نظرتي للتماثيل البرونزية او المرمرية التي اراها جامدة بلا حياة ، وسمح لي هذا الرجل ان اطلع على مجموعة

الصور التي يعمل عليها تماثيله الخشبية ، فاخترت واحدة منها كانت تمثل صياداً يترقب طريده بين الاشجار الكثيفة ، وهو يتكىء على ماسورة بندقيته ورجله اليسرى مرفوعة على صخرة الى جانبه . والى الجانب الايمن من هذا الصياد كلبه وهو يتخذ موقف سيده الصياد نفسه ، وبمزيد من اليقظة ليسمع طلق ناره والهدف الذي تصله القذيفة .

وقد اعجبني ايما اعجاب التوافق التام بين نظرة الرجل ونظرة كلبه بتركيز الى امام ، وسألت الرجل ان كان في وسعه ان ينحت لهذه الصورة تمثالاً من اخشابه ، وربما حسب انني اتحداه بهذا الطلب لما في الصورة من دقيق اللمسات التي صنعها المصور فاجابني باعتداد وهو يستعين باصابعه وببعض الكلمات الانكليزية .

ـ اليوم جمعة ، غداً السبت ، يوم الاحد في الساعة العاشرة صباحاً يكون التمثال الذي تريده جاهزاً .

ولما قلت له : يوم الاحد عطلة ، قال لي وهو يبتسم ليأكد لي انه لم يخطىء قال :

ـ يوم الاحد يكون التمثال جاهزاً وسألته وانا افرك ابهامي وسبابتي امام عينيه .

ـ بكم ؟ .

فاخذ من الارض خشبة بيضاء وكتب عليها رقم ٢٥٠٠ ، وعرفت انه يقصد ٢٥٠٠ لير ايطالي ، وحسبت هذا المبلغ بالعملة الانكليزية فاذا هو اكثر قليلاً من ستة پاونات ! ما أرخصه ودفعت له هذا المبلغ ، وجئت اليه في ظهر يوم الاحد فاذا التمثال الى جانبه على الارض ، وهذا التمثال منذ وصلت بغداد حتى هذا اليوم يزين مكتبتي ولم اشبع من النظر اليه بعد .

وبعد يومين في فينيسيا غادرناها الى سويسرا .

بين ايطاليا وسويسرا / ١٩٦٤

في يوم ١٤/٨/١٩٦٤ غادرت ايطاليا الى سويسرا ، وكانت فاتحة هذا الطريق مرتفع جبلي عالٍ ، فتحركت بافكاري ذكرى ما اصابني يوم عبرت الطريق الى وادي شعيب بالاردن .. ولكل مرتفع في الطرق ينخفض مثله او اكثر في العمق ، وكلاهما يخيفانني . والطريق الذي سلكته الى سويسرا يصل الى علو ٢٠٤٩ قدماً . وعرفت من الخارطة ان معبر (اندرمان) الذي قصدته لاصل الى قرية اندرمان هو من المعابر الجبلية الشهيرة في اوروبا الوسطى . وبدأ الطريق يرتفع ويتلوى ، وعبرت جسوراً وانفاقاً ، ثم مرّ الطريق محاذياً لحافة جبل يحد قاعدته سياج وقائي ، ومن جانبه

الاخر واد سحيق لايستبان قعره بسبب الضباب الكثيف الذي يكسوه . ومن بين فتحات في هذا الضباب تظهر ثم تختفي عني بعض الاكواخ التي تحيط ببحيرة (لوكانو) وكان ذلك كانه لوحة مرسومة على جدار مائل ، غير ان خوفي من السياقة على هذا الطريق كان يحرمني من التمتع بالنظر الى جمال حافات تلك البحيرة . على ان منظر تلك الاكواخ بستوفها القرميدية قد اكسبني بعض الطمأنينة لما فيها من معنى الاقتراب من قاع الوادي حيث يستقيم الطريق . ثم انعطف الطريق على عكس اتجاهه الى منحدر اوطأ ، فرأيت حينذاك عقد السيارات الطويل يدب امامي على مهل وحذر كانه سرب من النمل ، وفوجئت بمنحدر بين تلتين عاليتين تغطي سفحيهما الثلوج التي أخذت الى حد ما لون السماء حتى كاد ينعدم الفاصل بين اللونين في اعالي كتل الثلوج التي تغطي التلول . ثم عبرت منعطفاً حاداً فاذا انا على مشارف (اندرمان) .

كانت السيارات على الطريق تشبه خيطاً من النمل المحافظ على استقامه مسيرته ، ومررت بسطيحية تقف عليها بضع سيارات ، فاغراني موقفها بان استريح فيها قليلًا ، ولم اجد احداً من راكبيهامن يرغب بالتحدث اليّ . لقد كنا آنئذ جميعاً متعبين ولايريحنا الا الوصول الى (اندرمان) القابعة على خد هذا الجبل العالي الذي نسير عليه . وتابعت مسيرتي لانحدر الى منخفض بين تلتين تغطيهما الاشجار المكللة بكتل الثلوج . التي امتصت لون السماء فصارت بلون خفيف من الزرقة . ثم جابهني منعطف حاد كان لحسن حظي قليل الانحدار ظهرت في آخره معالم (اندرمان) وما فيها من الاكواخ القرميدية السقوف . وهذه المدينة محطة للسائحين يرتاحون فيها قليلًا او كثيراً من الوقت بعد العناء الثقيل من عبور الطريق الطويل اليها ، وتحفزت للوقوف في هذه المدينة لاريح اعصابي المشدودة . فاوقفت سيارتي في ساحة كانت فيها بعض السيارات وقد غطت سقوفها الثلوج ، كانت الطرقات وسطوح بيوت هذه المدينة ، وقبعات واكتاف السابلة في طرقاتها تغطيها الثلوج ايضاً ، علماً باننا كنا وقتئذٍ في منتصف شهر آب ، اللّهاب كما يدعى في العراق ، ترجلنا من السيارة واسرعنا الخطى الى مقهى قريب من باحة السيارات .

وكان عند مدخل المقهى بقالة تديرها سيدة طاعنة في العمر ، كما كان في حانوتها رفوف نضدت عليها انواع الحلوى والسكاير والحاجيات البيتية ، ودخلنا المقهى فاذا هو صغير ليس فيه اكثر من بضع مناضد ، وعند مدخله تقف شابة وراء منضدة رفيعة طويلة ، وعلى طرفها الايمن آلة حساب ، وخلف هذه المنضدة بضعة رفوف عليها

مختلف القناني تشف عن محتوياتها ذات الالوان المختلفة ، كما كان على جانبها الاخر كؤوس واكواب . وعلى الطرف البعيد من هذا الجانب آلتان ضخمتان عرفت انهما لتحضير القهوة والشاي . وكانت جدران المقهى مغلفة بالخشب الذي لعبت به يد الفنان فظهرت عروقه بذوق وتناسق ، كما ثبتت على هذه الجدران انواع من رؤوس الطرائد التي تصطاد من غابات هذه المنطقة ، وكانت الغزلان هي الغالبة من رؤوس هذه الطرائد المحنطة . واخذنا مكاناً في هذا المقهى يشرف على غابة يقل ارتفاع اشجارها شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بوادٍ سحيق . كان داخل المقهى دافئاً ، اما خارجه فقد كان شديد البرودة قارساً ، وما ارتحت في مكاني الهاني النظر الى صورة زيتية كبيرة تزين جانباً كبيراً من جدار المقهى ، فاطلت النظر ادرس الوانها والتوافق فيما حوته من الجو السويسري البهيج ، كانت هذه الصورة تمثل عربة يجرها جوادان جامحان ، فزعت لهما ثلاثة ابقار كانت تقطع تلًا من الثلج الى جانب طريق العربة ، فخرجت احد البقرات عن طريق اخواتها ودخلت الطريق المعبّد الذي تسير عليه العربة ، فزلقت اطرافها الامامية وكبت خائرة على الارض فيما تقدمت البقرتان الاخريتان في مسيرتهما وهما ترنوان بعيونهما الواسعة الى بنت جنسها وهي البقرة الشاردة . لقد نجح المصوّر في ابراز الحس الغريزي عند هذه الحيوانات البهيمة ، في الفزع الذي ركب الشاردة منها والتعاطف من اختيها عليها ، ولما اكتفيت من النظر الى هذه اللوحة البديعة تلفت لاعرف مكان المرافق الصحية في هذا المقهى فعرفتها بسهولة من اللافتة الصغيرة المرفوعة على بابها . فقمت اليها وغسلت يدي ووجهي بالماء الدافىء المنعش الذي بدا لي شديد الحرارة لما احسست به من البرد قبل ان ادخل المقهى . وتقدمت من طاولتنا صبية باسمة باكواب القهوة باللبن والبخار يتصاعد منها ، والتفتت وهي مازالت في مكانها ، ومدت يدها ورفعت عن طاولة قريبة منها سلة عامرة بالمعجنات وهي تقول لنا : تفضلوا ، قالت ذلك بالفرنسية وكان ميسوراً ان افهمها بلغتي العربية . وأنا اسال نفسي : ترى من الذي اخترع اول مقهى ؟ من الذي كان اول من فكر ان يستحدث مكاناً يجتمع فيه الناس بعد الانتهاء من اعمالهم ليتباحثوا في امور حياتهم ومابينهم من شؤون وعلاقات ، ويتبادروا باللطائف ليريحوا انفسهم ويستعيدوا هواهم الى اعمالهم من جديد ، وقطعت تفكيري لاسال الانسة الحساب من فضلك يا آنسة ؟ ، ونقدتها ماطلبته مني ، واحببت ان انفع هذه الصبية زهاء نصف مانقدته لها زيادة على ماطلبته مني ، وما كدنا ننهض لنغادر مكاننا حتى قالت لي :

— الخدمة ياسيدي ؟ .

وسألتها :

ـ كم الخدمة ياآنستي ؟ .

فاجابتني :

ـ عشرة بالمائة ياسيدي .

وسالتها وكم حساب هذه النسبة ؟

فاجابتني

ـ خمسة فرنكات .

ونقدتها ماطلبته مني ، وكنت كما قلت قد وضعت امامها على طاولتنا اكثر من هذا المبلغ ، ولكن يبدو ان اجر الخدمة فريضة ، اما ما تبرعت به فكرم ، وهما امران في نظر الانسة مختلفان وبدا لي هذا الامر خلواً من الرقة ولايتناسب مع شكل هذه الصبية ، وقد يكون اكثرتناسقاً لو كان موظف الحساب رجلًا لا صبية إذن لكان ذلك اكثر تناسباً مع طلب المزيد على مادفعته .

وعدت الى سيارتي ، وكان الثلج قد غطى زجاجها الامامي وسقفها ، ثم ادرت ماكنتها فذاب الثلج عن زجاجها بعد دقيقة ، وقدتها نرتقي الطريق ، وقطع اهتمامي بسياقة السيارة التفكير في المقهى الصغير الذي تناولنا فيه القهوة ، وما كان فيه ومن كان فيه بالمقارنة الى ماعندنا في العراق من المقاهي . وبعد بضع كيلو مترات مررت عند منعطف الطريق الى اليمين حطام سيارة رفعت عليها لافتة كتب عليها بالانكليزية والالمانية والفرنسية عبارة (الحذر ثم الحذر وإلا فهذه هي النتيجة) وقد تكون هذه الطريقة ناجحة لتنبيه سائقي السيارات اثناء صعود المعابر العالية او النزول عنها ، ولكنها كانت لي مخيفة اشد الخوف ، طالما انها توحي لي باحتمال هذه النتيجة لكل سائق ، ومنهم انا القليل الخبرة في السياقة في هذه البلاد الجبلية ، وسرعان ما تبخر عني هذا التفكير المخيف لحظة شاهدت سيدة طاعنة في السن الى جانب رجل مثلها او اكبر منها وهي تسوق سيارتها بسرعة فاقت السرعة التي اسوق بها سيارتي وبكثير من الثقة والاطمئنان ، بينما كنت انا امسك بمقود سيارتي بيدي الدبقتين ، وباعصاب مشدودة ، وصدري مندفع الى امام لاستجير بلوحة مفاتيح السيارة لتدفع عني الخوف والمخاطر .

بدأت السيارة ترتفع وترتفع ، وقابلتني سيارة او سيارتان تفتحان ضوءاهما الواطئان ان ، فعلمت ان ذلك اشارة اليّ لافتح ضياء سيارتي الواطيء خوف ان لاتراها السيارات التي تعبرني على الطريق . ووصلت الى قمة الجبل لاقطعه الى الجانب الاخر منه لياخذني منحدر الى مدينة (لوكانو) . ولم ار على ارض تلك القمة شجراً او صخراً أذ كانت جميعها مكسوة بالثلوج الكثيفة ، كل شيء كان مغطى بالثلوج إلا

مساحل دواليب السيارات فقد بدت حالكة السواد على الطريق المعبدة بالاسفلت ، وسألت نفسي ان هذا الطريق يغطى بالثلج اثناء الليل فكيف بأول سيارة تقتحم هذا الطريق صاعدة او نازلة ؟ وفجاة جائني الجواب حين لاحظت جرّافة ضخمة تقف على سطيحية بجانب الطريق . وفجاة رأيتني اشرف على (لوكانو) ذات الموقع الخلاب على الضفة الغربية لبحيرة لوكانو التي تشترك في حدودها كل من ايطالية وسويسرا ، وكان اول فندق مررنا به بإسم (بوريتاج) اي الفردوس بالعربية ، فحططنا رحالنا فيه ، وكانت غرفتي تطل على البحيرة التي تعج بالقوارب البخارية والشراعية بالوانها البهيجة ، وبالسائحين في مائها الصافي الرقراق ، من الرجال والنساء ، فيبدو الواحد منهم يتلوى كما تتلوى السمكة حتى لايسقط الى القاع ، كان هذا المكان فردوساً فعلًا ، وكان من يعيش ايامه فيه ليس له هم ولاغم ولاعمل ولامسؤولية إلا التمتع بمعطيات هذه الطبيعة السخية ، ومرّ ناظري حين طلعت الى فرندة غرفتي بشاب ذو قيافة حسنة وهندام لائق ، والى جانبه كتفاً الى كتف شابة بمثل عمره ليسا اكثر من العشرين سنة ، وكانا يتهامسان ورأساهما يرتطمان الواحد بالآخر بتناسق مع خطواتهما الراقصة ، وذراعه يلف ذراعها ، واصابعهما متشابكة . وجلب انتباهي هذا الشاب ، وقلت لنفسي : انا اعرف هذا الشاب . انا متاكد اني اعرفه ، واني رايته قبل وقت قصير ولكن اين ؟ ومن هو ؟ ، وتابعت هذا الشاب بناظري حتى ابتعد هو ورفيقته الشابة واختفيا بين السابلة فنقلت ناظري الى حافة البحيرة القريب من فرندة الفندق ، ومن هذا المكان رأيت رجلًا يتكا على سياج البحيرة وبيده عصا طويلة مربوط بآخرها خيط إنغمس طرفه الاخر في لجة البحيرة ، ولابد ان هذا الخيط كان مربوطاً الى (شصّ) لصيد السمك . ثم رأيت سيدة بمثل عمره تتقدم منه وقالت له شيئاً ، وردّ عليها دون ان يلتفت اليها إذ انه قد بدأ يسحب خيطه من اعماق ماء البحيرة وظهرت في نهايته سمكة تتخبط ففكها من الشص ورماها في سلة من الاعواد كانت الى جانبه ، وعاد يهيىء باعتناء شصه لصيد جديد . وفي هذه اللحظات ظهر ذلك الشاب ورفيقته عائدين بمرح وتراخٍ ، وعدت اقول لنفسي : (أنا اعرف هذا الشاب بالتاكيد ! واذا كنت انا قد نسيته فهو سيذكرني باحتمال كبير لو رآني ، وقد يكلمني ويرحب بي بحرارة لو كانت معرفتي به قديمة ، وفجاة) انقطع حبل تفكيري بهذا الشاب حين ظهر على مسرح شاطيء البحيرة التي ارقبها رجل مسن رث الثياب . خلق الحذاء ، وبلحية مهملة غطت معظم وجهه ، وجلس على مصطبة قريبة من الشاب الصياد ، ونضا عن منكبه حقيبة من قماش باهت اللون ، واخرج منها لفة من الورق ظهرت من بين طياتها بعض اوراق وزهور البنفسج ، ووضع هذه اللفة الى جانبه على المصطبة ، ثم اخرج من

الحقيبة لفة اخرى اكبر من اللفة الاولى ووضعها على ركبتيه وصار يفك طياتها واخرج منها قطعة من الخبز واخرى من الجبن ، ثم اخرج من جيبه سكيناً صغيرة صار يقطع بها الجبن ، وشرع يضع من هذا الجبن في قطعة من الخبز ويدفعها الى فمه ، ويلوكها بشهية ونهم . وعدت انظر الى السابلة فاذا انقطع سبيلهم عدت انظر الى الشاب المنهمك في صيد السمك ، وقد تقدمت منه في هذه الاثناء السيدة التي في مثل عمره ، فبدأ الشاب يلف خيوطه ويطوي عصاة صيده ، وحانت منه التفاتة الى العجوز الذي كان يتناول غداءه من الخبز والجبن على المصطبة ، فادخل يده في السلة واخرج السمكة التي اصطادها لتوه من البحيرة ، وتقدم من ذلك الشيخ ومد يده بالسمكة اليه وتباطأ العجوز قبل ان يأخذها من يده ، ثم رأيته بعد ذلك يأخذها من يده وعلى فمه ابتسامة امتنان عميق . وادخل السمكة في حقيبته وفي عجلة افرد حزمة صغيرة من البنفسج التي كانت الى جانبه فوق المصطبة وتقدم من الشابة التي كانت ترقب الشاب حين اعطى السمكة الى العجوز ، وقدم هذا العجوز الباقة اليها بابتسامة خفيفة ، فتناولتها منه بوجه باش وتبادلا حديثا قصيراً كان لابد فيه شكر وامتنان متبادل بين الطرفين ، واظنني كنت غفوت بعد ذلك ثم صحوت على نداء زوجتي لتناول الغداء ، وما ان جلست الى الطاولة التي خصصت لنا إلا وتقدم منا ذلك الشاب الذي شغل بالي حتى في الغفوة التي داهمتني على عجل حين كنت على كرسي طويل مريح اراقب منه ماعلى البحيرة وما على شاطئها من الناس ، وحملقت في وجه ذلك الشاب الذي شرع يخدمنا على مائدة الغداء فاذا هو الشاب الذي كان مع تلك الشابة وكلاهما بهيئة غير ما كان عليها في هذه اللحظات .

إذن كم يتغير الانسان بحسب ملبسه ؟

وبعد ثلاثة ايام اخذنا طريقنا الى النمسا .

في مدينة انزبورك

وصلنا هذه المدينة حين غابت الشمس وتكاثف الضباب في تلك الساعة ، فلم يتبين لي إلا الطريق الضيق الذي اسلكه بحذر . وكان همي ان اصل الى انزبورك لاعثر بأسرع وقت على فندق نأوي اليه ودخلت (فندق نيون) فاستقبلني شاب يقف وراء منضدة الاستعلامات الطويلة ، حنطي البشرة وبادرني يقول :

— تفضل ياسيدي :

قال باللغة الالمانية ، فاجبته بالانكليزية قائلاً :

ــ ارجو ان تساعدني ، ومعي أهلي واطفالي ، ولااعرف مكاناً ابيت فيه هذه الليلة ، فاجابني بالانكليزية .

ــ آسف فليس في هذا الفندق الآن سرير شاغر .

وقطع حديثه معي ، والتفت الى رجل اعتقده امريكياً كان يعلق على كتفه آلة تصوير واعطى الشاب الذي وراء طاولة الاستعلامات مفتاح غرفة لذلك الرجل فاحسست كأنه اعطاه الراحة والامان وتخيلت ان ذلك الامريكي سيدخل حماماً ساخناً ثم فراشاً وثيراً . فقد كنت متعباً وتدور الارض تحت قدمي جراء سياقة سيارتي في طريق جبلي طويل زهاء ثماني ساعات متواصلة ، ولما انتهى ذلك الشاب من ذلك الامريكي اخذ يدير رقماً في قرص تلفون ، ويكلم احداً بالالمانية ، ثم سمعته يقول بالالمانية ايضاً شكراً ، وهي من الكلمات القليلة التي اعرفها من هذه اللغة ، وعاد يدير رقماً آخر في قرص التلفون ، وهكذا فعل ثلاث مرات اخرى ليجد لي غرفة لاوي اليها في هذه الليلة ، وكان اهلي لا يزالون في السيارة التي اوقفتها قرب باب هذا الفندق ، فلما استبطأوا عودتي اليهم ، جاء اليّ ابني محمد وسألني (طبعاً بالعربية) فيما اذا كنت وجدت لهم غرفة في هذا الفندق ، فالتفت الي الشاب وسألني بالعربية بلهفة وتعجب . ــ انت عربي ؟ .

فاجبته فرحاً :

ــ نعم انا عربي من العراق ، واسمي دكتور كمال السامرائي .

ومدّ يده من فوق طاولة الاستعلامات وصافحني وهو يقول :

ــ انا من الاردن ، من عمان واسمي (ملاذ المراغي) ، طالب جامعي فقلت له جذلاً :

ــ انت ملاذي ياأخي العربي .

وعاد الى التلفون يحاول ايجاد فندق لنا ، واخيراً توفق في ايجاد غرفة في (دار الطلبة) واخذ ورقة صغيرة وكتب عليها عنوان هذه الدار وقال لي .

ــ الافضل ان تستأجر سيارة لتحملكم الى الدار ، فليس من السهل الوصول اليها في هذا الوقت (ثم اردف يسألني) عندك عملة نمساوية ؟ فاخرجت من جيبي (صكوك مسافرين) ، وصرف لي قدراً منها من صندوق الفندق ، وعاد الى التلفون وطلب لي سيارة اجرة ، ولما وصلت السيارة الى الفندق اعطاه عنوان دار الطلبة ، والتفت نحوي وقال لي سأجيئكم في صباح غد لآخذكم بسيارتي لتشاهدوا معالم المدينة . ودار الطلبة التي دخلتها بسبعة طوابق بادارة جامعة انزبورك كما تستعمل كذلك للسياح في فصل الصيف . وعمارة هذه الدار حسنة البناء وفي منتهى النظافة ،

وكانها معمولة من العاج . بهو المدخل ، والمسالك والغرف والحمامات ، جميعها بمستوى عال وجاءني ملاذ في تمام الساعة العاشرة صباحاً وقال لي وهو يعتذر عن مشاركتنا في تناول القهوة ، سآخذكم الى مطعم على قمة جبل يشرف على كل انزيورك وما يحيط بها .

واخذنا بسيارته (الفولكس فاكن) يصعد طريقاً يتلوي ويتلوى حتى انتهى بقمة في اعلى هذا الجبل حيث اقيم عليها برج لدراسة الاحوال الجوية في المنطقة . وبدا لي نهر (الآن) الذي يقسم المدينة الى قسمين شرقي وغربي ، مبسوطاً تحت انظارنا كما لو انه خط على صفحة خريطة ، قال لي ملاذ :

ـ ارتطمت احدى الطائرات الانكليزية في يوم غائم من شتاء السنة الماضية بقمة هذا الجبل وقتل جميع من كان فيها وعددهم اربعة وثمانون ، (واضاف) وقبل اربعة اشهر فقط استخلصت آخر جثة منهم من كتل الجليد التي إنغمست فيها .

ورأيت وأنا التفت يميناً وشمالاً جسراً بعيداً عنا يربط بين قمتي جبلين عاليتين ، فسألت ملاذاً عن ذلك الجسر مستوضحاً :

ـ ان ذلك الجسر عالٍ جداً !

فسألني باستغراب :

ـ الم تعبروا ذلك الجسر في طريقكم الى انزبروغ ؟ .

فلما نفيت ذلك قال :

ـ إذن انتم جئتم على الطريق القديم ، وهو طريق طويل متعب وخطر لكثرة مافيه من التعرجات ، والصعود والانحدارات (واضاف) ان اقامة هذا الجسر من مفاخر الهندسة النمساوية ومن اعظم مشيداتها . وقد استغرقت اقامته خمسة عشر عاماً ، وقتل اثناء تشييده خمسة عشر عاملاً ومهندساً واحداً . اما الحادث الذي وقع بعد استعمال الجسر فقد حدث قبل اشهر قليلة حيث قفز منه شاب الماني ، وقد وجد في جيب سترته ورقة كتب فيها (انه سئم الحياة ففضل التخلص منها بهذه الطريقة) .

وعدت انظر الى ذلك الجسر مرة اخرى ، وركزت على طوله وارتفاعه فقلت لملاذ :

ـ انه شيء مخيف ان اسوق عليه سيارتي .

فاجابني :

ـ ولكنك حين تكون عليه لا ترى شيئاً مما حولك ولا ترى الارض ايضاً بسبب السياج التي يحدد عرضه من الجانبين .

ونظرت الى ماتحت الجسر فلم يتوضح لي إلا رؤس الاشجار الباسقة التي تحاول أن تصل الى مستوى الجسر غير انها تبقى بعيدة عنه .

وكان موقع المطعم الذي قصدناه مختاراً بدقة ودراسة وهو في الحقيقة ليس على قمة الجبل بل منحدراً عالياً من جهة الجنوب ليحتمي بها من ريح الشمال الباردة . اما ضلعا المطعم فيشرفان على جهات ثلاث يبدو ما فيها رائعاً لما فيها من الخضرة وحمرة قرميد سقوف البيوت ، وهذا هو البترول النمساوي الند للبترول الالماني .

واعجبني ان اسال ملاذاً عن مستوى المعيشة في هذا البلد الجميل فاجابني :

ـ بالنسبة الى جاراتها من سويسرا والمانيا وايطاليا هي رخيصة ،. وايطاليا بالذات في انهيار اقتصادي مخيف يقلق الحكومة النمساوية لما بينهما من علاقات تجارية (ثم اضاف) وانا اشارك في نشر بحث بهذا الموضوع ، وستكون الاطروحة لنيل شهادة البكالوريوس في الاقتصاد السياسي (ثم قال مستدركاً) كنت اميل ان اكون طبيباً لااقتصادياً

فسألته :

ـ لماذا لم تدخل كلية الطب ؟

فاجابني :

ـ دخلت كلية الطب ثم فصلت منها في السنة الثانية .

وقدرت مع نفسي انه فصل بسبب رسوبه ، ولكنه قال :

ـ ان عميد كلية الطب كاثوليكي متعصب ، وحصل بينه وبين زملائي النمساويين والاردنيين خلاف عقائدي فاتهموني بالشيوعية .

كان ملاذ حلو التحدث لولا انه مهذار لايفتا يتكلم ويتكلم دون ان يترك لاحد مجالًا للكلام ، كما كان يخلط موضوعاً بموضوع دون إعتبار مابينهما من التباعد ، ولكنه بشكل عام لم يكن مملًا . ثم فجأة سالني :

ـ هل صحيح ان الحكومة العراقية اممت اكثر مشاريع القطاع الخاص ؟ .

فاجبته :

ـ انها اممت البنوك ، ومعامل السمنت ، والغزل والنسيج والسكاير .

فقال :

ـ في النمسا لاتوجد مؤسسة حكومية غير القطارات والكهرباء ورجال الاقتصاد فيها لايؤمنون بالقطاع العام ، كما ان الثراء الالماني مبني على الثراء الفردي .

فتساءلت مع نفسي كيف يكون ملاذ شيوعياً وهو ينكر الاقتصاد الفردي بما يشبه الثناء عليه ، فاردت ان افهم الشيوعية ، فقد قرأت كتاب رأس المال لكارل ماركس وعلى قدر ما فهمت منه انه كتاب فلسفي اكثر مما هو تطبيقي ، واذا مابقيت في نطاقه وهدفه فلن اجد فيه مايناقض المنطق لحل كثير من مشاكل المجتمع المعاشية .

اما اذا تحللت من القيد اليه فسأتعثر في التفكير والتطبيق . فكثيرمن اصدقائي الشيوعيين في العراق يقدمون لي سلسلة من البراهين على صلاحية المبادىء الشيوعية للتطبيق وهم يعتمدون في سردها على اقوال كارل ماركس ولينين وكانها متون غير قابلة للنقص . وكثير من هذه الفئة حين تجد من يستمع اليها تبدأ حديثها بضرورة العدالة الاجتماعية ، وهذا ما تؤمن به كافة طبقات الشعب ثم يتباكون على حال الفقير وينقدون شرف الموسرين ، ومن هؤلاء الشيوعيين من هم في حال التخمة من الغنى الموروث والمكتسب ، ولم أجد احداً من هؤلاء من تقدم لنصرة الفقير ، او من يرحم مخدوميه ولو بزيادة ضئيلة في مرتبة ، واذا تجرأت وذكرت لبعضهم ذلك قال : هي الدولة التي يجب ان تساعد الفقير ولاسبيل لمساعدته إلا بقرمطة مايملكه الغني ليتساوى حاله بحال الفقير : كنت استذكر كل ذلك مع نفسي وانا انظر الى ملاذ ومع ذلك لم يفتني فهمه مما إستمر يتحدث به وغادرنا المطعم ، وكان سير السيارة على منحدرات الطريق المتمرج قد اخافني اكثر من سيرها صعوداً الى اعلى الجبل ، بينما كان ملاذ يقودها بمهارة وثقة استجذبت انتباهي ، فعبرت له عن اعجابي بسياقته ، وقد قلت ذلك بعد ان وصلنا شارع المدينة لاقبل ذلك .

واصر ملاذ ان يودعنا حين ازمعنا السفر الى (نيوشاتل) وكنت استعرت منه كتاباً في جغرافية النمسا ، وحين اعدت اليه الكتاب عند مغادرة انزبروك ، قال لي :

ــ احتفظ بالكتاب وقد جئت به هدية اليك وعندي نسخة منه ، خذه فقد تدخل انزبروك عند عودتك ، ولابد ان تتصل بي حينذاك ، واصر ان استبقي الكتاب معي ، ولما الححت بأخذه ، اخذه من يدي وقذف به الى داخل سيارتي . لقد احبط ملاذ ماأردت ان اقدمه له كعربون تكريم اكثر مما هو مساعدة مالية ، وتناولت الكتيب من داخل السيارة واخرجت من بين صفحتيه الشلنات التي ودعتها فيما بينها وطويتها على بعضها ودسستها في جيب سترته ، فاذا هو يزعق ويرفض بإباء ورجولة وهو يقول :

ــ شكراً ، والعمل بالنيات ، ولنبقى اصدقاء يادكتور واخرج من جيبه بطاقته الشخصية وقدّمها لي . وتعانقنا وتبادلنا عبارات التوديع واسرعت اقود سيارتي الى نيو شاتل ولحكاية ملاذ معي ، ذيل او نهاية ففي (درعَة) بالاردن حين عدنا في طريقنا الى العراق ، كان موظف الكمارك بهذه القرية لطيفاً معي ومع اولادي ، فتجاذبنا اطراف الكلام ، ورأيت وفاء او رداً للجميل الذي اولاني به ملاذ ان اثني عليه امام هذا الموظف ، فاذا هو ينتبه باهتمام حين ذكرت اسم ملاذ ، وقال :

ــ هو ابن عمي ، وكان طالباً ذكياً متفوقاً على اترابه في المدرسة فبعثه الملك حسين على حساب القصر ليدرس الطب في النمسا غير انه مع الاسف الشديد جرفه التيار الشيوعي فطردته المدرسة كما تخلى الملك عن مساعدته بتأثير كتاب كلية الطب الذي ارسلته الكلية الى الديوان الملكي بعمان . ولما قلت له انه الآن في كلية الاقتصاد بنفس الجامعة ، نفى ذلك ، وقال بل انه يعمل في الدعاية لعدة شركات ومعامل وحالته المالية لاباس بها .

الى نيو شاتل وبودري في سويسرا

وغادرت انزبروك قاصداً نيو شاتل الواقعة على ساحل بحيرة نيو شاتل من جانبها الشرقي .. وسألت السابلة عن فندق ناوي اليه ، وبدأ الليل يسدل ظلامه ونحن نبحث عن مأوى ، واكثر من سألناهم او جميعم يجيبوننا بمعنى واحد في غاية الاقتضاب ــ خارج هذه المدينة .

وفي هذه البلاد وبخاصة في البيوت التي على طرق السفر كثيراً ما ترفع على واجهاتها لافتة يكتب عليها كلمة (زمر) وهي دلالة على وجود غرفة يستاجرها السيّاح ليلة واحدة ثم يستأنفون مسيرتهم عند الصباح ، والبيوت في هذه المنطقة جميلة ونظيفة ، وذات طابع عائلي وإجتماعي مريح ، ويطرق السائح باب من رفع عليها كلمة (زمر) ، فيجد فيها غرفة مزودة بفراش مريح وحمام دافىء ، ويتناول في الصباح فطوره على مائدة شهية من البيض والزبد الطازج ، وحين يغادر الغرفة عند الصباح يقدم له صاحب البيت فاتورة اقل كثيراً مما يكلف الفندق المعتدل في المدن الكبيرة وفي نحو التاسعة ليلًا وصلنا الى قرية (بودري) ولم يتبين لي من هذه القرية في تلك الساعة من الليل إلا موقعها على حافة جبل الى يسارها ، وشاطىء البحيرة الى يمينها .

وطرقت باب احد تلك البيوتات التي ترفع على ناصيتها كلمة (زمر) وانفتح الباب عن شابة وكأنها على موعد معنا في تلك الساعة فاخذت من يدي الحقيبة التي احملها وقادتنا من خلال سُلم لولبي الى الطابق الاعلى من بيتها ، ووضعت الحقيبة عند باب وهي تسألني : عشاء ؟ ، وكنت متعباً فشكرتها وانا اقول لها : افضل النوم على تناول العشاء ودفعت مفتاحاً اخرجته من حقيبة يدها وانفرج الباب عن بهو صغير يطغى على ما كان فيه من الذوق في اثاثه البسيط على صغر مساحته . ثم اتجهت الى باب جانبي وفركت مقبضه ، وقالت وما تزال تمسك بمقبض الباب وتحيد بجسمها عنا لتحفظ الباب مفتوحاً لدخولنا وقالت وهي تبتسم :

ـ هذه حجرة (توم) ولدي ، وهو متعاون معنا لنستفيد منها في مثل هذه المناسبات .

وعلى يمين باب هذه الحجرة باب صغير فتحته وهي تقول لنا :

ـ هذا هو الحمام ، بماء حار وماء بارد ، وفوط ومناشف دافئة .

كانت هذه الشابة تكلمنا باللغة الفرنسية ومع ذلك فهمنا ماكانت تريد ان تقوله لنا ، وخصوصاً حين ارادت ان تعبر عن اسفها لما في الحجرة من فوضى ، وشكرناها بحرارة لاباللغة الفرنسية بل بالاشارة ، وفي بعض الكلمات الانكليزية ، وقد بدت لنا انها فهمتنا . وسالتنا وهي تقف على عتبة الحجرة :

ـ من مصر ؟

ـ من بغداد ، العراق .

ـ آه بغداد ، عراق

ـ نعم من بغداد العراق

ـ اهلًا ومرحباً بكم

ودخلت انا وزوجتي هذه الغرفة ، سرير واحد صغير ، وسريران حشرا فيما بينهما وبين خزانة وضع عليها انواع واشكال من لعب الاطفال وبدا لي ان احد السريرين قد نقل موقتاً من غرفة اخرى الى هذه الغرفة ، كما ان اغطية السريرين مازالت تحتفظ بطياتها المنشاة وكانها قد كويت لتوها ، ونمت تلك الليلة نوماً مريحاً هادئاً عميقاً واستيقظت في باكر الصباح على لغط قريب من باب الحجرة ، كان اللغط جدلًا بين سيدة هي الشابة صاحبة البيت وبين طفل قدرته بحدود الرابعة او الخامسة من عمره ، كانت هذه الشابة تكلم طفلها بدلال وتملق ، وخف حديثهما شيئاً فشيئاً حتى انقطع ، وحاولت ان أنام مرة اخرى فانقلبت على ظهري وفتحت عيني لا ارادياً فاذا انا ارى لعباً وكرة ارضية تتدلى من السقف كالتي يضعها اصحاب العمال على مكاتبهم الواسعة ، كما رأيت في ركن من الغرفة : تمثالًا لدب كبير وخلفه ثلاثة دببة اصغر منه . كان على واحد منها امارات المشاكسة فيما كان الآخران ذَوِي وداعة ومسالمة وعاد اللغط بين الام وابنها يصلني ، واستهواني إصرار الطفل على ان تستمع امه لاسئلته ، وصرت اتخيل ان الام تدير ظهره عن باب غرفتي ولكنه يدور ليواجه الباب مرة اخرى ، ويأبى ان يغادر مكانه إلا بعد ان يعرف من احتل غرفته ، وامه تكلمه بهدوء وبصوت خافت ، وربما كانت تقول له :

ـ في الغرفة ضيوف ياعزيزي .

ويسالها :

ـ انها غرفتي .

ـ انها غرفتك بالتاكيد وسوف يغادرونها هذا اليوم .

ويسالها :

ـ ومن هم هؤلاء الضيوف ؟

وتجيبه :

ـ من بلاد بعيدة جداً ، جداً

ويعود يسالها :

ـ ولماذا جاؤوا الينا ؟

ـ ويلح في الاسئلة بتكرار

ـ ومتى جاء هؤلاء الضيوف ؟

ـ كنت نائماً حين جاؤوا ياعزيزي

ـ وهل عندهم اولاد صغار مثلي ؟

وتطلب الام ان يخفض صوته فيقول لها :

ـ اجيبي اولًا ، هل عندهم اولاد صغار مثلي ؟ :

ـ عندهم اولاد صغار ولكنهم لايتاخرون عن الذهاب الى مدارسهم كما تفعل انت الآن .

ـ هل لصغارهم لعب مثل ما عندي ؟ .

ـ بالتاكيد ، عندهم لعب مثلما عندك .

ويسالها بلهفة اريد ان اراهم ياأمي ؟ .

وتجيبه :

ـ ستراهم بعد عودتك من المدرسة .

وتابعت حديث الطفل مع امه حتى خفت ثم انقطع حين سممت خطاه وخطى امه قد وصلت نهاية درجات السلم من مدخل البيت .. ونهضت من فراشي بتكاسل وتوجهت نحو النافذة الكبيرة التي تطل على حديقة خلفية صغيرة ، وكان النهار مشمساً رائعاً ، واوراق الاشجار وسقوف البيوت القرميدية مثلًا حياً في جمالها وتناسقها الطبيعي ، وانحنيت لانظر الى حديقة البيت فلم ار احداً فيها وقدرت ان الشابة صاحبة البيت لم تعد بعد من المدرسة التي اخذت ابنها اليها ، اما حديقة البيت الملاصقة فرأيت فيها سيدة انيقة ترفع كعبي قدميها وتمط قامتها وفي يديها قميص مبتل لتنشره على حبل الغسيل ، وعلى الارض قريباً منها طشت ملىء بالملابس

المبللة . وقد بانت لي هذه السيدة قصيرة القامة لولا انني فطنت الى انني انظر اليها من علٍ ، ثم صارت تبدو اطول حين ابتعدت نحو جانب الحديقة المقابل .. وبفكرة طارئة طفت حول هذه العائلة التي اساكنها ، لم أر الزوجة بعد كما لو كنت اراها الان في وضح النهار ، ولم ار الزوج وقدّرت انه في مثل عمرها وقد غادر البيت مبكراً الى عمله ، ولابد ان عمله يدوي لافكري إذ انني لم ار في البيت مايمكن ان يسمى مكتبة ، ولارأيت كتاباً واحداً على رفوف البهو الصغير الذي يفضي الى الغرفتين اللتين استأجرناهما ، فما هي ثقافته ؟ وهواياته ؟ هكذا تساءلت مع نفسي وانا ارقب حركات المارة وفي هذه اللحظات انصفق باب البيت ودخلت مضيفتنا الشابة وما لبثت ان خرجت الى الحديقة لتنثر العلف لدجاجها على طرف من الحديقة . كانت تلبس ثوباً فضفاضاً بلون الزهر ، محلّى بانواع الورود وتنتعل حذاءً من الخشب ، وتحزم شعرها الذهبي بمنديل ابيض ، فقلت لنفسي : هذه هي هواية زوجها وثقافته ومكتبته وهما دون ريب سعيدان طالما ينهمك كل منهما بعمله ، ويوفر كل منهما الراحة للاخر .

وبعد ان تناولنا فطورنا حزمنا امتعتنا وتعاونا على حملها الى السيارة ، وسألت مضيفتنا عن فاتورة حسابنا فهرعت الى داخل بيتها وخرجت وهي تحمل الفاتورة بيد وباقة صغيرة من ورد البنفسج بيد . وهي تتمنى لنا سفرة مريحة .

الى جنوه بايطاليا

بعد ظهر يوم ١٩٦٤/٨/٥ وصلت جنوه ، ولو انني غادرتها في اليوم التالي فقد التصقت في مخيلتي اقبح صورة لهذه المدينة ، ذلك لانني في يوم وصولي اليها قادني الطريق الى دروب ملتوية سرعان ماصارت تضيق حتى لتصعب سياقة السيارة فيها دون حذر وتقيّد ، كما كانت تتراكم على جوانبها نفايات البيوت والمياه الآسنة ، وفي كل منعطف ماخور تفوح منه روائح الخمور الرديئة ، وتصدح منه العربدة ، وفجاة أشرفت على ساحل البحر ، واغراني مقهى بان اتوقف عنده ، فتقدم مني شاب وبيده راديو صغير ، وادار مفتاحه ليسمعني صوته فعرفت انه يعرضه عليّ لاشتريه فدفعته عني بتبرم وانتهى بي المطاف الى سوق قديم ترتفع سقوفه المطوقة على اعمدة متوجة بزخارف ترقى الى تاريخ قديم ومجد غابر .

وكان بين الاعمدة حوانيت تنبعث منها روائح ثقيلة هي خليط من السمك المقلي واللحوم المقددة والخمور العتيقة . واوقفت سيارتي عند حانوت لبيع السكاير ، وانحدرت اليه من خلال سلم بثلاث درجات ، وكان يقعد في هذا الدكان شيخ تغضن

خداه وغاصا نحو جوف فمه ، فلم اجد عنده السيكارة التي اريدها فاشتريت منه بعض اللبان والحلوى لاجد طريقي فيهما الى مساعدته لي ليدلني الى مركز المدينة حيث تتوفر الفنادق الجيدة ، فخرج من حانوته الى حيث اوقفت سيارتي وبدأ يشرح لي الطريق الذي يجب ان اسلكه ، لاصل الى مركز المدينة وسألني :

ــ هل ترى ذلك الطاق الكبير الذي يمر تحته الطريق ؟ .

وقد فهمت سؤاله بالرغم من اني لاعرف اللغة الايطالية التي كلمني بها ، غير ان الاشارات من يده واصابعه سهّلت عليّ معرفة ما يقوله ، فقلت له :

ــ نعم أراه .

ثم بدأ يلمّ اصابع يده الخمسة ثم يفتحها ثم يلمها ثم يفتحها ليشير الى اشارة (الضوء) عند تقاطع الطريق ، ثم قال وهو يشير بيده اليسرى الى يده اليمنى مرتين للتأكيد على انه يقصد ان اسير عند تقاطع الطريق باتجاه اليمين . وأخذت طريقي كما اشار عليّ هذا المعجوز حتى صرت عند مدخل ساحة (فردي) ، وقد مرّ هذا الاسم في كلام الرجل العجوز ولكنني لم اعرف لحظتها معنى هذه الكلمة ، اسماً كان ام فعلًا ام غير ذلك .

كانت هذه الساحة غير ما مررت عليه قبل ذلك والبشر فيها غير البشر الذي رأيته قبل ان ادخلها ، وعلى جانب من جوانب هذه الساحة حيث ينبثق ماء يتدفق عالياً ليكون نافورة يعود الماء منها الى حوض تحتها ، ورأيت الناس يتجمعون حوله ، وتقدمت من الحوض كما يفعل كثير من هؤلاء الناس ، وانحنيت لارى قاعها ، كان في ذلك القاع اكوام من العملات المعدنية من مختلف الاقطار والفئات يرمي بها السائحون تيمناً وفالًا بالعودة الى هذا المكان .

وكنت اسمع ان مقبرة جنوة اشهر مقبرة في العالم ، فعزمت على مشاهدتها ، فقادتني لافتة باسم هذه المقبرة الى ممر واسع على جانبيه تماثيل وزخارف مرمرية انتهى ببوابة واسعة عالية ، ومنها دخلنا بين صفين من الحوانيت التي تبيع الشموع الملونة والفوانيس الانيقة ولافتات رخامية مزخرفة تحتوي صورة المسيح (ع) او صورة مريم العذراء ، مصادفة لاحظت ان الناس في هذا الممر لايدخنون السيكارة وهم في طريقهم الى القبور ولاشاهدت اعقاب السكاير على الارض ، وكانت في فمي سيكارة ، فطرحتها على الارض وسحقتها بقدمي . ولما اجتزت هذا الممر كان عليّ ان ادخل رواقاً طويلًا ، وعلى جانبي هذا الرواق ادهشتني التماثيل والنحوت المرمرية كان اولها تمثال لرجل ملتحٍ في الستين من عمره او يزيد ، وقد اتكأ على صرح رخامي حفر عليه بوّابة موصدة ، ويمسك بقبعته بيده اليسرى وهو يخفيها وراء ظهره فيما يلي خصره ، وغطى

اكثر وجهه باصابع يده اليمنى ليخفي دموعه المتحدرة على لحيته . لقد كان هذا المنظر مؤثراً يحرق القلب . كان هذا الشيخ يبكي زوجته التي غادرته الى وراء هذا الباب المرمري ، وتركته وحيداً بلا رفيق في هذه الدنيا .

وفي تمثال آخر رأيت سيدة ساهمة ودمعة تترقرق حبيسة في عينيها وراء الم عميق وهي تنظر الى زورق شراعي بعيد تتقاذفه الامواج بينما يحاول شاب في ربيع عمره مقاومتها لانقاذ حياته . لقد اجاد النحات في اظهار التوافق بين عيني السيدة ، وفزعها من عتو البحر ، ورذاذ الماء الذي يحاول الشاب ان يبعده عن عينيه ، وجميع هذه منحوتة في قطعة واحدة من الرخام . هذه الام قد فقدت وحيدها بينما كان يمارس رياضة الابحار فداهمه اعصار اودعه اعماق اليم . لقد انهلتني هذه اللوحة وغيرها من اللوحات وجميعها بمستوى عال من الفن والاتقان ، على انها لم تكن كثيرة في هذا الرواق مما دعاني ذلك ان اعتقد ان الذين صنعوها هم اصحاب المصيبة على فراق زوجاتهم وابنائهم فاودع كل مقدرته الفنية في تلك اللوحات . وانتهيت من هذا الرواق الى ساحة ترتفع عليها مئات الشواهد وهي موضوعة ضمن حدود تيسر لمن يريد سهولة التنقل فيما بينها ، وعلى كل قبر شخص او اكثر يعنى بنظافة القبر ، وقد استرعى انتباهي قبر على رأسه إمرأة منهمكة بمسح شاهده المرمري باسفنجة تبلها بمحلول الصابون ، وترفع الزهور اليابسة من مزهرية امام الشاهد ، لتضع مكانها زهوراً طرية . ثم انحنت تمسح على ارقام على اسفل الشاهد فيها هذه الارقام ١٨٦٧ — ١٩٦٤ وقدرت ان هذا هو سنة مولد المتوفى وسنة وفاته . وكانت السيدة في مثل هذا العمر . وتقدم من هذه المرأة رجل في نهاية العقد الثالث من عمره ، وكلم السيدة ، واخذ من يدها الاسفنجة وتابع ما كانت تفعله ثم ما لبثت ان نهضت وهي تعدّل من قامتها لكثرة ما انحنت في عملها في تنظيف القبر .

ثم اخذت حقيبتها التي كانت تضعها على العشب وفتحتها واخرجت منها شمعة حمراء ، واوقدتها بعد ان ثبتتها في كوة صغيرة على النصب ، بينما كان ذلك الرجل مستمراً يعمل بالاسفنجة في تنظيف المرمر . لقد تخيلت ان هذه السيدة كانت تعمل كما كانت في كل وقت من حياتها مع فقيدها مايحتاجه في بيته من راحة ودلال .

ان التماثيل الرخامية توحي لي دوماً بالموت ، او على الاقل بالمقابر ، اما الذي رأيته في هذه المقبرة فقد خفف من وطأة الحس الثقيل للاجساد البالية تحت التراب . وجعلتني اوهم نفسي ان الموتى فيها يحسون ويدركون ويرتقبون مجيء زائريهم يوماً بعد يوم .

وفي اليوم التالي غادرت جنوه الى فنسيا لابحر على الباخرة ازونيا الى بيروت .

وعند توقف السفينة في الاسكندرية سمح لنا ربان السفينة ان تتجول في هذه المدينة ليلة كاملة بعد ان استبقى معه جوازات سفرنا ، فكنت انا وزوجتي واولادي الثلاثة من اوائل الذين غادروا السفينة الى البر المصري .

فرقة رضا في الاسكندرية ١٩٦٤/٨/١٢

شاهدت هذه الفرقة على مسرح بالقاهرة في نيسان ١٩٦٣ ، وشاهدتها في هذه المرة عندما رست الباخرة التي كنت انا وعائلتي على ظهرها من فينيسيا الى بيروت ، وفي ميناء الاسكندرية سمحت لنا السلطات ان نمضي ليلة واحدة في هذه المدينة . فاخذنا سيارة تاكسي من الميناء لنمضي ساعة لهو في احد مسارح الاسكندرية ، وسألت سائق السيارة ان يحملنا الى مقهى او ملهى ارتاح فيه من دوار البحر الذي اصابني من دون عائلتي ، فقال على الفور :

— فرقة رضا ، (ودي حاجة كويسّة) .

وسرحت حالًا في افكاري فتذكرت احدى راقصات هذه الفرقة التي لم ارها ترتاح حين تستدير برقصها على المسرح مالم ترفع ساقيها الطويلتين الرشيقتين مرة او مرتين ليرى المشاهدون ملابسها الداخلية القصيرة الحمراء حين ينتشر ثوبها الطويل من فوق جسمها حتى ليصل الى محزمها الدقيق . تذكرت ذلك ، وتذكرت ايضاً من قال لي حين خرجنا من المسرح ان هذه الفنانة هي ابنة احد اساتذة جامعة القاهرة ، وما العيب في ذلك في نظر المصريين فإبنة رئيس الولايات المتحدة ترومان مغنية في ماخور !

وعدت الى السائق اقول له :

— الى فرقة رضا ياريّس .

وحلا لي ان اتحدث الى هذا السائق فقلت له :

— التاكسيات هنا في مصر قديمة .

— هو فيه هنا مكسب لنجدد العربية يابيك .

— وحركة السياحة ؟ بطّالة والا ايه ؟ .

— قالت الحكومة ان السياحة ستنتعش في هذا الصيف ، وهم بيقولوا هذا في كل عام ، ولم نر انتعاشها حتى اليوم .

— ولكن (العربية) اذا حرمت من يد الاصلاح ينتهي امرها .

— ما انا عارفها ، وهي بتعالج انت شايفها اهو .

ـ طيب ، صلّحها .

فاجابني بمرارة وتذمر :

ـ اصلّحها منين ؟ والعسكري بالمرصاد .

ـ والعسكري مالو ؟ .

ـ مايرصده علينا من المخالفات يكلفنا اكثر مما يكلف اصلاح السيارة .

ـ لا تخالفوا يا أخي .

ـ دي حجج ، اذا لم اقدم سيكارة للعسكري يسجل علينا مخالفة بالعافية .

ـ كده ؟ .

ـ ايوه كده .

ـ طيب قدم له سيكارة وادفع بالتي هي احسن .

ـ هي السيكارة (مثل) ياسيادة البيك .

وأوصلني السائق الى المسرح الصيفي على الكورنيش ، وتقدمت من عداد السيارة لأقرأ مقدار الاجرة ، وانا امد له يدي بورقة من فئة الخمسين قرشاً ، فتناولها من يدي وتحوّل الى سيارته ، فناديته :

ـ يا ريّس .

ـ نعم يا بيك .

ـ الاجرة في العدّاد عشرون قرشاً

ولوى رقبته بذل وهو يقول :

ـ اصله ، العداد غير صالح يابيك .

ـ معليش نسأل الشرطي عن الاجرة من الميناء الى هنا فقال وعلى وجهه سمات التوسل .

ـ بلاش عسكري ، خذها وسيبني يا بيك ، والرزق على الله .

فاجبته باصرار .

ـ لا ، خذ عشرين وهذا حقك ، وخمسة قروش زيادة مني .

وهذه هي المخالفات التي يريد هذا السائق ان لا يحاسب عليها .

وتقدمت من شباك تذاكر فرقة رضا ، وخفضت هامتي لأكلم بائعة التذاكر .

ـ خمسة تذاكر من فضلك يآنسة ، اريدها في الدرجة الاولى ودمدمت مع نفسها :

ـ خمسة في ٦٥ قرش ، تبقى ٣٢٥ قرشاً

وتحولت اليّ تقول :

ـ ٣٢٥ قرشاً ، ثم تطلعت على لوحة امامها رسم عليها مخطط كراسي المسرح .

وقد رأيت على هذا المخطط وانا في مكاني كثيراً من الكراسي الشاغرة فقلت لها برجاء :

ـ يآنسة ، انا من العراق ، ضيفك واريد كراسي امامية دون النظر الى اثمانها .

فاجابتني بتبرم

ـ كلها محجوزة !

ـ ولكني ارى بعضها في هذا المخطط شاغرة :

ـ هل تريد ورق ام مطرح ؟ .

وكان شاباً يلبس الجلباب الخشن قد حاذاني في تسلسل الرواد الى المسرح فقال لها باقتضاب وكبرياء :

ـ اديه مطارح امامية يآنسة .

ولم تكلف هذه الانسة نفسها بالاجابة ، واصرت ان تدفع لي بطاقات في الدرجة الثانية فاخذتها مضطراً وقد بدت لي هذه الفتاة نزقة ولها طباع القطة الشرسة ، فبترت حديثي اليها والتفت الى ذلك الشاب ذي الجلباب الخشن ، وشكرته على مسمع من فتاة الشباك ، ولا اظنها ادركت الفرق بين من له ادب ومن عدمه ورأيت ان الوقت لم يحن بعد لدخول المسرح ، فتقدمت من عربة عليها بعض المرطبات ، ويدفعها شاب في العقد الثالث من عمره فاتجهت نحوها لاشتري منه مما في عربته من العصائر المبردة ، وانا في سفري خارج القطر اتلذذ في التحدث الى من اتعامل معه باي شكل ، وارى في ذلك فائدة ومتعة اكثر مما ياخذه من جيوبي ووقتي ، وتهيأت لاتحدث اليه الا انه سبقني يسأل حين سمعني اتحدث مع اولادي .

ـ من العراق ؟ .

ـ من بغداد .

ـ ماحلى المصادفة انا ذاهب الى بغداد في الاسبوع القادم لاعمل في جامعة بغداد . (واردف قائلاً) انا ماجستير في الكيمياء .

وسحب درجاً في عربته واخرج منه جملة من الاوراق منها ورقة فتح طياتها امامي وهو يقول :

ـ هذا عقد مع وزارة التربية لاعلّم في كلية الصيدلة بجامعة بغداد .

فادهشني ان يبيع المبردات وهو يحمل شهادة الماجستير . فقلت له :

ـ ابارك فيك هذا الكفاح في العمل ، تبيع الكازوزا وتحمل شهادة الماجستير !

وتوجهنا بعد ذلك الى مسرح فرقة رضا ، وقادنا حارس باب المسرح الى مقاعدنا بحسب ماهو مسجل في بطاقة الدخول .

وكانت هذه المقاعد بعيدة عن المسرح ، ولما بدأت فعاليات الفرقة استغربت حين رأيت اكثر من ثلث كراسي الدرجة الاولى ما زالت غير مشغولة ، ولما رأيت كثيراً ممن في الدرجة الثانية ، ينتقلون الى كراسي في الدرجة الاولى ، عملت مثلما عملوا ، وانتقلنا الى كراسي في الدرجة الاولى ، ولا معارض .

وكان من برنامج السهرة واحداً في (مولد الحسين) ، ولما ارتفعت الستارة بعد دقات الطبلة التقليدية قرأت على ناحية المسرح عبارة (الصلاة على سيد المرسلين محمد) وانساب الى المسرح ثلاثة شيوخ بلحى طويلة وثياب خضر قصيرة ، وتبع هؤلاء على المسرح ثلاثة حوريات يرتدين ثياباً بيضاً وهن ينقرن على طبلات في ايديهن المثقلة بالاساور ، وفتشت بنظري عن تلك الراقصة ذات الملابس الداخلية الحمراء فكانت ابرز عضو في هذه التمثيلية غير ان الخط لم يواتها لترفع ساقيها عالياً بما يكفي لتظهر تلك الملابس !

ماكنت اتوقع هذه التمثيلية فليس في الدين ما شاهدته من هز الارداف والبطون والاكتاف ، ولا فيه رجال دين يهزون رؤسهم على نقر الدفوف ، ولم استسغ ذلك وهممت ان اغادر (الملهى) لولا ان هذه الفرقة قد انسحبت من على المسرح . وقفزت عليه شابة انيقة كانت بالتأكيد اوروبية وتبعها رجل وطلب منها ان تنحدر من المسرح فابت الا ان تسمع (عبدالمطلب) يغني ، وفجأة ظهر هذا المطرب من وراء الستارة وشرع يغني وهو يهز رقبته كما اعتاد ان يفعل دائماً في مثل هذه المواقف .

كان هذا المشهد تمثيلية بالغة السخف ، ولا اظنها انطلت على المشاهدين .

واخيراً عدنا الى الباخرة ، ولم نمض إلا بضع ساعات حتى اقلعت في اتجاه بيروت . وسرعان ما صارت تميل وتتمايل فاصاب اكثر ركابها دوار البحر . واقترح عليهم طبيب الباخرة تناول حبوب (الدرامامين) وجاء بها ، غير ان هذه الحبوب لم تنفع لحالة دوار البحر . وقالت سيدة اين فائدة هذه الحبوب اذن ، فقالت سيدة اخرى : اني لا اعتقد ان لها فائدة وهذا ما جربته بنفسي في سفرتي على هذه الباخرة ، والتفتت هذه السيدة الى رجل البار الذي كان قريباً منها وسألته : ماذا ينصح لحالة الدوار على الباخرة ، فاجابها ببرود :

ـ الفراش ،

والتفتت تلك السيدة الى اصحابها وقالت :

ـ هل سمعتم ؟ .

فاجابت احداهن :

ـ ولكن مكتوب على علبة الدرامامين انها تقطع القيء . واخيراً توجه اكثرنا الى

الفراش وكنت من بينهم ، ولم استيقظ (على غير عادتي) حتى اقتربت الباخرة من بيروت فاذا البحر هادئ ، والشمس يغمر نورها البحر الهادئ ، واذا الدنيا غير تلك الدنيا التي مررنا بها . قبل ساعات .

حالات حمل خارج الرحم / ١٩٦٥

دخلت الردهة النسائية في هذا الشهر (تشرين الاول ١٩٦٥) ثلاث حالات حمل خارج الرحم ، على ان ذلك لا يدل على ان لهذه الحالة المرضية نوبات تخضع لفصول السنة . وكان الاستاذ ابريهام يقول في معرض كلامه عن توقيت فتح البطن في الحالات الجراحية المستعجلة ، انه مرّ بدور في حياته الطبية ركز فيه باهتمام على تجارب في استطباب فتح بطون المرضى ، ويذكر من تلك الحالات (الحمل خارج الرحم) وانسداد الامعاء ، اما الاستاذ كندي ، وهو اكثر اختصاصاً بالامراض النسائية من الاستاذ بريهام فيقول عن بعض حالات الحمل خارج الرحم ، ان من صفاتها السريرية ان ليس لبعضها صفة محددة ، ويذكر حكاية بهذا الصدد مفادها ان تشخيص الحبل خارج الرحم يفوت اي جراح ذي خبرة واسعة بينما يشخصها احياناً من ليس له معرفة بالطب النسوي باي قدر عملي . ويروي عن استاذه (كمن باركلي) الجراح النسوي المشهور ان سيدة حرمها الله من الانجاب فآمنت بالقدر المحتوم واستسلمت لقضائه ، وفي ليلة كانت هي وزوجها يستمعان الى حديث تثقيفي في الراديو عن الحبل خارج الرحم ، واسبابه وعلاماته . وقد ورد في هذا الحديث ان حالة الحمل خارج الرحم يكثر في من لم يحبلن قبلاً بعد طول زواج ، وانه قد يحدث بعد طول زواج ، وانه قد يحدث بعد انحدار دم الحيض مباشرة ، وانه يبدأ بآلام خفيفة في اسفل البطن ، ثم تزداد شيئاً فشيئاً عقب انفجار الانبوب الذي يحمل الجنين ، وان علاج هذه الحالة بعملية مستعجلة لايقاف النزف الداخلي ، وانتهى المتحدث في الراديو من حديثه عن الحبل خارج الرحم وما ان قفلت الزوجة مفتاح الراديو ، واستلقت في فراشها لتنام حتى صارت تفكر فيما ورد بحديث ذلك المحاضر في الراديو ، ثم اخذها السبات فنامت . وفي حوالي منتصف الليل استيقظت فزعة من ألم في اسفل بطنها فايقظت زوجها وهي تقول له دون مقدمات :

ــ هيا خذني الى المستشفى ، فكل ما ذكره المتحدث عن الحبل خارج الرحم ينطبق على حالتي ، فانا الآن احمل جنيناً خارج الرحم .

وطلب منها الزوج ان تهدأ وتنام ، فذلك من فعل المحاضرة التي سمعتها من الراديو .

وحاولت الزوجة ان تنام، فلم تستطع ذلك خوفاً من إحتمال هذه الحالة المرضية. وفيما هي تفكر عاودتها نوبة اخرى من الالم اشد من الاولى، والحت على زوجها ان يحملها الى المستشفى فاذعن الزوج لها، وبعد أقل من نصف ساعة كانت ترقد في احد اسرة مستشفى بارثليمو بلندن. وفحصها الطبيب المقيم فلم يكتشف فيها إلا شيئاً من الانتفاخ في بطنها السفلى، فعزا ذلك الى اضطرابات معوية ومعدية وعالجها بمحلول مهضم وطارد للارياح وحقنة مسكنة للاوجاع. فلما اصبحت عاد يشتد الالم في بطنها السفلى فاستدعى الطبيب المقيم استاذ قسمه في المستشفى فايد تشخيص الحالة بكونها غازات لاتلبث ان تزول.. وبعد ساعتين لم تتحمل المريضة آلامها، وبهت لونها، واسرع نبضها، وانخفض ضغط دمها فاستدعى لفحصها استاذ القسم مرة اخرى، فاضطر هذا ان يفتح بطنها فاذا هي مصابة بانفجار الانبوب الرحمي الايسر بسبب حبل في طرفه الوحشي، واذا المريضة نفسها قد شخصت حالتها بينما فشل في تشخيصها الطبيب المقيم واستاذه في هذا الاختصاص.

قال لي كندي، هذه قصة يجب ان يعرفها كل من يختص بالامراض النسائية». فان الانتفاخ النسبي في البطن السفلي يجب ان لا يستبعد ان يكون احد علامات الحبل خارج الرحم، او يكون على الاقل علامة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في تشخيص هذه الحالة المرضية.

والمؤلفات في الطب النسوي تذكر من علامات الحبل خارج الرحم العقم، بينما نشاهد هذه الحالة بعد اول علاقة زواجية، وخصوصاً في الاتصالات غير المشروعة، وكما تذكر الاورام الرحمية التي تمط بحجمها انبوب الرحم، وكذلك تذكر انقطاع العادة الشهرية غير انه يحدث ايضاً دون انقطاعها، وقد تكون استطالة العادة من علامات الحبل خارج الرحم ايضاً، غير ان تلك المؤلفات لا تذكر الالام الخفيفة المتقطعة التي تنتاب المريضة بعد تأخير ظهور العادة.

وقاعدتي في كل اجهاض مبكر، ان اثبت قبل كل شيء ان المريضة حامل، وان افكر باحتمال الحبل خارج الرحم في حالات الإجهاض بعلامات غير واضحة وبخاصة اذا كان من شكوى المريضة ألماً باي قدر وفي اي مكان من البطن السفلى المنتفخة.

عن التدخين / آب ١٩٦٥

اعتدت حين اكون في لبنان ان استعير كتاباً من مكتبة (خوري) ببحمدون لاقراه فاذا وجدت فيه فائدة لمكتبتي ببغداد دفعت ثمنه وابقيته عندي لآخذه معي الى

بغداد ، وان لم اجده جديراً بالاحتفاظ به اعدته الى المكتبة ، وكان السيد الياس خوري صاحب المكتبة متساهلاً معي ومحباً لافادتي فينبهني الى بعض الكتب الجديدة التي في مكتبته . وكان من بين الكتب التي اشتريتها كتاب ضخم مترجم عن اللغة الصينية لفيلسوف صيني واسم الكتاب بالعربية (كيف يعيش الانسان) . وهو يبحث في كل ما له علاقة بحياة الانسان من ماكل ومشرب ، وثقافة ، وزواج ، وسفر ، وتربية الحيوانات والازهار ، وتعاطي البيع والشراء ، والتدخين وتناول الخمور وغير ذلك مما يالفها الانسان في مسلسل عمره . واخذت الكتاب معي الى مقهى (الارلكان) المشهور بحمدون واخترت لقضاء الوقت فيه بقراءة ما في هذا الكتاب عن التدخين ، وكنت يومئذٍ اكثر من هذه العادة حتى غدت تضر بصحتي واتمنى لو استطيع الاقلاع عنها . وفيما انا اقرأ في الكتاب بهذا الموضوع تقدم مني الاستاذ عبد الرحمن البزاز وهو من الشخصيات العلمية والقانونية في بغداد في تلك الحقبة ، وبادرني قائلاً :

ــ اراك منغمراً في قراءة هذا الكتاب !

فاجبته :

ــ انه كتاب لفيلسوف صيني ، وهذه ترجمته الخامسة الى العربية ويبدو لي ان ان هذا المؤلف يهدف بهذا الكتاب ان يثبت ان الحضارة الامريكية مدنية لا فكرية . هذه هي فكرتي الاولى عن مواضيع هذا الكتاب ولو انني لم اقرأ فيه حتى الآن ما يكفي لاثبات هذه الفكرة . غير ان الذي استطيع ان اقوله بثقة بعد ان قرأت ما كتبه عن (التدخين) ان في افكار هذا المؤلف خروج عن المالوف وفي قراءة كتابه فائدة ومتعة .

(واضفت) وقد قرأت حتى الآن موضوع التدخين وهو يحاول فيه ان يثبت ان اكثر المدخنين اقرب الى الاعتدال والطبيعة من غير المدخنين ، ويدلل على ذلك بجداول إحصائية ليس من السهل جمعها الا لمن يريد ان يحقق فكرة يراها ذات وجوه واقعية يغفل اكثر الباحثين تدارسها . فمثلاً يرى ان معدل المدخنين منذ مطلع شبابهم يميلون الى اللهو والحياة الاجتماعية الصاخبة ، ولا ينغمسون في تبني العقائد الدينية ، ولهم اصدقاء كثيرون ، يجمعهم لهو الحياة بما في ذلك حب المغامرة والمقامرة والحرية المطلقة ، والابتعاد عن الزواج ، اما اكثر غير المدخنين فعلى الضد من هؤلاء ، قليلو الاختلاط باترابهم ، وقليلو الاصدقاء ، ويتزوجون مبكرين ، ويستحرمون الاتصال بالفتيات واعرف ان الاستاذ البزاز متدين ، ورب عائلة ممتاز ، ومنطو على نفسه وقليل الاصدقاء ولا يخالط المدمنين على الخمر ، كنت اعرف كل ذلك ولم يخطر على بالي انني دون وعي مني جعلته خير مثال على هذه الطبقة من الناس فقال لي :

ــ رويدك ان الكتاب يصفني بالذات ويعدني من غير الطبيعيين بين الناس .

فداريت غلطتي وعالجتها بقولي :

ــ هذا المؤلف يضع حكمته على معدّل الفئتين من الناس ، الفئة المدخنة والفئة التي لا تدخن ، اي ان في اي من الصنفين ما لا يدخل في المعدل باحصاآته واجابني الاستاذ البزاز اللبق .

ــ هذا تخريج اشكرك عليه . (ثم اضاف) انا لا ادخن ولا اشرب الخمرة لاتديناً فقط ، ولكنني اراها تضر بصحتي كما لا آراها تريحني باي شكل .

ــ هل جربتها ؟

ــ جربت التدخين مرة واحدة بتحريض من احد اصدقائي وكدت اختنق باول نفس منه ، فلم أعد اليه الى الان ، والتدخين لا استحرمه ولكني استنكره .

ــ وهل جربت الخمرة ؟ هل ذقتها في حياتك ؟ .

ــ هي حرام ، باي قدر ، فكل ما يسكر كثيره فقليله حرام . فانا لم اذقها في حياتي .

الاستاذ هاشم الوتري وقاسم الرجب / ١٩٦٥

في صباح يوم الجمعة ١٩٦٥/١٠/٦ زارني في داري صديقي قاسم الرجب الكتبي المعروف في بغداد وفي عموم البلاد العربية ، وبعد السلام وقليل من الكلام ، بادرني قائلاً :

ــ اعتذر ان اطلب منك مساعدة هي ان حققت هدفها فستقدم فائدة لكل من يعني بالتراث الاسلامي .

ــ ماالامر يا أبا محمد ؟ .

ــ باختصار في مكتبة كلية طب بغداد نسخة (بولاق) لكتاب القانون في الطب لابن سينا ، وانا مستعد ان اعطي الدكتور هاشم الوتري الف دينار اذا اعارني هذا الكتاب مدة شهرواحد .

فاستغربت من الصديق قاسم الرجب ان يعطي هذا المبلغ مقابل إعارة الكتاب مدة شهر واحد ، فقلت له :

ــ لااظنه يستسيغ ان يأخذ هذا المبلغ عن اعارة هذا الكتاب

فقال لي :

ــ اصارحك ، انا وراء طبع هذا الكتاب بالاوفست بطهران .

وارجو ان يعلم منك الدكتور هاشم انني استطيع ان استعير هذا الكتاب من (اولاد صبيح) في القاهرة بمبلغ اقل لو انني استطيع السفر الى مصر ، ولا اعرف

متى استطيع ذلك ، فاعرض على الدكتور هاشم طلبي فقد يقبله وبذلك يكون هو وانا وقراء الكتاب رابحون . وعرضت طلب قاسم الرجب على الاستاذ هاشم ، ورأيته يبتسم ، وعرفت في الحال انه لا يستجيب لهذا الطلب ، وقال :

ـ يعطيني الف دينار نظير اعارة الكتاب لمدة شهر ! انا لا ارتاح الى هذه المساومة ، وقد يكون قاسم بريئاً وطلبه مشروعاً غير انني لا اميل الى اعارته الكتاب ، فضلاً على ان الكتاب ليس ملكي بل ملك الكلية ، والكلية لاتعير كتب مكتبتها ، إلا الى منتسبي الكلية ، وصمت قليلاً ثم قال لي :

ـ اترك هذا الموضوع يا كمال .

ولم يعد اليه إلا لحظة هممت ان اغادره بعد نصف ساعة تقريباً .

ـ موضوع كتاب القانون ، قل لقاسم الرجب ان يتفق مع اولاد صبيح بالقاهرة .

ولم يزد على ذلك كلمة واحدة .

وفي اوائل سنة ١٩٨١ اتصل بي الشاب الظريف (عبود) صاحب مكتبة الاندلس يخبرني انه حصل على (دورة) من كتاب القانون لابن سينا الذي طبعته مكتبة المثنى لقاسم الرجب بالاوفست ، فقلت له :

حالاً ، احفظها لي . وعبود هذا وقاسم الرجب صنوان من زرع ربهما وثقافتهما من الجرائد والكتب التراثية ، فاغتنى قاسم الرجب من طبع الكتب التراثية ، وكان يبيعه الى خارج العراق مئات الصناديق من الكتب ، اما عبود الشاب الذكي فهو في اول الدرب الى ما وصل اليه صنوه قاسم الرجب ، بل اني اتوقع له مستقبلاً زاهراً في سوق الكتب واعده منافساً خطيراً لقاسم الرجب ويوماً ذهبت كعادتي لاطلع على الكتب التي استوردها من المكتبة العثمانية بالدكن (الهند) فوجدت مكتبته مغلقة وسألت جاريه الى اليمين والى الشمال فعرفت منهما ان عبود قد اخذ مجنداً ليشارك في الحرب الايرانية العراقية ولم اره بعد ذلك ، ولا عرفت ماآلت اليه كتب مكتبته .

طالب في الصف الاخير بكلية الطب يصر على صحة جوابه في الامتحان ١٩٦٥/

حين تقرب ايام الامتحانات في السنة الاخيرة بكلية الطب اقول للطلاب احياناً ان الامتحانات يجب ان لا تخيف الطالب ، فانا نفسي لاأنكر امتحاناً اخافني حين كنت تلميذاً بهذه الكلية ، والحقيقة ان ذلك لم يكن صحيحاً فانا حتى بعد تخرجي بعشرات من السنين يحدث ان احلم اني مقبل على امتحان لم استحضر نفسي له ،

فينتابني خوف قاتل فاصحو من هذا الكابوس وانا ارتعد ثم بعد دقائق اعرف انني كنت في حلم لا في يقظة ، والحظ يكبو في اليقظة كما يكبو في المنام . على ان الطالب المجد يندر ان يخيب في الامتحان ، كما ان الطالب الكسول يندر ان يحظى بالنجاح ، والحظ والخوف يلعبان دوراً لا يمكن تجاهله في بعض هاتين الحالتين . واني لاذكر ذات يوم من ايام الامتحان النهائي دخل طالب ليؤدي الامتحان في موضوع الحبل والولادة وكان هذا الطالب من المجدّين النابهين بين اترابه من الطلبة ان لم يكن في مقدمتهم ، وكان معي الاستاذ ملز كممتحن إضافي ، فسألت الطالب :

ــ اذكر لي اقصر قطر واطول قطر في جمجمة رأس الجنين .

فاجابني :

ــ ما تحت القفوى واليافوخ الامامي هو اقصر الاقطار ، والقطر الحنكي ــ القفوى هو اطولها .

وقلت له هناك قطر آخر يماثلهما في الطول .

فقال :

ــ ليس هناك قطر آخر يماثلهما في الطول .

وسألته :

ــ هل انت متأكد .

فاجابني :

ــ تمام التأكد .

ولما رأيت إصراره على جوابه وهو على خطأ ، قلت له :

ــ لا باس نأتي على سؤال آخر .

ولكن هذا الطالب قال لي باعتداد .

ــ استاذ ، اريد ان اعرف ان كنت في اجابتي كنت مصيباً ام مخطئاً فقلت له :

ــ بل انت مخطىء .

فقال وهو اكثر اعتداداً وثقة بجوابه

ــ انني مصيب .

فقلت له ليس في الامتحان جدال .

ولكنه اصر يقول :

ــ انا غير مخطىء ، ومن حقي ان ادافع عن نفسي .

ولما رأيت اصراره قلت له :

ــ اكتفيت ، وحين تغادر هذه الغرفة ارجع الى كتابك ، تفضل اخرج .

ولانني اعرف هذا الطالب معرفة جيدة ، وانه كفؤ للنجاح اعطيته اعلى درجة من اي طالب سبقه ، ودفعت الورقة التي كنت اضع فيها درجات الامتحان الى زميلي الاستاذ ملز ليراها لكي لايظن انني أبدلت الدرجة بعد ذلك بتاثير خارجي ، ولما ابدى استغرابه شرحت له مبررات اعطائي تلك الدرجة العالية وبعد ان اتممنا امتحان جميع طلبة الصف خرجنا من الغرفة ، فوجدت عند بابها ذلك الطالب وبادرني قائلًا :

— رجعت الى الكتاب ياسيدي وانا مخطيء .

وابتسمت وانا انكر له الدرجة العالية التي حصل عليها .

اب يقتل إبنته غسلًا للعار ١٩٦٥/١١/١٢

دخل غرفتي بالردهة العاشرة بالمستشفى الجمهوري وانا منغمر في وضع تقرير شهري عن اعمال الردهة ، رجل في نحو الخمسين من عمره يلف على رأسه (مكرونتين) تتدلى منهما نبالات مفتولة فتخفي قسماً من اعلى جبهته العريضة وحاجبيه الكثيفتين . ولم يبد عليه انه ميسور الحال .

— دختور آني من الدوز ، اسمي عبد القادر ، وعندي بنية عندكم بالقاووش ، اريد اشوفها والممرضة تمنعني ، وفي هذه اللحظة دخلت الممرضة غرفتي وقالت لي بالانكليزية ان احدى المريضات رأت هذا الرجل من خلال النافذة وهربت مذعورة وهي تتوسل الي ان اخفيها عنه ، ودخلت احد مراحيض الردهة ، خوفاً من هذا الرجل ، فتظاهرت امام هذا الرجل ان لاعلاقة بما كلمتني به الممرضة ، غير أني لاحظت انه فهم سر مكالمتها معي فقال للممرضة .

— بابا هيّ بنتي لا تخاف مني .

وسألت الرجل الذي دخل الى غرفتي :

— ما اسم ابنتك ؟

فأجابني :

— درسن .

فقلت له :

ليس في الردهة إمرأة اسمها (درسن) .

— دختور انا شفتها من بعيد .

— وماذا تريد منها ؟ .

— هاي شلون ، هي بنتي واريد اشوفها وآخذها للدوز .

ـ هل هي متزوجة ؟ .

وتلعثم ثم قال :

ـ نعم ، نعم هي متزوجة .

فطلبت الممرضة ان تأتيني بالمريضة درسن .

ثم سألت الرجل ومن هو زوج ابنتك :

ـ هو واحد بالقرية عندنا .

ـ ولماذا لم يأت الزوج ليأخذها .

ـ عنده شغل ، وقت حصاد .

ـ وكيف جاءت ابنتك الى بغداد .

ـ وتردد ان يقول شيئاً إلا انه سكت .

وعادت الممرضة وانبأتني انها لم تجد المريضة في المرحاض وتناولت التلفون واخبرت شرطة المستشفى ليمنعوا اية مريضة ان تخرج من باب المستشفى .

وسمع الرجل ما طلبته من الشرطة فقال لي :

انا اروح وراها ، وبعد دقائق دخل علي الرجل ومعه ابنته ، وكل اعضائها ترتجف . وهو يقول لها بالتركية التي اعرف بعض الكلمات .

ـ لا تخافي ، انا احبك ، هسه نأخذ سيارة ونروح وسحبها من معصمها ، وهو يقول لي اشكرك يادختور الا ان افكار السوء راودتني عن هذا الرجل .

وبعد دقائق دخلت الى غرفتي الممرضة وقالت لي :

ـ رفض الرجل ان تأخذ ابنته طفلها من الردهة ، فكنت اتحقق من ظنوني ، فطلبت مركز الشرطة في المستشفى واخبرتهم بما يجول بخاطري وطلبت ان يسرعوا للقبض على الرجل قبل ان يقترف جريمة قتل ابنته ، وبعد دقائق جاءني مأمور مركز الشرطة ليخبرني انه لم يلحق بهما فقد اقتاد الرجل المرأة الى سيارة تاكسي وابتعدا عن المستشفى ؛ وقبل ان اغادر المستشفى اخبرتني دائرة الشرطة ان الرجل قتل المرأة في سيارة التاكسي وسلم نفسه لشرطة مرور الشارع .

كان ذلك الرجل ابوها فعلاً وهي غير متزوجة وقد حملت سفاحاً من عشيقها فلحق بها ابوها لقتلها فحصل ما حصل .

صديقي الدكتور (ن) ايضاً / تموز ١٩٦٥

في يوم ١٩٦٥/٨/٢٤ ، اي بعد وصولي الى لندن بعشرين يوماً تسلمت رسالة من صديقي (ن) ، وهذا هو نصها لابزيادة ولا نقصان عزيزي كمال .

هنيئاً لك ايام لندن ، فالحر في هذا الصيف ببغداد لاهب قاس . انا لم ار لندن في حياتي كما تعلم ، وهذا لا يصدق ، يكفي انها ليست حارة كما هو الحال في بغداد في مثل هذا الشهر . كان يجب ان اسافر الى لندن قبل ان يطول (نيلي) ، او ابتره لاخف واسافر ، زوجتي وانت تعرفها ، وبنتان ، وامور مضطربة لااستطيع تجاهلها واغمض عيني عنها ، انا لااحسدك ياكمال على اسفارك الى خارج العراق ولااغبطك ايضاً ، فلكل مناحصته من الحياة ، وجزاؤه وعقابه ، انا استحق حياتي وانت تستحق حياتك . انا اعترف بذلك برضى وقناعة ، ولا يمكن لاحد منا الا ان يبقى في قبضة ظروفه ، وانا اضحك على نفسي حين اهم ان اقول لك ان حياتي بهذا الشكل لااستحقها بينما بعض الناس يرون اني لااستحق خيراً منها ، حتى اهلي ياكمال فهم يعيرونني بمناسبة او بغير مناسبة على كوني لم ابرز في الطب كما برز غيري من الاطباء ، ولا يؤلمني ان اكون كما يدعون ، ولكني اتالم كثيراً ان يعني حكمهم اهانتي وعدم احترامي كزوج واب ، او على الاقل شخص يوفر لهم السكن والمأكل والملبس . وابنتي الكبرى لاتكاد تنظر الى وجهي حتى تمط شفتها وتلوي رأسها عني كشيء كريه ، إنها ابنة امها ، انك ياكمال لاتقدر كم يؤلمني هذا الحال . ان حياتي ليست اكثر من بضع ساعات مع مرضاي في العيادة ، ومرضاي بدأوا يقلّون تدريجياً ، وبالتالي قلّت ساعاتي في العيادة التي هي سلواي ومكان راحتي .. وانا لاابالي بذلك ، وبعض منهم يكفيني لاعيش بضع سنوات قادمة . وحين ادخل بيتي تضطرم في جوفي نار من الغضب اخشاها ان تحرقني بلا انذار . هذا إنموذج من حياتي اليومية ياكمال ، وهل هذه حياة ؟ .

فلم يعد لي الان من يذكرني او يخابرني او يتصل بي إلا اختي ، وهي تبدو لي مرتاحة في بيتها ، واتالم اشد الالم حين يخطر ببالي ان استنجد بها لحل بعض مشاكلي ، فانا احتاج الى من يعينني ولو بنصيحة ، فلم يبق لي إلا انت .

لم اسافر الى بغداد بعد سفرك الى لندن ، وسأسافر اليها قريباً من اجل رؤية اختي على الاقل . وقد لااسافر حتى لاتقرأ اختي في عيني ما في داخلي من هموم اخي كمال ، حبذا لو حصلت لي نسخة من كتاب (شترومبل) في الطب الباطني ، وهو لابد متوفر في المكتبات الطبية بلندن .

لاتكتب لي لانني اريد ان اسمع منك جملة ما انت فيه بعد رجوعك الى بغداد .

اخوك (ن)

تقييم البحوث للترقية الى مرتبة الاستاذية / ١٩٦٥

حدث تشكك في صلاحية او صدق تقييم البحوث من قبل جهات اجنبية فرفعت الى المجلس الاعلى للجامعات العراقية الكتاب الآن .

السيد امين عام المجلس الاعلى للجامعات

اشارة الى كتابكم رقم ١٠ والمؤرخ في ١٩٦٧/٥/٢٥ .

من ملاحظاتي على اسلوب تقييم البحوث العلمية بارسالها الى الثقات الاجانب توطئة لتاهيل اصحابها للترقية الى مرتبة الاستاذية ، ان ردود الثقات تغمر بعض هذه البحوث بالاطراء والاصالة ، مع ذلك لم يقبل واحد من هذه البحوث للنشر في اية مجلة معروفة ، بمكانتها العالية . كذلك الاحظ ان بعض البحوث والمقالات التي تنشر في بعض المجلات هي بحوث ليس لها قيمة علمية ولا فيها اصالة . رغم ان المجلات التي نشرتها معروفة عالميا ولكنها اي المجلات قطعاً ليست لها مكانة علمية عالية . ولهذا ارى من الافضل ، تحقيقاً لدقة موازيننا ـــ ضرورة التقيم والنشر في آن واحد عند النظر في الترقية الى مرتبة الاستاذية . فاذا كان هذا الشرط يتعارض مع تعليمات القانون فاقترح :ـــ

١ ـــ اجراء التقييم بواسطة مجالس الاقسام المختصة Board of Studies في جامعتين مختلفتين من الجامعات المعروفة بمنزلتها العلمية .

٢ ـــ تعيين المجلات العالمية في كل موضوع . ونشر قائمة باسماء هذه المجلات على كل منتسبي الجامعة للتقيد مسبقاً بنشر بحوثهم في هذه المجلات لا في غيرها لاغراض الترقية العلمية . اما تقييمنا لعالمية المجلة بعد نشر البحث فيها ففيه مجال للجدل بعيد عن الواقع والحقيقة .

على اي حال سوف ارفع اليكم قريبا اسماء ستة من الثقات في كل فرع من فروع الجراحة كما طلبتم في كتابكم المشار اليه . وقد تاخرت في رفع هذه الاسماء اليكم حتى اتحاشى اللجوء الى منتسبي الفروع التي لا اعرف الثقات في مواضيعها . وتقبلوا منا الاحترام .

الاستاذ كمال السامرائي
رئيس دائرة الجراحة

مئذنة سوق الغزل وجامع الخلفاء / ١٩٦٥

ظهرت ركائز الى جانب مئذنة سوق الغزل ، وشاع بين الناس ان جامعاً سيقام على هذه المئذنة ، وثمة حوانيت ستشيد حوله لتمويل إدامته . فثار في نفسي السخط على إقامة هذه الحوانيت ، كما خفت ان يكون الجامع المزمع تشييده على طراز حديث يناقض هندسة المآذنة ، فكتبت في هذا الموضوع الذي نشرته جريدة الجمهورية يوم ١٩٦٥/٥/٢٤ وفيما يلي نص مانشرته الجريدة .

مئذنة سوق الغزل وجامع الخلفاء

خطاب مفتوح من الدكتور كمال السامرائي الى الدكتور المهندس محمد مكية

معذرة ان اجعل هذا الكتاب مفتوحاً . والواقع انني تعمدت ان يطلع عليه الكثيرون حتى يشتركوا في بحث الموضوع الذي انا بصدده . كما ارجو ان تتسامح معي وتفسح لي صدرك الفني فلا تلتفت الى كوني بعيداً عن مهنة الهندسة ما يجعلك تفترضني متطفلاً ، او متطاولاً على اعمالك الهندسية التي اقدرها اكبر تقدير . كما اني لا ابحث معك موضوعاً هندسيا بل ان بحثي سيكون اقرب الى الذوق العام والميل الطبيعي مما هو الى الهندسة وقواعد البناء . وفي مهنتي التي اعمل بها كثير من المشاكل العملية ونتوصل الى حلها الصحيح بدافع من الحس الفني اكثر مما نعتمد في حلها على القاعدة او المعادلة الحسابية . ثم بعد هذا فان موضوع بحثي هو تشييد ــ جامع الخلفاء ــ الذي قمت انت بتصميمه الى جانب ــ مئذنة سوق الغزل ــ هذه المآذنة الشامخة في علالي سماء بغداد ، ترفع رأسها الرفيع كانه العصى تهش على الغيوم التي تطوف حولها لتوزع مافيها من حيوات وخيرات على الاراضي الطيبة الحالمة ، فقد استدللت من الركائز الكونكريتية والدعامات التي ارتفعت على جانبي المئذنة ان الجامع قيد التشييد سيكون على طابقين وانه سيحيط على ما يبدو بالمئذنة حتى لاأراها الا حبيسة مخنوقة الانفاس ، بالاضافة الى الفوارق العمرانية الصارخة ــ التي اتخيلها مقدما ــ بين بناية الجامع الجديدة وبين المئذنة القديمة ، ويأحزني واسفي لو صح ما سمعت من ان جبهة الجامع ستكون مجموعة من الحوانيت والمخازن وربما المقاهي ايضاً .

في نظرة واحدة الى المئذنة يتوضح لنا طابعها الخاص الذي تتميز به عن جميع المآذن الاخرى . فهي عدا انها مشيدة كليا من مادة طينية غير مصبوغة فان القسم الذي يعلو ــ الحوض ــ هو اكثر نحافة واقصر قامة مما هو مالوف في المآذن البغدادية

وغير البغدادية ، ولاول وهلة تبدو هذه المفارقة متنافرة مع انسياق القسم الاسفل الذي تحت الحوض ، ولكن حين تشملها النظرة الفاحصة المدققة يبرز حينذاك جمالها الفني الذي يطبعها بصفة مميزة هي الجمع بين البساطة والسذاجة من جهة وبين الفخامة والدقة في بعض اجزائها من جهة اخرى .

ان هذه النظرة المدققة غير العابرة تميل دون تردد الى استيعاب هذا التضارب وتتقبله بتقدير واعجاب كوحدة فنية متماسكة غاية في الابداع وهذه الصفة في الواقع تشاهد بتكرار في كثير من الاثار القديمة . فهل سيلتفت فنك الى مواصفات هذه المئذنة ويعترف بهندستها وبطريقة بنائها رغم الدوافع غير الارادية التي تضطرك الى التمسك بالاصول الحديثة والذوق الحديث ؟ انا لم استطع ان تصور كيف سيكون بناء الجامع الجديد متمما للمئذنة رغم ما اتوقع ان يكون فيه ، اي في الجامع ، من ابداع في التصميم وروعة في التشييد ، لانني في الحقيقة اتشكك في امكانية الفن الحديث ان يجيء ببناء يجاري او يماثل مافي المئذنة القائمة من فن سبق ووصفت بعضا منه . ولا اقصد بهذا التقدير طبعا عجز الفن الحديث على المحاكاة او حتى المنافسة بل اقصد ان الهندسة المعمارية العصرية تعتمد كليا على مادة غير المادة التي قومت بها الاثار المعمارية القديمة . فالسمنت والحديد ومشتقاتهما لاتقوم بناء طابعه الاسلوب القديم دون لمسة عصرية في جزء من تكويناته . والمهندس القدير لاشك يستطيع ان يتحايل بطرق غير مكشوفة على مناظرة البناء القديم ولكنني لااراها تقرب من النماذج الاصيلة والاستنساخ ليست له مكانة محترمة في الفن ولو انها تدليل على مقدرة الفنان الشخصية على العمل في هذا المجال ، هذا واني لا اتغافل عن الفشل الذي مني به الفن المعماري الحديث في البناء والتزيين في كثير من المآذن وقباب الجوامع التي شيدت اخيراً في بغداد باستخدام الهندسة العصرية واستعمال الآجر السمنتي والقاشاني العصري او مايشبه القاشاني .. ان تعشقي بمئذنة سوق الغزل ودفاعي عنها ، لايعني حبي لكل قديم مع كرهي لكل حديث ، واني محافظ ولااريد التطور والتطوير بل الصحيح هو اني تواق ان اشاهد مئذنة او جامعاً مشيداً كليا على طراز فني حديث محظ .

والفن الحديث والمهندسون المعاصرون اكفاء الى هذه المباراة ، وقد نجحوا فعلا في هندسة بيوت السكن الحديثة وفي ابنية دوائر الحكومة ، وكل هذه المنشآت على ما فيها من نواقص او زوائد ، الا انها تلائم الى حد كبير العصر والاجتماع ومتطلبات ومتطلبات الحياة القائمة .

لا انا ولاغيري نشك في مقدرتك الفنية ، فانت من الاوائل الذين اسسوا الهندسة

في العراق ، ويدنو لها القواعد المحلية . ولكنني لااستسيغ ان تسخر مقدرتك الفنية في عمل دون رضى من ذلك أو من الذوق العربي .

واتبعت هذه الحكاية باربعة اخرى مماثلة وبآراء جديدة . وساهم في هذا الموضوع كل من المهندس الاثاري شريف يوسف والدكتورة لمعان امين زكي والدكتور صباح الزبيدي . وبعد ذلك فوجئت يوماً بمدير الاوقاف العام يرد على افكاري في هذا الموضوع بلهجة تهكمية لا موضوعية فيها .

اما الدكتور مكية فلم يعلق على اي مما كتبته في جريدة الجمهورية ، كذلك تناول هذا الموضوع التلفزيون العراقي في برنامج العلم للجميع ولكن دون تعليق من صاحبه .

اسطورة مئذنة سوق الغزل

لم اكتف بما كتبته عن مئذنة سوق الغزل فقد تكلمت في موضوعها اكثر مما كتبته عنها . وكان ذلك بطريق الاستنتاج ودراسة هندستها عن بعد إعتماداً على مفهومي الخاص لما فيها من المميزات والزخرفة العمرانية ، كما سمعت من بعض شيوخ بغداد حكايات عنها في اكثرها قليل من الحقيقة غير انها عموماً تستحق التسجيل في تأريخ هذه المئذنة . انقل هنا واحدة منها دون تحريف كبير لنصها الذي سمعته من اثنين من كبار البنائين في بغداد ، وقد يكون مصدر حكايتهما واحد . ففي يوم زارني رجل طويل القامة ، يلف على رأسه (الجراوية) البغدادية ، ويرتدي دون عباءة زبوناً نظيفاً وحسن الخياطة ، وقال :

ـ انا اسطة محمد ابو رضيّة ، وهي تراجعك من اجل الضنا ، وارجو ان اعرف موضوعها ومستعد لاي كلفة يتطلبها العلاج .

وقادنا الحديث معه عن عن مئذنة سوق الغزل فقال لي بلغته وصراحته المألوفة عن مثل طبقته من الناس .

ـ الدكتور محمد مستاء مما كتبته عن التصاميم التي وضعها لمئذنة سوق الغزل .

والدكتور محمد هو محمد مكيّة من المهندسين البارزين في الهندسة البغدادية ويكاد اختصاصه ان يكون في هندسة العمائر الشرقية الاسلامية . اما هذا الرجل فيعرف باسم محمد (الاكريم) وهو الساعد الايمن للدكتور مكية في بناء جامع الخلفاء وترميم مئذنة سوق الغزل ، كان الاسطة محمد مثالًا للبغدادي الاصيل في ملبسه وفي كلامه واشاراته التي يبطنها بمعاني خاصة ، كما تبين لي ان له معلومات تاريخية لاباس بها عن هذه المئذنة سردها لي بتقطيع وتانٍ . قال :

ـ ان هذه المأذنة لايزيد عمرها على السبعة قرون ، اي انها ليست عباسية العهد ،

وقد امر ببنائها احمد اباقا بن هولاكو وعهد بالاشراف على تشييدها الى وزيره عبدالله الجويني ، وتلتصق بها قصة ممتعة حتى لو كانت خرافية . فقلت له اريد ان اسمعها لو تفضلت قال :

ـ كان في اصفهان اشهر البنائين في ايران واسمه (حاجي علي) وله تلميذ اسمه (غلام علي) ، ورغم التحابب الذي يشد بقوة بين هذا الاستاذ وتلميذه ، فان اولهما كان ضنيناً بتعليم كثير من اسرار مهنة تجميل العمارة وزخرفتها ، كما ان تلميذه كان حاد الذكاء وقوي الملاحظة ، وكان يراقب استاذه دون ان يثير إنتباهه ليكون خليفته في الصنعة ، او يبزه فيها ان استطاع ، وذات يوم وهما يتحدثان عن مئذنة اصفهان الشهيرة ، قال غلام علي :

ـ ان هذه المئذنة هي غاية ما يمكن لاي استاذ في البناء ان يصنعه .

ويبدو ان الاسطة الحاجي علي عدّ هذه الاشارة تحدياً له ، فقال بكبرياء ووقار .

ـ ليس في هذه المئذنة إلا ابداع في تناسق الوان القاشاني فيها ، وانا اطمح ان ابني مئذنة من طابوق بلون واحد لا يدخلها اي لون آخر وهذا هو وجه الابداع فيها والمبادرة التي لم يسبق اليها احد من شيوخ البناء ، كما ساجعل لها سلمان الصاعد اليها لايرى النازل منها ، اريد ان اجعل المنارة التي افكر ببنائها حدثاً في العمارة يتحدث به الركبان .

وشرح الحاجي علي لتلميذه طريقة بنائها وتلميذه ينصت اليه بكل جوارحه ، واراد ان يستوضح منه الكثير عنها وساله :

ـ وهل ستكون اسطوانية القوام ام مربعة ام ماذا ؟ :

فاجابه اسطة علي :

ـ ان المآذن المنشورية لاتعطى طابع الصعود والسموق المستمر كالمآذن الاسطوانية . ولذلك ساجعلها اسطوانية ، كما ان النور والظلال يتداخلان على سطحها بنعومة تحت النظرة الواحدة ، فلا نور قاطع ولا ظل قاطع كما هو في المآذن المنشورية فلا تتعب الناظر اليها .

وساله :

ـ واين تضع حوضها .

فاجابه :

سيكون لها حوضان يقسمان المأذنة الى ثلاثة اقسام .

وفكر غلام بما سمعه من استاذه اسطة علي ، وعزم علي شيء ، فقد استيقظ

مبكراً وحمل تحت إبطه صرة فيها زاد مايكفيه للسفر بالكروان الى بغداد .

وكان يحكم بغداد يومئذٍ الخان اباقا التاتاري وقد دخل الاسلام في تلك الايام ، وغالى في التمسك بشرائعه ، والعمل على نصرته ، فوجد غلام في هذا السلطان ضآلته ، فتوجه الى الجامع حيث يصلي هذا السلطان ، وصلى وراءه مع المصلين ولما انتهى من صلاته تقدم من الخان الورع وساله : هذا الخان :

ـ ماذا تريد ايها الشاب ؟

فقال له :

ـ اريد ان اخدم الخان يا مولاي .

ـ واية خدمة تستطيع تقديمها لي ؟

ـ اراك ياسيدي الخان كثير الاهتمام بدينك كما انك كثير الاهتمام برعيتك ، وعندي من الفن في بناء المآذن ماليس لغيري مثله !

ـ ومن اين انت ايها الشاب ، هل انت حاجي علي ؟

ـ لاياسيدي انا تلميذه واستطيع ان ابني مئذنة كان يحلم بها استاذي ولم يحققها .

وفتح الخان خزانته ليمول بناء المئذنة ، فجاءت آية في الفن والجمال .

وسمع حاجي علي بهذه الاعجوبة في بغداد ، وشد الرحال اليها ، ووقف ينظر اليها باعجاب وتفاجأ حين رأى تلميذه غلام في الصحن الاعلى من المأذنة ، فصعد اليه فلم يجده ، وطاف حول صحن المئذنة فلم يجد له اثراً ، ونظر الى الارض فاذا غلام يقف وعلى وجهه امارات الظفر . فعرف الحاج عليّ انه سرق منه سر بناء هذه المئذنة وسبقه الى بنائها ، فرمى بنفسه من اعلى المئذنة الى الارض ليموت غيظاً وكمداً .

هذه هي اسطورة مئذنة سوق الغزل ، وقد يكون فيها بصيص من الحقيقة .

السر دوكالد بيرد استاذ زائر لكلية طب بغداد / حزيران ١٩٦٥

اخطرتني عمادة كلية الطب انها بالاتفاق مع المجلس الثقافي البريطاني وبناء على مقترحي الذي رفعته الى العمادة ، ان (السر دوكالد بيرد) قد وصل بغداد وانه سيزور الكلية وشعبة الامراض النسائية يوم غد في الساعة العاشرة صباحاً . وكنت اعرف هذا الجراح النسوي عن طريق منشوراته في المجلة البريطانية للامراض النسائية والتوليد ، وكتابة القيم TEXT BOOK OF SBSTETRICS AND QYNAECOLOGY

وحضر هذا الزائر في اليوم الذي حدده المجلس الثقافي البريطاني ، ودخل غرفتي في المستشفى الملكي بصحبة مدير المستشفى الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي ومدير المجلس الثقافي البريطاني المستر (مور) . وتقدم الدكتور الجوربه جي وقدمهما اليّ وبعد التحيات التقليدية صرنا نتحدث عن عموميات البلدين انكلترا والعراق ، فقال السر دوكالد بيرد .

ـ انا زرت من بلاد الشرق تونس ومصر وتركيا ، ويبدو ان العراق قطر يختلف عن تلك الاقطار ، ولابد ان ارى آثاره القديمة ، وخصوصاً بابل ونينوى ، والاهوار .

وقال له المستر مور وهو يغمز بعينه اليّ :

ـ وقصور العباسيين في سامراء ، وإلّا فان الاستاذ السامرائي سيعتب عليّ انا لو تجاهلت سامراء ولم انكرها للسر دوكالد بيرد وعدت ارحب بالضيف وقلت له .

ـ ساعد لك زيارة خاصة لرؤية قصور العباسيين في سامراء وشكرني باختصار ثم التفت الى مستر مور وقال له :

سابقى مع السامرائي لنتحدث عن بعض الامور التي جئت من اجلها الى بغداد وغادر الدكتور الجوربه جي والمستر مور غرفتي وتوقعت ان يتكلم معي في مواضيع طبية فاذا هو يسالني عن الحياة العامة في بغداد وآثار العباسيين فيها ، كما استعلم عن المدرسة المستنصرية وتحديد يوم لزيارتها وتصوير معالمها المهمة .

كان سر دوكالد بيرد يتكلم بجرس خفيض ولايستعمل يديه لزيادة في توضيح كلامه الا نادراً . كما بدا لي تعباً فسالته ان كان لايزال يمارس الطب فنفى ذلك وهو يقول :

ـ انا في عمر تتعبني فيه العمليات الجراحية ، فتوقفت عنها منذ عشر سنوات .

ولم أشا ان اسال عن عمره ، فقدرته تخميناً بنحو خمس وسبعين غير انه قال لي فجاة انه يخطو الى الثمانين . وحين رأى بعض الكتب مرصوفة على رف في غرفتي نهض اليها وقرأ كعوبها ، والتفتت اليّ يسالني :

ـ ارى كتابي COMRINED TEXT BOOK بين هذه الكتب فهل هو من الكتب المقررة لطلاب الكلية ؟ (يقصد كلية طب بغداد) .

فقلت له .

ـ (الكتاب المقرر هو (لجونستون) اما كتابكم فهو احد الكتب التي نوصي الطلاب بقراءتها .

وسالني :

ـ وماذا اعجبك من الكتاب ؟

فاجبته :

ـ اعجبتني المقدمة التي كرستها لتشريح وفسلجة الاعضاء الانثوية من الوجهتين اللتين تخصان (التوليد) والامراض النسائية معاً ، (واضفت) :

ـ ان استاذي الاول في هذا الاختصاص يكرر في دروسه الصفية ان التوليد وامراض النساء علم واحد ذو شقين الاول منهما في فسلجة الاعضاء الانثوية ، والثاني في باثولوجيتها فانتبه دوكالد بيرد الى ما قلته باهتمام وسالني :

ـ ومن هو استاذك الاول ؟

فاجبته :

ـ هو كندي ، وليم ديفد كندي ، وهو اسكوتلندي الاصل .

فقال لي بغير اهتمام :

ـ لاانكر هذا الشخص ، ولكن ماقاله فيه الكثير من الحقيقة .

فقلت له :

ـ ومن هذا يجيء اعجابي بكتابكم COMBINED

وقال دوكالد بيرد .

ـ مالنا وكتابي . فلنتكلم عن ماله علاقة بكليتكم ، فهل تريد مني ان احاضر للطلاب وما هو الموضوع الذي تختاره لهذه المناسبة .

فقلت له :

ـ اي موضوع يخرج من كتابكم هو مانريد ان نسمعه منكم .

فسكت برهة وهو يطيل النظر اليّ وقال .

ـ لدى موضوع طريف وهو بعنوان (التوليد والامراض النسائية من الوجهة الاجتماعية) .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كان السردوكالد بيرد يقف وراء منصة الدرس ويتكلم بتسلسل إستقرائى ممتع ، لولا انه حشر في محاضرته كثيراً من الآراء الاجتماعية والفلسفية التي لم افهمها بسهولة فكيف يفهمها الطلبة ؟

ودعوت دوكالد بيرد الى عشاء في بيتي في المسبح ، كما اعتدت بصفتي رئيس قسم النسائيات بكلية الطب ، ان ادعو الأساتذة الاجانب الذين يزورون كلية الطب . وكان من المدعوين عميد الكلية ورؤساء الاقسام ومدير الصحة العام ومدير المستشفى الملكي . وحين استقر في مكانه بين المدعوين ، سالني وبيده كاس الوسكي .

ـ من رشحك الى عضوية كلية الجراحين النسائيين البريطانية ياسامرائي ؟

فقلت له :

ــ كرين ارميتاج ، ونكسون وهارولد مالكن .

وتابع يقول :

ــ اظن ان كرين ارميتاج قد توفي منذ زمان !

وقد قال ذلك وكانه ينفي ان يكون كرين ارميتاج قد شارك في ترشيحي ، فرأيت اعتراضه نابياً فقلت له :

ــ ان كل واحد من الذين ذكرتهم قد رشحني على انفراد وفي تقارير مختلفة التواريخ . وثلاثتهم قد زاروا كلية الطب بدعوة من المجلس الثقافي البريطاني قبل سنة ١٩٥٨ .

وبدا لي ان ضيفي قد شعر ان في ملاحظته مالايليق ، فاراد ان يصلح الخطأ الذي وقع فيه فقال :

ــ نعم نعم ، تذكرت الان ، وكنت يومئذ أرأس لجنة منح شهادات الزمالة الفخرية ، وكل ما اذكره الآن ان (عراقياً) منح شهادة العضوية ، فاقترح هارولد مالكن ان تمنح في الوقت نفسه شهادة الزمالة ، والحقيقة كنت انا احد من عارض منح الشهادتين في وقت واحد ، غير ان اكثرية اللجنة الحوا على منحهما معاً . (ثم قال) لااذكر إسم من منح الشهادتين معاً ، ولابد ان تكون انت يا سامرائي ذلك الشخص ، اذا لم يكن غيرك من العراقيين من منح الشهادتين معاً .

فقلت له :

ــ ليس في العراق احد غيري من يحمل شهادة الزمالة .

كانت حديقة بيتي منسقة بذوق ، والاضواء الخافتة التي تتسرب من بين اغصان الاشجار ما يدعو الى الارتياح والبهجة . ولما وقف ضيف الشرف يتطلع الى مائدة الطعام ، بالوان المأكولات العراقية ، قال :

ــ هذا بيت ومائدة لايخطيء احد في انها لجراح نسائي .

فقلت له بقصد التحدث لاالاعتراض .

ــ ياسر دوكالد بيرد انني لست غنياً بالقدر الذي يعكسه مظهر بيتي ، انما الذوق هو الغالب على ما حصلت عليه من ممارسة اختصاصي بمعالجة النساء .

فقال :

ــ آه ، هذا شيء آخر جديد ، فربما تقصد انه من فعل العنصر النسوي ، وانا لاادري ان كنت اخالفك على ذلك ام اوافقك ، والجواب على ذلك سيكون اذا رأيت داري في كلاسكو .

وحار دوكالد بيرد فيما ياكله مما كان على المائدة ، لكثرة ما كان عليها من الوان الطعام .

وعندما غادر بيتي في منتصف الليل قال لي :

ــ سامرائي انت مدعو الى داري في كلاسكو . هذه رغبتي فلا تردها ، فحدد الموعد من الآن .

وفي يوم ١٧ تموز كنت في لندن وفي اليوم التالي اتصلت هاتفياً بالمردوكالد بيرد في كلاسكو ، واخبرته انني ومعي الدكتورة انه ستيان والدكتور اسامة عبدالله ، وكلاهما من اعضاء قسم النسائيات في المستشفى الملكي ببغداد ، وكان المر دوكالد بيرد قد وجه الدعوة اليهما لمصاحبتي الى كلاسكو حين تناولوا طعام العشاء في داري ببغداد . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر إفتر باب الفندق الذي نزلنا فيه بكلاسكو ليطلع علينا ، السر دوكالد بيرد باشا ثابت القدم ، ونهضنا لاستقباله ، فسبقنا يقول :

ــ اهلا بكم في كلاسكو (ثم قال) اريد ان اريكم اولا معالم كلاسكو قبل ان نذهب الى بيتي . واخذنا مقاعدنا في سيارته (الهلمن) الصغيرة وصار يقودها بحيوية دافقة وهو بعمر (كما قال) يقرب من الثمانين وكأنه في عز الشباب . ودرج بها الى المدينة صعداً على تل يشرف على مينائها ، واوقف سيارته وبدا يشرح لنا الموقع والمعالم العمرانية التي في نطاق رؤيتنا :

ــ على اليسار من ذلك المنار مركز ابحاث الاسماك ، والذي على يمينه معمل لبناء السفن ، وذلك الطريق البعيد يؤدي الى (ابردين) اما الطريق المؤدي الى الجنوب فلا يرى من هنا لكثافة الاشجار ، اما العمارة العالية التي ترتفع على ذلك التل فهي مستشفى الامراض النسائية والتوليد الذي يديره الاستاذ (إيان دونالد) وهكذا كان سر دوكالد بيرد يشرح لنا ماامكننا رؤيته ، ونحن ما نزال داخل السيارة . وكان يبدو في تحدثه نشطاً مثلما قاد سيارته بسرعة وخفة ونشاط . وعلى منعطف طريقنا الذي ينحدر الى المدينة مررنا باستدارة حادة ، كانت تصدمنا فيها شاحنة ضخمة ، فغضب لها السردوكالد بيرد ولكن بهدوء وروية قائلًا :

ــ مابال هذا السائق ؟ كان يجب عليه ان يغطي دائرة اوسع في هذا المنعطف (واضاف مؤكداً) على السائق ان يكون يقظاً وحذراً في الطرق الجبلية .

ثم اخذنا دوكالدبيرد الى مستشفى (ايان دونالد) وكان الاطباء والممرضات يقفون له باحترام بالغ ، ولا غرابة فلسردوكالد بيرد مكانة عالية بين كبار الاطباء الانكليز وخصوصاً الاسكوتلنديين منهم .

وانتهت جولتنا في كلاسكو بحدود الساعة السادسة ، وبعدها توجهنا الى داره

الجميلة التي تقع خارج المدينة ببضع كيلو مترات . وهو بيت صغير إلا انه انيق في موقعه بين الاشجار ، وفي تناسق اثاثه ، وفي اللمسات البارعة لزوجته (الليدي بيرد) . وزوجته طويلة القامة بنحافة ، وبعمر زوجها او اصغر قليلاً ، ولا يزال بعض جمالها الافل يبرز في معالم وجهها . وهي مثله نشطة التفكير والحركة ، وتدير مجاناً معهداً في رعاية الحوامل ، ولها نشرات تثقيفية بهذا الميدان ، وقالت حين ولجنا دارها .

ـ حدثني دوكالد عن مدينتكم الجميلة ، وموائدكم وماعليها-من الاطعمة الشرقية ، واثنى على طريقة شي السمك على لهب عيدان الاشجار الجافة .

وعلى مائدة الطعام قال دوكالد :

ان كل ماعلى هذه المائدة الصغيرة من عمل زوجتي جين (والتفت) الى زوجته وقال لها عزيزتي (جين) في البيوت الموسرة ببغداد لا تعمل الزوجة في المطبخ ، بل ان ذلك من واجب الطباخ المأجور ، وفجأة سألني وكانه اراد ألّا يفلت هذا السؤال من خاطره .

ـ تعرف جون هنتر ؟

فأجبته :

ـ زرته في منجستر سنة ١٩٥٧ .

فقال دوكالد بيرد :

ـ انه جراح ماهر في العمليات النسائية وبخاصة في عمليات المهبل ، وهو (بالمناسبة) تلميذ فونركيل صاحب العملية المعروفة باسمه (واضاف) وكان فونركيل ظريفاً ومحسناً كبيراً ، وقد كتب لي قبل وفاته انه يتبرع بعشرة آلاف باون لمن ينال الاولوية في التخرج في الامراض النسائية بشرطين اولهما ان يكون اسكوتلندياً وثانيهما ان لايكون من المدخنين .

فقلت :

ـ لابد كان فونركيل من غير المدخنين .

فقال سردوكالد .

ـ على العكس كان لا يرى إلا والسيكارة في فمه .

ـ إلا انه ادرك مضار التدخين فانقطع عنه ودعى الى مقاطعته بالمبلغ الذي خصصه للمتفوق بموضوع النسائيات .

فقال لي :

ـ انه لم ينقطع عن التدخين ، وقد تكون وفاته بسببه .

لقد كانت امسية ممتعة في دار دوكالد بيرد لولا انها انتهت باستسلام السردوكالد

بيد للنعاس مبكراً ، ولم افطن الى ذلك إلا بعد ان اشار اليّ الدكتور اسامه . وعلى باب داره ودعنا سربوكالد بيد وكانت عيناه تكادان تكونان مطبقتين .

وبعد سنتين بلغني ان الليدي بيد ختمت حياتها في احدى المصحات النفسية باطراف كلاسكو .

الدكتور (ن) ايضاً / ١٩٦٥

لم يعتد صديقي (الدكتور ن) ان يراسلني ، بينما كان يكثر من زيارتي ، وقد يزورني اكثر من مرتين في الشهر الواحد ، فاستغربت جداً حين وجدت على منضدتي في مستشفى السامرائي مظروفاً عرفت مصدره في الحال ، فخط صديقي (ن) متميز اشخصه بسهولة ، تشاءمت قبل ان القي على صفحته نظري ، إذ لم ارتح له حين زارني آخر مرة قبل نحو اسبوعين ، كان يتكلم وفي صدره غصّة وهذه صورة كتابه بعد ان ادخلت عليه بعض التصحيحات (صديقي واخي الاعز كمال ، ياأغلى من اعرف من الاهل والاصحاب ، فانت الوحيد الذي يفرح لفرحي ويتالم لمماتي ، ولن يبكي عليّ احد بالم وحرقة كما ستفعل انت ، وانا اعرف ذلك بيقين .

لقد توفيت امي التي يمكن ان تفجع بوفاتي مثل ايّ ام تفقد ولدها ، اما زوجتي فانها سوف تصرخ وتبكي وتشق ما يستر صدرها من ثياب ، ثم تلبس السواد ، واعرف انها ستجزع من هذه الشكليات بعد ايام قليلة وقبل ان يجف التراب الذي يواري قبري ، ثم تغادر العراق الى اهلها وتنسى كل شيء ، وتضحك بجذل ، فزوجتي اللئيمة لايمكن ان تتخلى عن طبيعتها ، انا اتوقع كل ذلك ياكمال ، بل اعرفه معرفة اكيدة ، هذه هي زوجتي ، فانا زوج مخدوع ، وانا مغلوب على امري بمحبتي لها ، وهي لاتستحق ذلك . ويؤلمني ان الناس يعرفون ذلك ويحتقرونني بسببه . فمن من اهلي ترك ذكراً طيباً ليغفر الناس لي خطيآتي ، فابي متهم بقبول الرشاوي كاكثر افراد الشرطة صغيرهم وكبيرهم ، ومتهم بالخلاعة ، واخي من الشباب المجرمين اخلاقياً وانت تعرف بعض اعماله التي يندى لها الجبين ، وعمي سارق محترف . واختي المسكينة افضل ما في اسرتي ولاعيب فيها الا صراحتها وجمالها وابتساماتها للناس جميعاً ، فمن بقي من اسرتي بلا معابة ليحترمها الناس . ويحترمونني لاجلهم وإبنتي الصغيرة بريئة إلا انها ستوصم يوماً حينما تكبر باحد عيوب العائلة او جميعها . هي جميلة مثل امها وياليتها لم تكن تشبه امها .

وانا اتوجع ياكمال من مرضي الجلدي الذي تعرفه ، وتزيد اوجاعي منه في ساعات الليل ، فلا استطيع ان انام ، والارق يتعبني ، ولم تعد المنومات تنفعني الا لساعات قليلة ، و (هي) لا تقربني لانها لاتزال تعتقد انني مجذوم وتخاف ان تصاب بمرضي فتكون مثلي مخيفة ، ولااظنها تنفر مني بسبب مرضي وحده بل زهداً في بعد ان حصلت مني على وطرها ، فاين اذهب ياكمال ؟ واغفر لي ان سمعت وفاتي المفاجئة وسوف تعرف حينذاك كم انا في حال سيئة لا علاج لها إلا الموت) .
اخوك (ن)

لقد اخافني صديقي (ن) بهذا المكتوب ، وقدّرت انه كتبها في ساعة اضطراب نفسي لاغير ذلك ، على الاكثر ، فكتبت اليه ان يأتي الى بغداد لنبحث موضوعه من كل جوانبه . ولم يجيء الى بغداد في يوم الخميس كما توقعت بل جاءني خبر وفاته في صباح الجمعة بالذات ، فبكيت بزفرات حارة . ولم يذهلني هذا الخبر بقدر ما اخذني الفكر الى كيفية وفاته ، فقد عددته ميتاً حين ودعني آخر مرة قبل اسبوعين .

رحم الله صديقي (ن) واسكنه فسيح جناته .

المؤتمر النسوي السابع في كلاسكو / ١٩٦٥

وصلتني دعوة من استاذ الامراض النسائية والتوليد بجامعة كلاسكو الدكتور ايان دونالد لحضور المؤتمر النسوي البريطاني السابع عشر بكلاسكو ، وكان الاستاذ دونالد قد زار بغداد بدعوة مني بصفتي رئيس قسم الامراض النسائية والتوليد .

وصلت كلاسكو بالطائرة ، وفي المطار سألت سائق سيارة اجرة ان يجد لي من يحمل حقيبتي الى داخل الفندق الذي كان يعلو مباشرة محل وقوف سيارات الاجرة ، وكان هذا السائق شاباً وسيماً حسن القيافة فاجابني بلهجة فيها إمالة واضحة ، فعرفت لاول مرة ان لهجة هذه المدينة الاسكوتلندية تختلف عن اللهجة الانكليزية ، قال لي هذا السائق بأدب :

ـــ يسرني ان اساعدك ، ولكني لو فعلت ذلك لسببت مشكلة ، ورفع رأسه وصفر بفمه ، ثم صفر مرة ثانية فاطل من علٍ رأس رجل يرتدي زي الحمالين وعلى صدره قطعة معدنية باسم الفندق .

والتفت سائق السيارة نحوي وهو يقول :

ـــ هذا هو حمال الفندق ، وسيجيئك حالًا ليحمل حقيبتك الى الفندق ، واقتفيت اثر الحمال الى الفندق ، اما السائق فبقي واقفاً حذاء سيارته وهو يتابعني بنظراته واخيراً رفع يده ليودعني وهو يحثني ان الحق بالحمال ، ورفعت له يدي ممتناً

لمساعدته واعلمه انني فهمت مايريد . وفي اليوم الثاني ذهبت الى محل المؤتمر في جامعة كلاسكو لاسجل اسمي مع المشاركين فيه . وكتابة اسمي مشكلة بالنسبة للاجانب من غير العرب ، ولغير العراقيين احياناً ، فيلفظونه ويكتبونه (سامرى) او (سامري) فالفظه امامهم بتقطيع ومع ذلك يستمر الخطأ في كتابة اسمي باقلامهم . اما في فنادق لبنان فيكتبونه (سمرائي) او (سامري) وحين اقول لهم انني مسلم ولست سامرياً فيقولون : شو يعني الفرق ، فاقول لهم السامريون من اليهود القدماء ، فيأخذهم العجب وفي اليوم الثاني توجهت الى جامعة كلاسكو ، وجلب نظري باهتمام واعجاب الباب الوسيعة المصنوعة من الحديد المطروق ، وعليها اسماء مشاهير الاطباء الاسكوتلنديين مكتوبة بماء الذهب او هو دهان يشبه لون الذهب . وفي قاعة واسعة عالية السقوف اركان مزينة بصور مشاهير الاطباء الذين وردت اسماؤهم على باب مدخل الجامعة .

وبينما كنت اثبت على ياقة سترتي شارة المؤتمر ومن تحتها اسمي بحروف كبيرة نسبياً صرت امام الاستاذ (كوردون لنن) ، وهو احد الذين زاروا كلية الطب ببغداد سنة ١٩٥٦ وشاركني في تعليم الطب فيها لمدة ثلاثة اشهر ، وهي اطول مدة بقيها استاذ زائر ببغداد ، وتحدثت اليه وسألته عن زوجته (برتا) وعن اولاده ، وكانوا جميعاً معه ببغداد .

ــ انت لم تتغير ياكمال ، وكانني اراك نفسك في هذه اللحظات تقطع بيديك لحم القوزي وتملأ صحني به . وفي هذه اللحظات انضم الينا الاستاذ هارولد مالكن وهو نائب رئيس الجمعية الملكية البريطانية للجراحين والمولدين بلندن ، وكان هذا قد زار ايضاً كلية الطب ببغداد بدعوة مني ، وهو نشط الحركة والفكر بالرغم من بلوغه منتصف العقد الثامن من عمره ، واستأذن مالكن من لنن وقادني من يدي كما يفعل الصديق الحميم وهو يقول لي :

ــ تعال اعرفك على الاستاذ جيف كوت .

وخطونا بضع خطوات وصرنا امامه فاذا هو غير ما تصورته قبل ان اراه ، نحيف باعتدال ، اسمر البشرة كث الشارب ، اشيب الشعر ، وكنت اتصوره من خلال كتابه المشهور في الامراض النسائية وكتاباته الاخرى شيخاً كبيراً ، وضخم الجثة ، طويلًا ، وسألني جيف كوت عن بغداد واطباؤها فقلت له :

ــ إنهم يعرفون عنك كثيراً وينتظرون زيارتك لبغداد بفارغ الصبر ، ولما وصلت برقيتك بالاعتذار عن قبول الدعوة كانت لنا خيبة امل ، وجاملني بقوله :

ــ كان في جدول اعمالي في هذه السنة زيارات كثيرة الى جامعات خارج المملكة

المتحدة وجميعها وعود مثبتة لاحجة لي في رفض اي منها ففي شهر آذار كنت في (جوها نسبرج) بدعوة من الاستاذ لويس ، لمشاركته في امتحان طلاب الكلية ، وفي شهر مايس لبيت دعوة جامعة (هوبكنز) بامريكا وفي أول شهر ايلول القادم اكون في سدني بدعوة من جامعتها . وانتهز مالكن انشغالي بالحديث مع جيف كوت فغادرنا لحظة وعاد معه رجل طويل القامة ضخم الصدر والبطن وقدمه اليّ باسم (ستول ورثي) ، وكنت اقرأ له فيما ينشره في مجلة (B.M.S) وكم كنت اتمنى ان اسمعه وهو يحاضر ، فيخرج عن محور موضوعه ليفند رأياً سائداً في علاج حالة نسوية ، واردت ان اجاذبه الحديث غير اننا في تلك اللحظات سمعنا جرس المؤتمر يجلجل ايذاناً ببدء الاجتماع والتوجه الى قاعته الكبيرة ، وصعد الدرجات الثلاث السر (دوكالد بيرد) ، وقد عرفته من قفاه ، وكان هو الآخر قد زار كلية الطب ببغداد وحاضر فيها ، واكل على موائدنا من القوزي والمسكوف فاعجب بهما . وصحنا القوزي والمسكوف من اشهر المأكولات العراقية ، ولايكاد يخلو من احدهما مائدة تقام للأجانب الذين يزورون بغداد ، فياكلون منهما بشهية الى حد التخمة ، الا ان هذه حين تتكرر بتكرار الولائم المتعاقبة تفقد لذتها الى حد ما ، ولذلك قال لي السر هارولد مالكن ان القوزي او المسكوف الذين نراهما على كل مائدة يبدوان وكانهما فضلات موائد سابقة ، ومع ذلك فشهيتنا لهما لا تقل .

بدأ السربوكالد يتكلم مرتجلًا ، وقد يلتقط من ورقة صغيرة يحفظها بيده اليمنى رأس موضوع جديد ، فيعود يتكلم بسلاسة وتسلسل شدّنا اليه ، فلم افقد انا نفسي مما قاله كلمة واحدة ، بدأ حديثه قائلًا :

ــ في هذه القاعة قبل اربعين سنة حاضرني ثلاثة اساتذة من الذين درست عليهم في جامعة كلاسكو ، فلا انتهي من احدهم حتى يبدأ آخر ينهال عليّ باسالة اخرى ، ولم يكن الممتحن الثالث اقل صرامة معي في اختبار معلوماتي في موضوع الجراحة النسائية ، ثم شرع يتحدث عن التطورات التي استحدثت واضيفت الى معارفنا في الطب النسائي ، ونقد بعضها ومجدّ بعضها الآخر وهو يقول : كم يسعد المرء لو يخلق من جديد من هذه الأيام .

في ادنبرة ومانجستر / ١٩٦٥/٨/١

اوفدني المجلس الثقافي البريطاني الى المملكة المتحدة للاطلاع على اعمال الاستاذ (روبرت كلر) في ادنبرة والاستاذ جون هنتر في منجستر ، وهما يومئذٍ اشهر اساتذة بريطانيا في الامراض النسائية والتوليد . وكنت اسمع عن الاستاذ روبرت كلر

واقرأ له باهتمام بعد ان عرفت من الاستاذ روجرز في بغداد انهما كانا زميلان اثناء الحرب العالمية الثانية بشمال افريقيا ، ونظم لي المجلس الثقافي مستلزمات سفري وسمة الدخول الى بريطانيا واماكن اقامتي بلندن ومنجستر وادنبرة . وفي ظهر اليوم الذي حدد لوصولي الى ادنبرة كنت اضرب بالمطرقة السوداء باب بيت (مستر ميجل) ، وهو بيت صغير بطابقين يطل على (الرويال بارك)الفسيح ، وانفتح باب هذا البيت وطلعت عليّ سيدة بطول معتدل ، وذات بشرة وردية وبعمر يناهز الخمسين سنة ، واستقبلتني ببشاشة وكانني احد معارفها الذي تنتظره وراء الباب وسألتني : دكتور سامرائي ؟ انا مدام ميجل . وفسحت لي الطريق الى داخل بيتها وهي تدعوني اليه بترحيب . وتبعتها وانا اتجنب بحذر كلباً ضخماً من نوع الكلاب الالزاسية كان يضطجع على جنبه ، ولما نهض واقفاً على مؤخرته ، صاحت عليه مدام ميجل تقول : انه ضيفنا يا (جيف) فعاد الكلب يضطجع في مكانه وهو يتابع حركاتي بعينيه اليقظتين . وقادتني المدام الى حجرة في الطابق العلوي من البيت ، وهي حجرة صغيرة ومؤثثة بذوق ولها نافذة وسيعة تطل على البارك الغني بالاشجار العالية وشجرات الزينة والورد بالوان جميلة زاهية ، والى جانب تلك النافذة طاولة صغيرة للكتابة يعلوها رف عليه بعض الكتب عرفت من عناوينها المكتوبة على كعوبها انها كتب مدرسية في المرحلة الجامعية . كما في الغرفة خزانة كان نصفها قد احتوى على ملابس رجالية ، اما النصف الآخر فقد وجدته خالياً من الملابس فحسبته قد ترك لاضع فيه ملابسي .

فملأته بما في حقيبتي من الملابس . ثم ارتميت على السرير المحشور بين طاولة الكتابة وخزانة الملابس ، وسرعان ما نادتني مدام مجل لتناول طعام الغداء . ولما صرت على باب غرفة الطعام نهض لي عن كرسي حول المائدة رجل في نحو الخمسين من عمره قصير القامة ، احمر الشعر ، كث الشارب ، كان هذا هو رب هذا البيت (مستر مجل) . وما كدت آخذ مكاني على كرسي الى جانب هذا الرجل حتى ولج الغرفة شاب في العقد الثالث من عمره ، وعرفت بعد تعارفي معه انه نزيل آخر في هذا البيت ، ويعمل في احدى المؤسسات الامريكية بادنبرة . وصرنا اربعة حول مائدة الغداء . وكان هذا الشاب طلقاً في كلامه وحركاته شان اكثر الشباب الامريكيين . فقال في اثناء تجاذبنا الاحاديث ، من السهل ان يعرف الإنسان الشرقيين من العرب ، ورأيت ملاحظته سانجة لا داعي لها الا وجودي مع هذه العائلة واضاف يقول :

ــ واعتقد ان الذين يستعملون اصابعهم في تناول طعامهم لا يزالون يضربون الكلاب ، او على الاقل يمنعونها من دخول بيوتهم ؟

فقلت له :

ــ إن سكان الريف يربون الكلاب للحراسة ، والرعاة لحماية الاغنام من الذئاب .

فقال الشاب الامريكي .

ــ ليس لهذين الهدفين فقط تربى الكلاب في امريكا انهما موجودان عند العرب بشكل خاص .

وتشعب الحديث حول مائدة الغداء عن العرب ، فقال الامريكي فيما قاله :

ــ يعرف العربي من سمرة بشرته وسواد عينيه والبروز في خلف رأسه .

ورأيت تعريف هذا الامريكي للانسان العربي غير دقيق ، فقلت بنفس الروحية :

ــ ويعرف الامريكي من قص شعر رأسه وجرس نطقه الذي يخرج بعض منه من منخريه .

فقال الامريكي بحماس ملحوظ :

ــ انا ادلك على طريقة لاتخطىء على معرفة الامريكي .

فانصتنا جميعاً اليه فقال باعتداد وجدية :

ــ ان الامريكي على مائدة الطعام يمسك السكين بيده اليمنى والشوكة بيده اليسرى ، فاذا انتهى من تقطيع اللحم الذي في ماعونه وضع السكين على حاشية الصحن ، وامسك الشوكة بيده اليمنى لينقل بها قطع اللحم لقماً الى فمه .

ولم ار في هذا التعريف دقة ، وخصوصاً اذا كان في الصحن من الاطعمة ماليس ما لا يقطع بالسكين ، ولكنني لم اقل ذلك . بل قلت ان كثيراً من العرب ، لافي القرى وحدها بل في المدن ايضاً ، يفضلون تناول طعامهم بايديهم ، اما الموائد التي يعدونها لضيوفهم فتكون عليها انواع الصحون والسكاكين والملاعق بحسب نوع وجبات الطعام التي تقدم على المائدة ، واضفت ان ثلث العالم ياكلون باصابعهم ، وثلث بالأعواد ، والثلث الآخر بالسكاكين والشوك . وفي بغداد نتناول طعامنا بحسب نوعيته فبعضه لا يؤكل إلا بالاصابع ، وبعضه يؤكل بالملاعق ، واضفت : وانتم الا تاكلون الساندويج بايديكم . وسالتني مدام مجل : وكيف تتناولون السلطة بالاصابع ؟ فأجبتها بصراحة :

ــ ان الفقراء الذين لا يملكون السكاكين والشوك لا يملكون ايضاً شراء مكونات السلطة (واردفت) ان تنويع الطعام على الموائد هو الذي اوحى باستعمال السكاكين والشوك ، ولنا في العراق ترتيب خاص في تسلسل تناول اطعمة المائدة ، فناكل الحلوى بعد الطعام ثم ناكل بعدها الفواكه ، وانتم تاكلون البطيخ قبل غيره من اطعمة المائدة ، وتاكلون الجبن ختاماً لوجبة الطعام .

ولما طال سكوتنا قليلاً سألت :
ــ ولا ارى الكلب (جيف) بيننا .
ولم يكن سؤالي موجهاً الى حد ، فاجابتني مدام مجل :
ــ انه عند باب غرفة الطعام من الخارج ، وانه لا يدخل غرفة الطعام إلا اذا طلبنا منه ذلك .
وبعد سكوت لم يطل قالت مدام مجل عن تربية الكلاب وقلة اهتمام العرب بها :
ــ في الحقيقة اني لا استطيع ان اتصور كيف يكون حالي طوال نهار كامل حين لا يكون (جيف) معي في البيت !
وقال مستر مجل :
ــ اكملي ياعزيزتي .
وضحكت مدام مجل وقالت :
ــ و (سامبي) ايضاً ، لااحتمل فراقه عني .
فسألت المدام : ــ سامبى ، كلب آخر ؟
فاجابني مستر مجل :
ــ لا ، انه قنفذ .
وكانت مدام مجل في تلك الدقائق تمرس قطعة خبز بمرق دجاج في ماعون صغير ، فقالت تكلم الشاب الامريكي :
ــ تعال لترى حبيبي سامبي .
واردت ان ارى هذا الحبيب فنهضت معها الى الحديقة ، وبدأت مدام مجل تنادي القنفذ باسمه .
ــ سامبي ، سامبي .
وفجأة تحركت الحشائش ليظهر من بينها قنفذ بخرطوم اسود وبطن منتفخة ، وتقدم باطمئنان من مدام مجل ، وتوقف عند قدمها فوضعت امامه صحن طعامه من المريس الذي إستحضرته ، وبدأت تمر باصبعيها صعوداً وهبوطاً على خرطومه وهو يلعق المريس من الصحن ، ولما انتهى منه مدت مدام مجل اصبعها الى مؤخرته وهي تقول له ، هيا في الامان ، ودب القنفذ في طريقه الى داخل الحشائش واختفى .
ولما عدنا الى غرفة الصالون وقف الكلب (جيف) على بابها ولم يتبعنا الى داخلها ، وبدأت مجل تثني على كلبها وتشرح كيف يحمل زجاجة الحليب عن عتبة البيت بفكيه ليضعها على الطاولة التي في مدخل البيت ، وكيف يفتح فكيه لساعي البريد ليضع الرسائل في فمه فيحملها الى الطاولة بجانب زجاجة الحليب . فقال

الشاب الامريكي : ان قابلية الحيوان على التدريب كبيرة تدعو العجب ، والتفت نحوي يقول :

ــ هل رأيت الخيول الاسبانية في فينا ؟

فقالت المدام قبل ان ارد على سؤاله :

ــ قرأت عنها كثيراً ورأيت لها صوراً وهي ترقص تدعو الى الدهشة !

ــ وعاد الامريكي يسألني :

ــ يقال ان تلك الخيول عربية ، فهل هذا صحيح ؟

فاجبت بتواضع :

ــ يقال ، فاذا صح ذلك فلا غرابة في ذلك فقد عاش العرب زهاء ثمانية قرون في شبه جزيرة ايبريا الاسبانية ، وقد تكون هذه الخيول من نسل خيولهم حين دخلوا تلك الجزيرة . وهي على اي حال تنسب الى إسبانيا (واضفت) ، وكلها بيضاء ، ثم تسائل الشاب الامريكي .

ــ وهل بين لونها وذكائها علاقة ؟ ، فهي ذكية وتبدو حركاتها ارادية لا غريزية ، ومقصودة لا عفوية ، بل تدرك انها ترقص على نغم ، فهي التي تتبع الموسيقى وليس العكس ، وتطرب حين يصفق لها المشاهدون ، ولو حباها الله وجهاً يكتنز فيه لحوم العضلات للتعبير عن مشاعرها كما يفعل الانسان لكان تعبيها بالحبور اي تعبير .

فقلت للشاب الامريكي . ان ثمة علاقة بين ذكاء هذه الحيوانات والوانها ، والخيول البيض نادرة ، وكذلك الجمال البيضاء ، وقد يصح ان تقول ان النادر من ضروب الصنف الواحد من الحيوان والنبات له صفات متميزة وذات قيمة عالية ، والفرس الابيض له هالة تجعله يبدو اكبر حجماً وارشق حركة . وانتبهت الى نفسي انني ارتجلت هذه المعلومات ولو انني قد سمعتها من بعض مربي الخيول في العراق .

ثم قلت نحن ندعو الخيول البيضاء صفراء ، وردّ علي الشاب الامريكي .

ــ ولكنها بيضاء ناصعة .

فقلت :

ــ نعم انها بيضاء ولكننا نسميها صفراء ، لانها تولد بلون قريب من الصفرة وشيئاً فشيئاً مع تدرج عمرها تنزع ثوبها الاصفر لتلبس ثوباً ابيض . ولا تولد الفرس بيضاء قط ، فهذا اللون يكتسب مع العمر ، وسألني الشاب الامريكي :

ــ وماذا تسمون الخيول الصفراء .

ــ ليس هناك خيول بلون اصفر في بلادنا كما نراها عندكم في السينما فعاد الشاب

الامريكي يقول :
ـ اقصد الخيول التي اقرب الى اللون الاصفر ، ماذا تسمونها ؟
ـ نسميها شعلاء .
وعسر علي تفسير هذا اللون .
وسألني :
ـ والخيول الحمراء ؟
ـ نسميها حمراء او رمانية :
ـ والرمادية او الرصاصية ؟
ـ زرقاء .
وسأل الامريكي مدام ميجل .
ـ هل رأيت فرساً عربياً يامدام انها جميلة حقاً ، هي اصغر جرماً ولكنها ارشق من خيولنا وانشط ، وهي ايضاً اسرع منها جرياً ، واذكى .
واردت ان اجعل حديثنا عن الخيول العربية شاملاً فقلت :
ـ هي اسرع من الخيول الاوروبية غير ان مداها في الجري السريع اقصر .
وقال الامريكي .
ـ الخيول في الاصل البعيد امريكية ، وكذلك الجمال ، وقد دخلت اوروبا وآسيا قبل ان تغطس في البحر القارة المفقودة التي تمتد من امريكا الى اوروبا ، وقد تطور شكل الخيول بفعل البيئة . فكانت احسن انواعها هي التي عاشت في الجزيرة العربية ، اما الخيول التي عاشت في آسيا الشرقية فلم يكن لها حظ من الجمال الذي كسبته الخيول العربية ، فكانت متينة العضل قصيرة البدن والرقبة لتستطيع المشي على الاراضي المتعرجة والجبلية .
وطربت لثناء الامريكي على الجياد العربية .
وفجأة علا نباح الكلب (جيف) فقالت مدام هيجل :
ـ هذا هو جون .
وبعد برهة طلع على باب الغرفة (جون) ، وجون هذا شاب رفيع العود طويل القامة ، وفيما عدا ذلك فهو مثل أبيه احمر الشعر وبعينين صغيرتين متقاربتين وكانه يركز بامعان في نظراته . وقامت امه لتقدمه الينا وتقول : هو في الصف المنتهي من الدراسة الجامعية ، يشتغل في ايام العطل بنقل اكياس الصوف من الشاحنات الى ظهور السفينة . وجلس جون على كرسي صغير بلا متكأ ، وتقدم منه الكلب جييف ووضع رأسه بين فخذي جون وجون يمر باصابعه على جبهته ورقبته ، فقالت له امه كفى

يا ولدي تدلّع جييف وقم لتناول غداءك ، بالمناسبة ماذا اعددت لنا ليوم غد ياعزيزي ، فاجابها جون باقتضاب شديد قائلًا : — مفاجاة ، لم يسبق ان استمتعنا بمثلها في اي يوم من أيام الاحد . ولما كان صباح يوم غد الاحد ، نقلت مدام هيجل الى سيارة زوجها الفورد السندويجات التي استحضرتها بسرعة ، وادوات الشاي ، خمسة قنانٍ من البيرة . واخذت مكاني الى جانب مستر هيجل وهو يقود سيارته واحتلت زوجته وابنها جون والامريكي مقعد السيارة الخلفي . وقاد مستر هيجل سيارته بتؤده في طرقات متعرجة على سفح جبل غير عال يطل على بحيرة صغيرة تبعد نحو عشرين ميلًا عن ادنبرة ، وكان الطريق اليها مخضراً رائعاً يشرف بعد ان ينتهي من منخفض تضلله اشجار عالية ، على بحيرة اخرى اوسع من البحيرة الاولى وتحيطها من جانب واحد اشجار عالية هي امتداد لاشجار الطريق الذي انتهينا منه ، اما الجانب الثاني فكان منبسطاً غني **الخضرة** بالاعشاب ، ووراء هذا المنبسط بدا لنا بيتان بسقوف قرميدية ويندفع من احدهما عمود من الدخان الخفيف . وتناهى الينا من بعيد نباح كلب ، وبهرني هذا المنظر فاطريته امام مدام هيجل وقلت :

— هذا منظر خلاب ، اليس كذلك يامدام هيجل ؟

فردت علي بتواضع لا يخلو من التباهي :

— هذا هو الريف الاسكتلندي ، ثم قالت لزوجها فلناخذ غدائنا في هذا المكان ، وشرعت تخرج ما حملته في السيارة من المأكولات والمشروب وادوات الشاي . ومرت قريباً منا عربة يملأ حوضها الخلفي حشيش مايزال بعضه طرياً ، يسحبها حصان واحد ضخم ، احمر اللون وكبير الجمة وهو يضرب بقدميه العملاقتين الارض بقوة وكأنه يدق اوتاداً تحت ضربات حوافره . وتناهى الينا صفير متقطع ولكن بنغم رخيم وصار صوت هذا النغم يرتفع شيئاً فشيئاً حين اطلت علينا من اعالي المنحدر فتاة لم تتجاوز مرحلة الصبا من العمر ، وبيدها عود مورق من اغصان الشجر تضرب به الحشائش من أمامها الى اليمين مرة والى الشمال مرة اخرى ، وكان ينط الى جانبها كلب ابيض مرقط بالسواد من نوع (الديلميشن) فيظهر بين الحشائش الكثيفة حين ينط ويختفي بعد ذلك ثم يعود يظهر الى جانب الفتاة ولما صارت الصبية حذائنا كفت عن الصفير واعارتنا نظرة فاحصة وهي تتباطأ في مشيتها . فسألها مستر هيجل : ما اسم هذه البحيرة يآنسة ؟ فاجابته باقتضاب : لاأعرف ، انها بحيرة !

وعاد مستر هيجل يسألها هل تسكنين في هذه المنطقة ، فاكتفت بمد يدها مشيرة الى البيت الذي يندفع منه الدخان ، وقالت :

— ذلك هو بيتنا ياسيدي .

ثم اشارت الى الرجل الذي يقود العربة وقد ابتعد عنا قليلًا ، وقالت :
ـ وذاك هو جدي .
وكانت بيدي آلة التصوير ، فلما ركزت نظرها الى هذه الالة ، سالتها :
ـ اتسمحين ان اصورك يآآنسة ؟
فاجابتني وهي تبتسم :
ـ مع كلبي (فينو) ان تتفضل .
والتقطت لها صورة مع كلبها وصورة اخرى التقطتها وانا بينها وبين مستر هيجل .
ثم خطر ببالي ان اسالها .
ـ وكيف اعرف عنوانك لابعث بالصورة اليك يآآنسة ؟
فقال مستر هيجل :
ـ هذا ليس صعباً ، انا اوصل الصورة اليها !
وسالته :
ـ وكيف وبيتها ناءٍ عن ادنبرة !
فقال لي بثقة :
ـ نبعث الصورة بداخل مظروف الى اقرب قرية من هذا البيت بعنوان ساعي البريد ، ونطلب منه ان يطلع على الصورة ليوصلها الى الصبية .
وفي اليوم التالي حصل مستر هيجل على اسم اقرب قرية الى بيت هذه الصبية .
وارسل المظروف الى ساعي بريدها.
ياآلهي ماعظم هذا البلد اذا وصلت الصورة بهذه الطريقة الى تلك الصبية !

مع الاستاذ روبرت كلر

في صباح يوم الاثنين ٥/٨/ ١٩٦٥ استقبلني الاستاذ روبرت كلر بترحيب حين دخلت عليه في مكتبه بمستشفى (الانفرمري) بادنبرة ودعاني لاشاركه في تناول الشاي الذي احضرته لتوها احدى ممرضات دائرته . وروبرت كلر حنطي البشرة بسمرة خفيفة وبطول معتدل لا يخلو من النحافة ، وصرنا بعد دقائق نتكلم بانطلاق . وكان يسره الحديث عن الشرق الاوسط . وذكرت له اسماء الاساتذة الذين شاركوا في تاسيس كلية الطب ببغداد بعد الحرب العالمية الأولى والاساتذة الذين التحقوا بالكلية بعد انتهاء الحرب . ولما ذكرت له اسم الميجر روجرز إنتبه الى ذكر اسمه باهتمام

ظاهر، وسالني بلهفة عما كان يعمله في بغداد، وقال:
ــ عملت معه في شمال افريقيا بجيوش (مونت كمري) ثم افترقنا بعد ان طلب الخدمة وراء خطوط القتال باوروبا سنة ١٩٤٥، وجرح (هناك وقطع روبرت كلر حديثه لحظة ليؤشر باصبعه الى صورة مؤطرة كانت معلقة على جدار وراء منضدته وهو يقول) : ــ هذا هو الميجر روجرز بعد ايام النقاهة . وكانت نسخة من هذه الصورة عندي، وقد قدّمها لي روجرز قبيل مغادرته العراق فقلت لروبوت كلر:
ــ عندي نسخة من هذه الصورة، وهي كما اخبرني روجرز بريشة فنان بولوني كان جريحاً الى جانب سريره في المستشفى.
فقال لي روبرت كلر:
ــ هذا سالم اكن اعرفه، وانه لمتع لي ان يكون ذلك في علمي. ثم تحدث معي روبرت كلر عن اعماله في الامراض النسائية بمصر. وايضاً سألته عما اذا كان ذلك على المجندات البريطانيات ام على نساء مصر، فأجابني:
ــ على كليهما:
ثم قال فجأة:
ــ بالمناسبة، غداً صباحاً ستكون لي عملية (فرتايم) على مريضة مصابة بسرطان عنق الرحم.
فشكرته على هذه الالتفاتة اليّ.
وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي صرت ومعي ستة (اشخاص) في مكتب روبرت كلر، وكان هؤلاء مثلي قد جاؤوا الى هذا المستشفى لمشاهدة عملية (فرتايم)، اثنان منهم من الهنود، ومصري واحد بعمر الكهولة، وهو كثير اللغط والتساؤلات، واثنان من شرق آسيا إحداهما شابة ذات ملامح صينية وتتكلم اللغة الانكليزية بما يقرب من الطلاقة، وكان روبرت كلر يوليها التفاتة خاصة لا يحظى بمثلها احد منا، وهو بين الحين والحين يكلمها بلغة غريبة عرفت انها لغة (الملايو)، وسالت هذه الشابة في غفلة من روبرت كلر.
ــ كيف تعلم الاستاذ روبرت كلر هذه اللغة ؟
فاجابتني ببساطة:
ــ انه مولود في سنغافورة، ودراسته الاولى في مدارسها، وكان يومئذٍ بكنف عمه حاكم هذه المدينة.
ثم سالتها:
ــ وكيف هو الاستاذ روبرت كلر في العمليات النسائية ؟

فاجابتني :

ـ ستراه بعد قليل في صالة العمليات .

فقلت لها :

ـ انا اسالك عن رأيك فيه ، وانت معه كما فهمت مما دار بينكما من حديث ولابد قد شاهدت بعضاً من عملياته .

فاجابتني :

ـ انا شاهدت كثيراً من الجراحين النسائيين في عملياتهم ، وقد يكون روبرت كلر من افضلهم (واضافت) اني شاهدت مرة (جارلس ريد) المشهور بامكانياته في الجراحة النسائية ، فلم اره افضل من روبرت كلر ، وهو بالمناسبة استاذ روبرت كلر .

فقلت لها :

ـ رأيت مرة (جارلس ريد) يقوم بعملية رفع الرحم الكلي . وكانت حركاته في هذه العملية منظَّمة وخطواته فيها وكانه يتبع دقائق الساعة . وكان يبدو بطيئاً في تلك العملية غير انه دون ريب كان اسرع جراح رأيته باعتبار الوقت الكلي لاتمام هذه العملية .

وقد روي لي انه كان يدرّب اصابع يديه في الخطوات العملية على مرآة يضعها امامه ؛ على اني لم ادرك كيف كان يفعل ذلك ولم استعلم عن ذلك ممن نقل لي هذا الخبر .

هذا ماقلته لهذه الطبيبة الشابة فقالت لي :

ـ انا لم اسمع ذلك .

وفي صالة العمليات المتواضعة شاهدت روبرت كلر في عملية (فرتايم) . كان بطيء الحركة ولكنه واثق مما يعمله في القطع والشق والخياطة ، غير اني لم اجده افضل من الاستاذ (تاسلّو انطوان) استاذ الطب النسوي في جامعة فينا ، فقد قلع الرحم وملحقاته والانسجة الحوضية بما فيها الغدد اللمفاوية جزءاً جزءاً . بينما تاسلو انطوان اقتلعها جميعاً جملة واحدة .

وعدنا بعد انتهاء روبرت كلر من العملية الى غرفته . وسرعان ما ظهرت على بابها عربة عليها قوارير واكواب الشاي والحليب والفطائر تدفعها فتاة بزي الممرضات ذي القماش الازرق . وكان الى جانبي على الاريكة التي اجلس عليها اقدم مساعدي روبرت كلر واسمه (ميرزكوف) ، فاستحوذ هذا عليّ بتساؤلاته عن بغداد ومافيها مما بقي من آثار العباسيين ، كما الح باسئلته عن كلية الطب ببغداد والطبابة في العراق . وسألني بالتخصيص عن حالات تمزق الرحم اثناء المخاض وعن النواسير المهبلية

التي تعقب الولادة ، وعن حالات الانسمام الحبلي والصرع النفاسي . ولما قلت له ان هذه الحالات المرضية اصبحت تاريخية الى حد كبير بدا عليه كانه في ريبة مما قلته . وكان متوقعاً او غير مستبعد ان يسألني عن هذه الامور ولكنني لم افطن الى انه يزمع ان يزور بغداد .فقد علمت بعد ذلك ان المجلس الثقافي البريطاني قد دعاه الى هذه الزيارة ، وقد علمت ذلك بعد عودتي الى بغداد .

وساعة ودعت روبرت كلر نصحني ان ازور الاستاذ (جون هنتر) .

ـ يجب ان تزوره لتشاهده في صالة العمليات ، فانه تلميذ (فوذركيل) بل هو تاريخ جراحة الرحم والمهبل في بريطانيا .

وزودني روبرت كلر بكتاب توصية الى جون هنتر وانا ممتن منه غاية الامتنان .

مطعم مارتن والبنك الاهلي الاسكوتلندي بادنبرة

وقبل ان اتكلم عن زيارتي للاستاذ جون هنتر فانه من الممتع ان اذكر ما حدث لي في مطعم مارتن قبل يوم من مغادرتي ادنبرة ، فقد اعتدت في ما بين الساعة الواحدة والثانية ظهراً ان اتناول مع بعض اطباء مستشفى (**انفرمري**) غدائي في مطعم باسم (مارتن) يقع في الركن المقابل لمدخل هذا المستشفى ، وفي اليوم الذي سبق سفري الى منجستر ، اكتشفت ان ما في جيبي غير كاف لدفع حساب ما تناولته من طعام ، فطلبت النادل باشارة من يدي وقلت له :

ـ انا اتناول غدائي في هذا المطعم في كل يوم ، فهل تذكر ذلك ؟

فأجابني :

ـ نعم ياسيدي اذكر .

ثم قلته باستحياء :

ـ ليس عندي الآن ما يكفي لدفع الحساب .

فاجابني حالًا :

ـ لابأس ياسيدي ، وانت من زبائن هذا المطعم .

فقلت له :

ـ ليس هذا كل ما اريد قوله ، بل اريد ان تسمح لي دقائق لاسحب من البنك المجاور لهذا المطعم .

فقال لي :

ـ كما ترغب ياسيدي .

وغادرت المطعم اقصد البنك الذي ذكرته ، واخرجت من جيبي دفتر صكوكي امام الشباك الصغير الذي يقف خلفه احد محاسبي البنك ، فلاحظ هذا المحاسب الدفتر الذي فتحته لأملي في احد اوراقه ما اريد سحبه ، فطلب مني ذلك المحاسب ان اتوقف عن املاء الصك ، وهو يقول :

ــ عفوا ياسيدي ان مودوعاتك في بنك (ويست منستر) في لندن ، وهذا البنك الذي نحن فيه الآن لا علاقة له ببنوك انكلترا إذ هو احد فروع بنك اسكوتلندا (ثم سألني قائلًا) :

يبدو انك غريب عن هذا البلد !

فقلت له :

ــ نعم انا غريب عن هذا البلد .

ــ اين تشتغل ؟

ــ في مستشفى الانفرمري مع الاستاذ روبرت كلر .

ــ دقيقة رجاء .

وعاد أليّ بعد اقل من دقيقة ، وطلب مني ان اتبعه الى داخل البنك ، واقتفيت أثره في ممر بين قواطع خشبية تعلوها الواح من الزجاج نصف شفافة ، حتى صرنا امام رجل اشيب في نحو الخمسين من عمره ، فقام هذا الرجل وشرع يشرح لي قائلًا :

ــ ان الصك الذي كتبته لايصرف الا في بنك ويست منستر بفرع (كروم ويل رود) بلندن .

ثم سألني مباشرة :

ــ كم تحتاج الآن :

فاجبته :

ــ خمسون باوناً .

فطلب من الرجل الذي قادني اليه ان يعطيني هذا المبلغ

وعدت الى مكاني الاول عند مدخل البنك ، ومن خلال شباك مدّ الرجل الذي صاحبني يده وبها خمسون باوناً فاخذته من يده ، وانتظرت ليأتيني بورقة اوقع عليها بتسلم هذا المبلغ ، إلا ان هذا الرجل قال لي :

ــ هذا كل شيء .

ــ الا تريد وصلًا مني ؟

ــ ليس الآن ، سنتصل ببنك ويست منستر (كروم يل) ليحولوا لك خمسين باوناً هي التي استلمتها ونخبرك لتأتي للتوقيع على استلامها . فادهشتني معاملة هؤلاء

القوم وإنتمائهم زبائنهم حتى من الغرباء منهم امثالي .

الى منجستر لزيارة الاستاذ جون هنتر

سافرت بالقطار الى منجستر لزيارة الاستاذ (جون هنتر) والسفر بالقطار متعة ، وخصوصاً في وضح النهار حين يمر بالمزارع والغابات وبين البحيرات والقرى . فيستعرض المسافر وهو مرتاح في مجلسه كل ذلك وكانه في صالة عرض سينمائي . كما يعجبني تناول الطعام في مطاعم القاطرات حيث يختصر النادل كثيراً من الشكليات المملة المألوفة في المطاعم التقليدية بالمدن الكبيرة دون مساس بجوهر المتعة على المائدة .

ويعد الطعام في هذه القاطرات على وجبتين الاولى في منتصف الساعة الواحدة ، والثانية في منتصف الساعة الثانية ، فيدخل المسؤول عن تنظيم هاتين الوجبتين الى مقصورات المسافرين ليسجل من يرغب بتناول غداءه في اي من الموعدين المذكورين .

وكان يجاورني على المائدة رجل في الستين او يزيد ، ممتلىء الجسم قابضاً بيمناه على عصا سوداء بمقبض معدني لمّاع قد يكون من الفضة . وقد استقبلني حين جلست الى جواره بابتسامة لم افهم معناها . وكانت عصاه طويلة امتدت الى موضع قدمي ، فسحبها وهو يقول لي مشيراً الى العصى .

ــ انها بالنسبة لي أهم من سيارتي ، فلا استطيع المشي بدونها ، ثم (فجاة سالني) من الشرق .

فاجبته :

ــ من العراق .

فقال وهو يبتسم بمعنى خاص :

ــ او ، ما بين النهرين ، بلاد النفط .

فقلت له :

ــ انا طبيب وكثيراً ما ازور هذا القطر ، واقصد الان زيارة الاستاذ جون هنتر .

وجون هنتر هذا غير جون هنتر الجراح الاسكوتلندي الشهير الذي توفي في اوائل العشرينات من هذا القرن . وساعة قابلت جون هنتر الذي قصدته في منجستر كان قد تجاوز السبعين من عمره ، ولكنه بدا لي اصغر من حقيقة عمره بكثير ، وهو قصير الطول ، وردي البشرة ومنتفخ الاوداج ، وحليق الشارب ، وذو رقبة قصيرة تنوء بثقل رأسه الكبير المكسو بشعر كثيف ، ويتمتع بقوة في التفكير والعمل تثيران الإعجاب . اما

طقم اسنانه التي تصر حين يتكلم فامر مالوف في بلاد الانكليز حتى في الاعمار المبكرة . وكذلك جلوسه على كرسي صغير متحرك حين يغسل ويفرّش يديه استحضاراً لاجراء العملية .

وسالني جون هنتر حين إستقبلني :

ــ من العراق ؟

فاجبته :

ــ من بغداد .

والتفت الى مساعده الاستاذ المشارك (ولتر) يساله :

ــ كان معنا طبيب من العراق ، لاأذكر اسمه الان ، فهل تذكر ذلك ؟

فاجابه (ولتر) .

ــ كان ذلك الزائر من ايران يا سيدي ، لا من العراق .

ولم ينف جون هنتر هذا التصحيح وكانه لم يسمعه ، واستمر يغسل يديه ، ثم التفت نحوي وقال دون مناسبة :

ــ ان امر الاطباء الامريكان لغريب ، فهم يطلبون مقابلتي دون موعد سابق ، ويطلبون مني أن اعمل امامهم عملية (فوذركيل) لترميم المهبل وسقوط الرحم ، ولما اقول لهم انني استاذ فخري ولا اعمل في هذه الجامعة الا يوماً واحداً في الاسبوع ، اسمعهم يقولون لي ببساطة .

ــ ولكننا نغادر منجستر بعد يوم غد . غريب امرهم وكانهم يطلبون مني عرض بضاعة مختزنة لشرائها مني .

وفجاة سالني :

ــ كم ستبقى في منجستر ؟

فاجبته :

ــ حتى اشاهدك تعمل عملية فوذركيل .

فقال لي بارتياح :

ــ هذا حسن وستشاهدني اعملها في الاسبوع القادم في مثل هذا اليوم ، وباستطاعتك ان تزور هذه المستشفى في اي يوم وفي اي وقت . وسالني : هل تعرف النزاع على اسم هذه العملية ، وبدأ يشرح لي قبل ان اجيبه على سؤاله فقال :

ــ كان فوذركيل يرمم سقوط الرحم في مستشفى بمنجستر ، ودونالد استاذ آخر يعملها بالطريقة نفسها في مستشفى آخر بمنجستر ايضاً . وصار كل من اطباء

المستشفين يدعون ان استاذهم هو الاول في اجراء طريقة ترميم سقوط الرحم . وحسماً للنزاع بين من يدعو الى جانب الاستاذ فونركيل ومن يدعو الى جانب الاستاذ دونالد اقترح ان تسمى العملية باسم المدينة (منجستر) . وهكذا حصل الاتفاق غير ان اسم فونركيل ظل هو الطاغي في العملية (واضاف) وأنا تلميذ فونركيل .

معجون ARETUS لتحريض إسقاط الجنين ١٩٦٥

انتشر في مطلع هذه السنة استعمال معجون من صنع انكلترا لاسقاط الاجنة إسمه ARETUS . وهذا الدواء مجهز بانابيب رخوة كأنابيب معجون الاسنان ، ويدفع الى داخل جوف الرحم عن طريق المهبل وعنق الرحم ، فيثير تقلصات رحمية تنتهي في خلال يوم واحد بسقوط الجنين . وصار هذا الدواء يباع دون وصفة في الصيدليات . كما صار الانبوب الواحد يستعمل لاكثر من مريضة واحدة ، وفي ذلك مخاطر تظهر بانواع من الحالات المرضية . فكتبت الى مديرية المستشفى الملكي بما يأتي :

السيد مدير المستشفى الجمهوري

ادخلت في الردهة العاشرة في هذا الشهر ثلاثة حالات اجهاض جنائي مختلطة بالتهابات حادة في الانسجة الحوضية نتيجة لاستعمال معجون (الأرتيس) فارجو ان ترفعوا الى علم وزارة الصحة ملاحظتي على مخاطر استعمال هذا المعجون ، واصدار تعليمات واوامر تحد من استعمال هذا الدواء بوضع ضوابط في استعماله .

مع التقدير

يوم ١٩٦٥/٤/١٢

رئيس قسم الامراض النسائية

الدكتور كمال السامرائي

واستجابت الوزارة الى هذا المقترح وحصرت بيع هذا الدواء في مديرية مخازن وزارة الصحة ، ولاتبيع هذه المخازن الدواء المذكور إلا بتقرير من طبيبين احدهما اختصاص بالامراض النسائية والآخر طبيب اخصائي بالمرض الذي يتوجب به اسقاط الجنين . وهكذا انحصر بيع (الأرتيس) بضعة اشهر ثم ظهر في الصيدليات وبايدي القابلات معجون مماثل لمعجون (الارتيس) باسم UTUS يستورد من ايران الى العراق بطرق غير مشروعة وهكذا عاد الامر كما كان .

تكريم بشهادة فخرية من الكلية الملكية البريطانية ١٠/٢/١٩٦٥

صباح هذا اليوم استلمت من موزع البريد الكتاب الاتي اترجمه عن الانكليزية الى العربية . وهذه صورته ايضاً .

الكلية الملكية
للمولدين والجراحين النسائيين
[صورة درع الكلية]
الرئيسة الفخرية صاحبة الجلالة الملكة الام

الاول من شهر شباط ١٩٦٥

عزيزي الاستاذ سامرائي

من دواعي سروري ان ابلغكم ان مجلس الكلية قد قرر انتخابكم عضواً في الكلية تقديراً لاعمالكم في الامراض الولادية والنسائية متمنين لكم دوام التقدم .

المخلص لكم

هيكتور ماك لينن

الرئيس

ملاحظة ــ نرجو الاجابة فيما اذا وافقتم على قبول هذا التكريم .

والمألوف ان تمنح العضوية في هذه الكلية اولًا ، فاذا أثبت من يحملها كفاءة في اختصاصه تمنح له حينذاك درجة الزمالة ، ومن يحصل على الدرجتين معاً قليلون جداً . فاعدت قراءة تلك الرسالة وصرت افكر في من اثار هذا التكريم في مجلس الكلية الملكية بلندن ، واستذكرت الاساتذة الذين زارو كلية طب بغداد واحداً واحداً ، وكان اولهم كرين ارميتاج . وقد شاهدني يوماً اصنع انبوبي الرحم باستعمال انبوب من مادة البوليثين . هل هو كوردن لنن الذي زار كلية الطب استاذا مشاركا لمدة ثلاثة اشهر في موضوع النسائيات ؟ هل هو الاستاذ نكسون وقد القى محاضرتين لطلاب الصف المنتهي حول استخدام مادة البوليثين والذي زار كلية طب بغداد استاذاً مشاركاً في شعبة الامراض النسائية والتوليد ، ام هو الاستاذ نكسون الذي زار الكلية والقى محاضرة في اغذاء الحوامل على طلبة الصف السادس ؟ ام هو الاستاذ هارولد مالكن

الذي زار العراق في سنة ١٩٦٣ ، ام هو ايان دونالد الذي استزارته كلية طب بغداد وشارك في امتحانات طلابها في السنة الاخيرة بالكلية ؟ وهؤلاء من اكابر الاساتذة الانكليز في الامراض النسائية ، وهم وحدهم الذين زاروا كلية طب بغداد ، وحضروا قاعة المحاضرات في الكلية التي كنت احاضر فيها ، كما دخل بعضهم قاعة العمليات وشاهدوا تصنيع انبوبي الرحم . وتابع مشاهدة هذه العملية من بدايتها حتى الانتهاء منها . الاستاذ هارولد مالكن نائب رئيس الجمعية الملكية للمولدين والجراحين النسائيين فلا يستبعد ان يكون هو الذي رفع مقترح منحي زمالة الكلية . وباية حال اجبت على رسالة الكلية التي ذكرتها آنفاً ببرقية مفادها (انني اتشرف بقبول هذا التكريم) . ووصلتني بعد اسبوعين الشهادة الخطية مكتوبة على ورق سميك ومحلاة بزخارف جانبية كتبت في وسطها هذه التعابير .

الكلية الملكية البريطانية
للاطباء المولدين والجراحين النسائيين

اجتمع مجلس كلية المولدين والجراحين النسائيين وقرروا ادخال كمال السامرائي زميلًا في هذه الكلية

الرئيس سكرتير الكلية

هكتور ماك لنن توماس لويس

التاريخ ١٩٦٥/٥/٣٠

وفي يوم ١٩٦٥/٦/١٧ وصلني الكتاب الآتي من رئاسة جامعة بغداد .

رقم ٦٥٢

تاريخ ١٩٦٥/٦/١٤

الدكتور كمال السامرائي الاستاذ في كلية الطب

الموضوع : تهنئة وتقدير

احيط مجلس الجامعة علماً بمنحكم زمالة الكلية الملكية والجراحين النسائيين في جامعة لندن مع شهادة فخرية FRCO وعليه فقد قرر المجلس بجلسته العاشرة المنعقدة بتاريخ ١٩٦٥/٥/٢٨ توجيه التهنئة والتقدير اليكم لجهودكم الطبية في حقل اختصاصكم مما رفع سمعة جامعة بغداد في الاوساط الجامعية العالمية .

الدكتور عبد العزيز الدوري

رئيس جامعة بغداد

وحين علم اعضاء قسم النسائيات الذي أرأسه بهذا التكريم اخبروني انهم سيقيمون لي حفلاً تكريمياً بهذه المناسبة ، فشكرتهم على اريحيتهم مقدماً غير ان ماحدث يدعو الى الضحك ، فقد نسيت كلياً امر هذه الحفلة وارتبطت في ليلتها بموعد مع احد الاصدقاء . فانتظرني المحتفون اكثر من ساعة واخيراً بعثوا ورائي الزميلين الكريمين الدكتور فؤاد حسن غالي والدكتور اسامة عبد الله وهما اعضاء قسم النسائيات في المستشفى فوجدوني في دار الدكتور مظفر الزهاوي ، فصحبتهم الى محل الحفل بنادي المنصور . وكان من المدعوين الى هذا الحفل وزير الصحة الدكتور شامل السامرائي ، ورئيس جامعة بغداد الدكتور عبد العزيز الدوري وبعض رؤساء الاقسام في المستشفى الجمهوري . وحين صرت بينهم تفتحت قرائح الزملاء بالنكت علي ، واقل ماتندروا به قولهم ان النسيان من صفات الفلاسفة وكبار العلماء ، فنهضت لاسكتهم واقول كلمتي قبل ان يسترسلوا بالنقد على نسياني الموعد الى هذا الحفل فقلت :

(اعزائي الزميلات والزملاء ، اسمحوا لي قبل كل شيء ان اشكر الاخوان الافاضل من غير اعضاء قسم النسائيات الذين تفضلوا بالحضور الى هذه الحفلة الكريمة التي شرفني بها الزملاء . (ثم قلت) انا متأكد ان اعضاء مجلس المولدين والجراحين النسائيين البريطانية قد نسوا الآن اسمي الذي تردد فيما بينهم عند اخذ قرار لمنحي الشهادة الفخرية ، اما الذي لم ينسوه فهو اسم جامعة بغداد التي انتمي اليها) . وقلت غير ذلك بما يناسب المقام . ثم نهضنا جميعاً الى تناول العشاء .

شبح الخطيئة / ١٩٦٦

شابة في نحو مطلع العقد الثالث من العمر ، ناعمة الجسم والبشرة ، ووجهها بيضوي ينتهي بذقن دقيق ، ولها عينان براقتان باستسلام وتطلّع . ولباسها بسيط ولكنه غير رخيص وتتدلى من على رأسها عباءة تنحدر حتى تضرب الارض بينما تكشف فرجتها من امام عما تحتها من ثياب زاهية الالوان بتناسق وذوق . اما زوجها الذي كان معها فكان في العقد الرابع من العمر الا انه يبدو اصغر من ذلك بكثير وقد تزوجها عن حب متبادل بينهما ، ولم ينجبا . فقصدني مع زوجته ينشد علاج حالتها .

وسألت الزوجة :

— هل اجريت لك بعض الفحوص ؟

ولم تجبني هي اما زوجها فدفع امامي ملفاً فيه العديد من اوراق الفحوص المختبرية ، وقرأت من بينها تقريراً يخصه ، فاذا هو عقيم بموجب هذه التقارير ورفعت

رأسي انظر اليه بمعنى .

وأنا حين اجد سبب العقم في الزوج اطلب من الزوجة ان تغادر عيادتي بضع دقائق لاكلم الزوج ، في موضوعها وافعل ذلك لكي لا أطعن في رجولته امام زوجته ، غير ان الزوج اعترض يقول :

ــ لا داعي لخروج زوجتي فكلانا نعرف ان سبب عدم الانجاب فيّ لا في زوجتي ، واريدك بهذه الزيارة ان تفحص زوجتي فقلت له :

ــ ما الفائدة .

ــ لا يادكتور ، اريد ان تفحصها .

وشرعت انظر في اوراقها ، فلم اجد فيها مايدل على العقم ، ومع ذلك قلت له :ــ

ــ ياأخي اذا عرفنا سبب عدم الانجاب في الزوج او الزوجة فلا حاجة ان نفحص الطرف الآخر .

ــ مع ذلك ارجوك ان تفحصها ، اخرج ؟

ــ لا مانع عندي من بقائك الا اذا طلبت زوجتك ذلك .

وفحصت الزوجة فلم اجد فيها سبباً عضوياً او فسلجياً يمكن ان يكون مانعاً للحبل ، وشرحت كل ذلك لزوجها ، فسألني :

ــ طيب ، دكتور كيف تحل هذا الموضوع ؟ (ثم اردف قائلًا) انا ذهبت الى اوروبا واكد لي (الدكتور بويد) انني عاقر وليس لي علاج ، وان زوجتي طبيعية ، ونصحنا نتبنى طفلًا ، فرفضت الفكرة ، وعرض عليّ تلقيح زوجتي اصطناعياً فاستبعدت هذه الفكرة باشمئزاز ، وياليتني عملت بها . فزوجتي الآن تريد طفلًا منها ان استحال ان يكون من كلينا .

والتفت الى زوجته وطلب منها ان تخرج من العيادة بضع دقائق ، وخرجت بحياء وشيء من الكبرياء .

والتفت الزوج نحوي وقال لي وكانه قد تخلص من وثاق القوة .

ــ افهمني يادكتور ، لابد ان اكون صريحاً الآن ، فانا أريد ان تحمل زوجتي باية طريقة تقترحها ، فانا ولهان بزوجتي ولااريد ان افقدها ، واني اتساهل لأرضائها باي ثمن ، وهي ايضاً تريد طفلًا باي ثمن ، واظنك فهمتني ، وختم كلامه :

ــ انا لست وراء الطفل بل هي التي تريده ، ولن تعيش بدونه معي ، وانا اريدها ان تبقى بعصمتي ، باي ثمن وساضطر مع الاسف ان اعود الى الدكتور (بويد) بلندن ليعمل ما يريد ان يعمله لتحمل زوجتي ، وغادر الزوج عيادتي غير راض وفي صدره خزين من اللوم لانني كما ظن ، لم افهمه ، في حين فهمته ، وادركت كل ماحاول ان

يخفيه عني . وبعد نحو ثلاثة اشهر دخلت الى عيادتي الزوجة . ولم يكن زوجها معها وعلى وجهها قناع قاتم من الهم والغم وكل معالم التعب النفسي . وماكدت اسألها عن زوجها ومافعلاه في لندن حتى اجابتني :

ــ لم نسافر الى لندن ، وانا الآن حامل .

فقلت لها وانا استغرب من هذا النبأ :

ــ هذا يسرني .

فقالت :

ــ بل هذا يرعبني حتى الموت ، فقد اختلف الموضوع عندي . واريد ان اسقط هذا الجنين .

وداهمتني موجة من الاستغراب .

وظننت انها اختلفت مع زوجها او شيئاً من هذا القبيل ، فاردت ان اتاكد من ظني نسالتها :

ــ وزوجك ؟ وكنتما معاً تنشدان الحمل باي ثمن ! فما الذي تغيّر لتطلبي مني اسقاط الحمل .

فاجهشت في البكاء بحرقة وقالت :

ــ لقد اخطأت يادكتور مع ابن جارنا ، وكان يلاحقني قبل ان اتزوج ولااتحمل هذه الخطيئة ولا زوجي يستحقها .

ولابد ان اسقط هذا الحمل ، وإلا قتلت نفسي .

وسالتها .

ــ هل يوافق زوجك على اسقاطه ؟

فاجابتني :

ــ لا دخل لزوجي بهذا الموضوع ، وباي حال لا اريده ان يعرف ؛

ــ صارحيه ، وربما يغفر لك على ما لمست انا منه .

ــ هل تعتقد ذلك ؟

ــ اظن ذلك على مالمست منه .

ــ ولكني لاأظنه يتساهل معي في هذه الفعلة الشنيعة ، وقد يغفر لي ، ولكني لاأغفرها لنفسي ، ثم ما هو موقفي وابن الجار على مرأى مني في كل يوم ؟

ــ انتقلو الى محلة اخرى بعيدة عن محلتكم .

ــ البيت ملك زوجي ، واكثر اهله واقربائه يسكنون في محلتنا .

ولما رأيت اصرارها على طلب اسقاط حملها ، قلت لها :

ـ اصارحك انني لا اسقط الحمل لاي سبب ، واسقاط الحمل باي حال جريمة يحاسب عليها القانون العراقي .

فقالت لي ؛

ـ ليس اكثر من جريمتي .

وبدا لي منطقها سليماً غير انه غير قابل للتطبيق . وسكتت لحظات ، ثم نهضت وغادرت عيادتي ، وهي تقول :

ـ اقتل نفسي حتى لو طلب مني زوجي ابقاء الحمل .

ولم تمض سوى بضعة ايام حتى جاءني زوجها ، وقد امتقع وجهه حتى صار بلون الشمع ، واخذني الى بيته بمحلة الفضل لارى زوجته المريضة وهي تهذي من الحمى العالية ، وكانت تنزف دماً ايضاً ولكن قليلاً جداً . فنظرت الى وجهي وكأنها تريد ان تعبّر لي عن انتصارها في التخلص من الحمل ، ولو انها ماتزال في المعركة . وكانت حالتها المرضية سيئة وخطرة .

وتتابعت الشهور والسنين ، ولم يبق في ذاكرتي عنها الا اطراف غائمة تمر بسرعة في بعض المناسبات ، وفي يوم كنت اتمشى امام فندق الكرمة ببحمدون لبنان ، فاذا مريضتي (قبل سنين) والى جانبها زوجها وهو يمسك بيد طفل صغير بعمر لايتجاوز خمس سنوات ، وحياني بتودد واحترام . اما زوجته فقد طفى على وجهها انفعال حزين ، وختمت مقابلتي معهما بتحية سريعة . وتابعت سيرها مبتعدة عني وانا اسأل نفسي : كم يا ترى يحزنها الآن انها باحت لي بسرّها الخطير ، وكم من الحقد في صدره على ذلك الشاب ، وهي تدلل (ابنه ؟) ولاترد له طلباً .

الدكتور كرجي ربيع واهله يهربون الى امريكا ١٩٦٦

هذا من اطباء بغداد المشهورين مابين العقدين الرابع والسادس داخلاً ، تخرج في كلية طب بغداد بدورتها الاولى سنة ١٩٣٣ ، وعين فيها مساعداً للاستاذ محمد رفعت بقسم الفسيولوجي وفي سنة ١٩٤٤ استقال من هذه الوظيفة وتفرغ للممارسة الخاصة في عيادة بشارع الرشيد قبالة البنك المركزي . وفي وقت قصير نسبياً صار له زبائن لا يحصى عددهم بفضل ذكائه ومتابعة مايستجد في الطب في انكلترا وأمريكا . كما كان له حس مرهف في الكسب وجمع الثروة ؛ فصار بفضل مهنته صديقاً لكثير من رجال الدولة بما فيهم الوزراء ورجال الامن فيدخل دوائرهم دون موعد سابق ويحصل منهم على ما يريد بطرق لاتخطر على بال ولا مانع عندي ان اذكر مثلاً على ذلك ، فقد

سالني الدكتور كرجي ذات يوم ونحن نتناول طعام العشاء في حديقتي بمنطقة المسبح :

ـ متى تسافر ؟

وهو يقصد بذلك السفر في ايام الصيف القريبة الى خارج العراق ولم يكن السفر يومئذٍ بالامر السهل بسبب القيود الحكومية التي تتصرف بها دائرة الامن العامة ، فقدمت طلباً للسفر الى بيروت ، فرفض طلبي وساعتها شعرت انني يجب ان اسقط من حياتي الخدمة الطبية التي اديتها لمدير الامن العام العقيد عبد المجيد ولغيره من الناس ، وانني كنت في خيال وتباهٍ على اساس وهمي لا حقيقة فيه فقررت ان لا اسافر في هذا الصيف ، فاجبت الدكتور كرجي حين سالني عن سفري الى خارج العراق : ان مديرية الامن قد رفضت طلبي . وفي اليوم التالي كلمني الدكتور كرجي تلفونياً يقول :

ـ انا الآن بدائرة الاخ العقيد عبد المجيد بمديرية الأمن العامة ، فتعال ومعك جواز السفر ، فاجبته حالا :

ـ شكراً ، ولكنني غيرت رأيي ولا ارغب في السفر .

ولابد ان الدكتور كرجي ادرك انني انزعجت ان يكون سفري بواسطته فزارني ليلًا واخذ مني جواز سفري وفي اليوم التالي جاء الى بيتي شرطي وهو يحمل جواز سفري وفيه سمة الخروج من القطر . وفي مساء اليوم نفسه ايضاً دخل الدكتور كرجي بيتي وهو يضحك وقال :

ـ الموضوع مضحك !

ـ اي موضوع ؟

ـ هل تعرف لماذا ردّ مدير الامن العام طلبك للسفر ؟

ـ لا اعرف .

فاجابني .

ـ قدمت له اضبارة باسم كمال السامرائي وفيها ملخص (ان المومأ اليه باسم كمال السامرائي ، قد سافر الى روسيا بدون جواز سفر وإنه ينتمي الى تكتل شيوعي) ثم قال الدكتور كرجي : لابد ان موظفاً خلط بينك وبين شخص آخر بالاسم نفسه .

فقلت للدكتور كرجي :

ـ عمري ؟ مهنتي ؟ بالاضافة الى اسمي الكامل ؟ جميعها مسجلة في جواز سفري ؟

فقال لي :

ـ هذا ما قرأته بعيني .

واعرف ان الدكتور كرجي صادقاً دون ريب .

ودكتور كرجي فطن وذكي في تعامله مع المرضى والناس بشكل عام ، فاكسبته هاتان الخلتان نجاحاً كاسحاً في ممارسة الطب ، واجتذاب اكبر عدد من المرضى والاصدقاء اليه ، واثرى من مهنته فضلًا عن ارباحه من اسهم الشركات العالمية . على انه مع ذلك لا يتساهل في اخذ اجوره لحد الفلس من اقرب اصدقائه ، وكنت انا من هؤلاء لما كان بيني وبينه ، وبين عائلته وعائلتي من وشائج التوادد ، وتبادل الزيارات والهدايا ، ومع ذلك فقد قام بدور غير مشرّف معي حين شرعنا انا وهو وزميلان بتأسيس مستشفى على عرصة وقفية كنت امتلك مساحتها ، واتفقنا اربعتنا ان يكون اسم المستشفى الجديد (مستشفى السامرائي) ليكون امتداداً للمستشفى الذي امتلكه بالاسم نفسه ، وفي يوم فاجاني احد الزملاء الثلاثة باقتراح ان يطلق على المستشفى الذي ازمعنا تاسيسه اسم (مستشفى بغداد) فعارضت رأيه باصرار اعتماداً على اتفاقنا بتسميته باسمي ، وهو تعويض للارض التي تنازلت عنها لاقامة المستشفى الجديد عليها ، وطال الخلاف بيننا ، فلمست بوضوح ان الدكتور كرجي كان يغذي هذا الخلاف بمعزل عني ، كما كان يحرضني سراً على ان يكون المستشفى باسمي . واخيراً حلّت الشركة ، وعدت الارض من املاكها وبيعت اليّ كما لو انها لم تكن ملكي في الاصل . ، فاخذ الدكتور كرجي نصيبه كاملًا وهو يعلم بيقين انه هو والشريكان الآخران لايستحقون ذلك ، والدكتور كرجي بشكل خاص في علاقته القديمة معي كان اكثرهم قرباً وتوادداً معي ولكنه اغلق هذا الباب فيما بيننا ، وانكر كل جميل صنعته له ، فانتظر بفارغ الصبر لياخذ مني ما أخذه الزميلان الاخران . من جانب آخر انكر للدكتور كرجي حدثاً آخر يدل على حذره الشديد وامانته . فقد نقل ما يقرب من ربع مليون دينار الى كركوك وهي رواتب موظفي شركة النفط هناك ، ولما فتحت الصناديق التي تحتوي على ذلك المبلغ ، كانت قد ابدلت باوراق قطعت بحجم العملة العراقية ورزمت حزماً ، سوى الورقة الاولى من كل حزمة فقد كانت من الدنانير العراقية الحقيقية . وكاد يختفي اثر هذه الجريمة لولا ان إحدى مريضات الدكتور كرجي دخلت يوماً عليه في عيادته كما كانت تراجعه قبل ذلك ، وكانت تحمل (زمبيلًا) فلما اتم الدكتور كرجي فحصها طلبت منه ان تبقى ذلك الزمبيل في ركن من عيادته لتعود وتاخذه بعد نحو ساعة ، غير ان هذه المريضة لم تعد لتاخذ زمبيلها في ذلك اليوم ولا عادت اليه في اليوم الثاني ولا في اليوم الثالث فرأى ان يزيحه من مكانه الى مكان آخر بعيد عن طاولته فاذا هو ثقيل يجلب الاستغراب ، وشدّ ما كانت المفاجاة حين رأى من

بين الثوب الخلق الذي يغطيه اطراف وزوايا دنانير من الفئات الكبيرة ، فاتصل تلفونياً بصديقه (ابي فاتن) مدير الشرطة العام ، وهو من اقارب الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء وحضر ابو فاتن عيادة الدكتور كرجي بسرعة غير اعتيادية ، ولما اطلع على محتويات الزمبيل قال بلهفة المنتصر يخاطب الدكتور كرجي :

ـ نحن وراء هذا المال المسروق يادكتور .

واسرع الدكتور كرجي يقول لابي فاتن .

ـ ان صاحبة هذا الزمبيل من مرضاي ، وانا اعرفها لو انها عرضت امامي .

غير ان ابا فاتن فاجاه قائلاً :

ـ هي الآن موقوفة في دائرة الشرطة منذ ساعة غادرت عيادتك (واضاف) والغريب ان هذه المرأة لاتزال تصر على انها لاتعرف شيئاً عن هذه السرقة ، مع انها تعترف انها زارت عيادتك .

وقوبلت تلك المرأة بالدكتور كرجي فنفت ايضاً انها اودعت زمبيلاً فيه دنانير او اي شيء آخر غير الثوب الذي كان في الزمبيل . وفتش ذلك الثوب فوجد في احد جيوبه رقم تلفون شخص كان يعمل مع زوجها في دائرة المحاسبة بشركة نفط كركوك ، وهكذا افتضح امرها وثبتت الجريمة .

وفي سنة ١٩٦٥ سافر الدكتور كرجي الى امريكا بطريقة مشروعة غير ان سبيلها لم يعرف بعد . اما زوجته راشيل الذكية النشطة فقد بقيت في بغداد ، وكانت دوماً الساعد الايمن له في كل اعماله مع مرضاه وفي علاقاته المالية مع الناس ، وهي بحق ام بيت ، وام اولاد وزوجة صالحة بكل المعاني على انها كزوجها الدكتور كرجي متعصبة بعناد لدولة اسرائيل وجريئة في الدعوة اليها اكثر من زوجها .

وفي صباح يوم ١٩٦٦/٤/٢٩ فاجئتني راشيل واولادها الثلاثة ونحن نتناول فطورنا على سطيحية في مدخل بيتي ، وقالت :

ـ اعجبني اليوم ان اتناول فطوري معكم .

وشاركتنا فطورنا بشهية ومرح ثم نهضت لتقدم لي صحناً من النحاس عليه بعض الكتابات الدينية وقالت تخاطبني :

ـ انت تحب (العنتيكات) وهذا الصحن هدية لك لتتذكر (اختك راشيل) وتقصد بذلك نفسها ، ثم قبلتني وقبلت زوجتي وابنتي وولدي ، واحداً واحداً وغادرت داري وعلى وجهها علائم من التفاعلات التي لم افهمها ، كما اني لم أطل التفكير بها ، ولكنه بدا لي امراً غير مألوف من راشيل ان تزورنا واولادها ، ويتناولون الفطور معنا ثم تقدم لي هدية وتقبلنا واحداً واحداً ، وكل من هذه لم تكن لها سابقة معنا ، وسمعت بعد

بضعة ايام من اخيها (نعيم) انها سافرت الى امريكا لتلتحق بزوجها كرجي هناك ، وفي يوم بعد هذا الخبر وصلتني رسالة بطابع ايراني ، وفتحته وانا استبعد ان يكون لي من يكتب الي من طهران او غيرها من المدن الايرانية ، وفضضت الظرف فاذا فيه خمسة دنانير ورقية عراقية ومكتوب قرأت فيه مايلي :

(الى اخي الدكتور كمال ، انا متاسف جداً ان اقول لك انني سافرت دون ان اخبرك خوفاً من ان (يسمعه) غيرك ، والله وحده يعلم الذي قاسيته من الخوف في الليل بين (بدرة) وايران ، واخذتني الشرطة مخفورة الى همدان وبعد يومين سآخذ الطائرة الى امريكا ... ارجوك ياأخي . في هذا المكتوب خمسة دنانير تعطيها الى الخبازة (عطية) وهي في الصريفة التي وراء بيتنا ، وهي قيمة العباءة التي استعرتها منها لازور الكاظم (حجة) . لا تنسى ارجوك ... التوقيع ام سمير وسمير اكبر اولاد راشيل وتعرف باسمه كما يعرف كرجي باسمه ايضا .

الدكتور ميرزا كتنجيان يسقط ميتاً في قاعة المحكمة / ١٩٦٦

في يوم ١٩٦٦/١١/٢٤ وصلني كتاب من محكمة جزاء بغداد بتوقيع (الحاكم) شفيق العاني يطلب فيه ان احضر الى ديوان المحكمة لأدلي بشهادة طبية ، وحضرت ديوان المحكمة في الوقت المحدد .

وقبل ان ادخل قاعة المحكمة استعلمت من دائرة المحكمة عن القضية التي طلبت من اجلها فعلمت انها (قضية دكتور اسمه ميرزا ارتكب عملية اجهاض جنائي لفتاة ادى الى وفاتها ، وستكون انت الشاهد العدل ، ولما سألته ماذا تقصد بالشاهد العدل ، اجابني : ان الدكتور (ميرزا) حكم بالقضية نفسها بعقوبة سجن ثلاث سنين وقد استأنف الحكم وستكون شهادتك المعتمدة والاخيرة .

وكنت يوماً ماعرفت الحاكم شفيق العاني في قضية مماثلة في منتصف سني الاربعينات .

وسمعت من ينادي باسمي فتوجهت الى قاعة المحكمة ، ولم تكن هذه القاعة هي نفسها التي دخلتها في القضية السابقة التي ذكرتها ، آنفاً إذ كانت اكبر حجماً وافخم اثاثاً . واوقفني احد موظفي المحكمة الى جانب (قفص الاتهام) الذي كان في داخله رجل بنحو الستين من عمره . وكان ذلك الرجل هو الدكتور ميرزا وكنت اسمع عنه كطبيب نسائي غير اني لم اره قبلًا ، وقد ورد اسمه في المحكمة ميرزا كنتجيان وبادرني الحاكم يقول لي :

ـ دكتور كمال انت ستكون الشاهد العدل .

ثم انصرف باسئلة مباشرة تخص العملية التي ادت الى وفاة الفتاة ، وكنت سمعت عما جرى لهذه الفتاة ، ومثل ذلك لا يخفى على اطباء المستشفى الجمهوري إذ ان الدكتور سلمان فائق كان قد ساعد في اسعاف المريضة ، وعرف الاطباء منه (ان فتاة كانت تعمل سكرتيرة في مكتب محام مرموق ،. وادركت هذه الفتاة يوماً انها حامل فارشدها مخدومها الى الدكتور فافرغ رحمها في عيادته بعملية (الكرتاج) فثقب خطأ جدار الرحم ، ودون ان يفطن صار يسحب بآلاته لفة من امعاء هذه الضحية ، وبعد ثلاثة ايام حين دبّت الغانفرينا في الامعاء اضطر الدكتور أميرزا الى ان يستنجد بالدكتور سلمان فائق فاجرى عليها عملية قطع بها الامعاء التي تعفنت ، وبعد ثلاثة ايام توفيت هذه المريضة ، فرفع اهلها شكواهم الى القضاء ، فحكم على الجاني الدكتور (اميرزا) بالسجن ، وميّز محاميه فايق توفيق الحكم فاعيدت محاكمته التي صرت انا فيها الشاهد العدل . وكانت اسئلة الحاكم هادفة وموضوعية غير ان المتهم الدكتور (اميرزا) صار يهذي باجابات بلغة خليط من التركية والعربية وحاول محاميه فائق توفيق ان يسكته ليتكلم عوضاً عنه ، غير انه بسبب طرش خفيف فيه استمر يتكلم بعصبية ، وفي لحظة خاطفة سقط الدكتور اميرزا على ارض القاعة جثة هامدة .

وانتشر خبر هذا الحادث وتناولته الصحف باسهاب اما مجلة (الفكاهة) البغدادية تاريخ ١٩٦٦/٩/١٠ عدد ٤ فقد عبّرت عن الحادث بصورة زينت بها غلاف المجلة ، وكتبت في اعلاه عبارة (العدل اساس الملك) ، ثم تحتها صورة شاملة لقاعة المحكمة وعلى منصتها صورة (ميزان العدل) ، ويملأ مابقي من الصفحة (صورتي) وفي فمي عقب سيكارة وانا ادفع عربة بداخلها طفل يمص اللبن من زجاجة الى جانبه وبيده لعبة صغيرة . ثم صورتي احمل بيدي سلة فيها رضيع آخر ، ورضيعين على كتفيّ ، وتحت هذه الصورة عبارة كتبت بالبنط الكبير : الدكتور كمال السامرائي في قاعة المحكمة ، وهذا اسلوب صحفي لدفع من يقع نظره على هذا العنوان ان يشتري الجريدة ليقرأ تفاصيل مصيبتي المموهة .

إيان دونالد

الاستاذ إيان دونالد هو اللولب النابض في ادارة هذا المؤتمر ، هو استاذ الامراض النسائية والتوليد بجامعة كلاسكو ، ومن الذين زاروا بغداد ايام امتحانات طلبة كلية الطب في صيف ١٩٦٤ ، طويل القامة ، احمر الشعر ، سريع الحركة ، دؤوب لا يكل ولا يمل ، وله مشاركات قيمة في تطوير جهاز (السنونار) في استعماله للحالات

المرضية النسائية . كما ان له كتاباً ضخماً في معالجة مشكال الحالات الولادية . طبع ثلاث مرات في مدة لاتتجاوز عشر سنوات ، وهو ايضاً يشد السامعين اليه .

وحين جاء الى بغداد بدعوة مني ليطلع على ماوصلنا اليه في موضوع الامراض النسائية والتوليد كان قد نقه لتوه من عملية اجريت لقلبه . وقد عرفت منه ان عمه كان قد خضع ايضاً لعملية مماثلة على يد جراح القلب المشهور كليلاند . وقلت له مستفهماً ، لابد ان كليلاند قد اجرى لك العملية ، فاجابني :

ــ كلا ، ان العملية خطرة ، فقد نجح كليلاند في عمليتين على افراد عائلتي ، واخشى ان يفشل ان اجري العملية عليّ فافقد حياتي والوث سمعته .

وسألته :

ــ من اجراها لك إذن ؟

فاجابني :

ــ احد معاوني كليلاند ، وهو جراح ناجح واتوقع له مستقبلاً باهراً في هذا الاختصاص (واضاف وهو يبتسم) وخصوصاً بعد ان نجح في العملية التي نفذها علي .

وفي اليوم التالي من **مؤتمر الجمعية** البريطانية للامراض الولادية والنسائية ، كان الاستاذ (فانتل) اول المتكلمين في جلسة الصباح ، وهو الماني الجنسية واستاذ هذا الموضوع في جامعة كراس بالنمسا ، وقد قدرت عمره بنحو الستين سنة ، وردي السحنة ، منتفخ الاوداج . وبطول معتدل ، وكان موضوع محاضرته في استئصال الرحم عن طريق المهبل في حالة الاصابة بمرض خبيث ، وتعرف هذه العملية باسم اول من مارسها واسمه (شاوته) حين كان استاذاً في جامعة فينا والجراح النسائي الاول في (فراون كلنك نمير) . وقد قرأ ورقة محاضرته بالانكليزية ، ومع ذلك كانت مفهومة بالرغم من لهجته الالمانية ، ثم عرض فلماً ملوناً حسن الصنع لهذه العملية فكان مثار اعجاب المشاهدين وتعجبهم من القدر الكبير الذي اقتطعه من انسجة المهبل والعجان ليصل الى الانسجة التي تحيط الحالبين ، فكان من ذلك جرح واسع وعميق لاتستسيغه العين ..

وتلا فانتل الاستاذ المشارك في جامعة دبلن واسمه (براون) وهو في نهاية العقد الخامس كما قدرت عمره ، تركي الملامح ، ذو رأس كبير مدوّر زاخر بشعر داكن كثيف ، وبعينين سوداوين وجسم ممتلىء ، كانت محاضرته في الولادة العسرة وطرق معالجة كل نوع منها ، وقد تكلم اكثر مما قرأ في ورقته ، واستعان بكثرة في عرض اعماله في هذه الحالات ببيانات وارقام إحصائية نقلها على شاشة تتصدر قاعة الاجتماع ،

وكان نطقه جلياً واستعراضاته لها استقرائية ،، اما المادة العلمية فاكثر ما كانت للمبتدئين في هذا الإختصاص سوى طريقة علاجه لبعض الولادات المتعسرة التي تمارس في دبلن ، وهذه وحدها هي التي جعلتني انشد الى الاستماع اليه بكليتي ، وقلت لنفسي هذا هو الذي نحتاجه لطلابنا في بغداد ، وقررت حالًا ان افاتحه بهذا الموضوع ، وظللت ارقبه بلا انفكاك ، وبعد ان اكمل محاضرته انشغل في حديث متواصل مع احد المؤتمرين الاكبر منه عمراً ، وطال انتظاري لاتحدث اليه منفرداً ، وسنحت الفرصة ، فقد تقدم شخص اليه من خلفه وكلم الشخص الذي كان يتحدث الى براون ، فنهض هذا الشخص وخلا مكانه ، فنهضت متعجلًا وجلست في مكانه الى جانب براون ، وهذا ما انتظره بنفاد صبر ، ودون مقدمة قلت له :

ــ انا من بغداد وقد استمعت الى محاضرتك واعجبت باسلوبك في عرضك ، وانا سعيد ان اجالسك الآن .

فقال باهتمام :

ــ يسرني سماع ذلك (واضاف) هي نموذج لاعمالنا في دبلن وليس اكثر من ذلك ، وطرق العمل في التوليد بارلندا واحدة تعرف باسم (دبلن) .

فقلت له :

ــ هي قريبة مما نمارسه في بغداد ، ولكني معجب باسلوب عرضها .

فقال :

ــ اسمع عن بغداد واتشوق لرؤيتها ، والشرق كله جذاب بالنسبة الينا ، ولابد ان يكون فيه ما يدعو الى ذلك . (واستطرد يقول) عرفت بعضاً من العراقيين والعراقيات كطلاب معي في (مستشفى روتندا) ، كان ذلك قبل سنوات بعيدة (وسالني مباشرة) .

الم يحاول احد منهم نقل بعض عمليات دبلن الى بغداد ؟

فاكتفيت بقولي :

ــ كان استاذي (كندي) يمارس بعضاً منها في بغداد ، ولم تمارس اي منها منذ غادرها سنة ١٩٣٨ .

وسالني :

ــ وانت كيف ترى مثلًا عملية قطع عظم العانة او مفصلها التي نمارسها في دبلن ؟

فاجبته بصراحة .

ــ لم تجتذبني هذه العملية .

ووجدت الفرصة سانحة لاقترح عليه فكرة استقدامه الى كلية الطب ببغداد بعقد أستاذاً زائراً لمدة سنة او سنتين .

فاجابني :

ـ حبذا لو يكون نلك بمقدوري ، واني متحمّس لارى الشرق وبخاصة بغداد (الف ليلة وليلة) ، غير اني الان مرشّح لكرسي الاستاذية بجامعة دبلن ، ولابد للحصول عليها من عمل كتابي مختار يؤهلني اليها ، وانا اعكف الان على تحقيق هذا الشرط العلمي .

وقطع حديثه معي ونهض ليستقبل باحترام السردوكالد بيرد ، وعرض براون امامه ماكنا نتحدث به عن استقدامه الى كلية طب بغداد ، فاصغى اليه سردوكالد بيرد دون تعليق ، فسأله براون عن رايه في هذه الدعوة ، وفي سؤاله هذا ماجعلني اعتقد احتمال قبوله مقترحي ، فاجابه دوكالد بيرد :

ـ بغداد ممتعة بتاريخها ، اما اليوم فيكفي ان تراها قبل ان تنخرط في التطور . وهي اليوم باية حال ليست بغداد التي قرأت عنها في كتب الرحلات .

ولم ارتح الى ماقاله صديقي دوكالد بيرد ، خاصة وانه حين كان في بغداد قبل عام قد اثنى على ما رآه فيها وانه يحتاج لمعرفة المزيد منها زيارة ثانية وثالثة . واردت ان اقول له نلك ولكني رأيت نلك لا يناسب الموقف والنوق الاجتماعي . وانفرط عقدنا نحن الثلاثة ، وانا ساخط على صديقي سردوكالد بيرد الذي كان جوابه لبراون كافياً لاحباط اي امل في استقدامه استاذاً زائراً الى بغداد .

وفي اليوم التالي غادرت منجستر الى لندن لتحملني طائرة الخطوط الجوية العراقية الى بيروت .

السعوديون والكويتيون ١٠/٨/١٩٦٦.

في ركن من سطيحية فندق الكرمة ببحمدون (لبنان) ، اعتدت ان اشاهد في ضحى كل يوم شيخاً بنحو السبعين من العمر يحتل كرسياً وثيراً ومن حوله يتحلق عدد من الرجال . وكان نلك الشيخ ومن يجالسونه يرتدون اليشماغ الاحمر والعقال ، وهذا هو زي السعوديين المتميز ، ويتكلمون بلهجتهم . والى جانب من هذه الحلقة موقد متنقل صغير يتاجج بلظى الفحم وعلى حاشيته دلّة القهوة . والقهوة السعودية المهيّلة ذات رائحة يصل عبقها الى انفي حين أمر بهذه الحلقة فاتمنى ان يدعوني نلك الشيخ لارتشاف قدح منها ، غير انه لم يفعل نلك بالرغم من انني كثيراً ما اتظاهر برغبتي فيها وفي يوم تزاحمت ونلك الشيخ على دخول مصعد الفندق ليحملني الى الطابق

الذي فيه غرفتي ، فركّز ذلك الشيخ نظراته اليّ حين صار كلانا في داخل المصعد وسألني :

ـ الأخ الكريم العراقي ؟

وكان اكثر الساكنين في الفندق في ذلك الصيف كما في اي صيف ، من العراقيين ، فلا عجب ان يعرف جنسيتي حدساً ، فاجبته :

ـ نعم عراقي ، من بغداد واسمي كمال السامرائي ، دكتور في الطب .

ـ انعم واكرم .

ثم ابتسم واضاف :

ـ انا من السعودية ، انا عبدالله الحميد من السعودية .

ـ عرفت انك من السعودية .

وعاد الشيخ يقول :

ـ انا فتحت اول سفارة سعودية في العراق ، ولي معرفة واسعة بالعراق وبالعراقيين . كنت اول سفير في العراق .

وهكذا تعرفت على ذلك الشيخ الوقور بسرعة ويسر واختصار .

وفي ضحى اليوم التالي دعاني الشيخ على احتساء قهوته الغنية المذاق والرائحة ، مع انها خفيفة اللون حتى لكأنها اي مشروب إلا القهوة التي نشربها في العراق مركزة المذاق وداكنة اللون . وتكررت دعوته لي لارتشاف قهوته ، وصرنا نتبادل الكلام بتبسط وصراحة . وفي يوم تقدمت من خلفه صبية ذات عينين سوداويين وسحنة سمراء وصدر ناهد وخصر نحيل ، واسرت في اذنه ما اسرت ، فابتسم لها وادخل يده في جيب ثوبه واخرج منه حزمة من الليرات اللبنانية فاخذتها من يده وغادرته وهي تنط فرحة بضع خطوات متلاحقة وغابت في منعطف السطيحية . ومرت لحظات وكأنه قرأ فيها افكاري فشاء ان يصلحها فقال لي :

ـ هذه إبنتي يادكتور واسمها (زليخة) وهي من زوجتي الايرانية .

كانت تلك الصبية بعمر لايزيد على العشرين سنة بتقديري ، وابوها الشيخ ليس اقل من السبعين ، اي انه لابد تزوج وهو بعمر الخمسين . وجاء تفسير ذلك حالًا ، فقال لي :

ـ توفيت زوجتي في بغداد ، وحين نقلت سفيراً الى طهران كنت ارملًا ، وتعرفت على عائلة ارتضت ان اتزوج ابنتها ، ولما احلت على المعاش مكثت في طهران زهاء سنتين استرضاء لزوجتي . ثم رأيت ان اعود الى جدّة مسقط رأسي ، فخيرتها بين عدم اداء واجباتي الزواجية نحوها ، وهي مازالت فتية ، وبين طلاقها حلالًا بغيضاً شريطة ان

استبقي ابنتنا معي ففضلت الطلاق وكرست اهتمامي من ذلك اليوم في تثقيف ابنتي ورعايتها ، وقد عوضت لي مافاتني من السعادة البيتية .

وكان يومها ثمة شاب يتردد على فندق الكرمة بتكرار ، وهو يرتدي البسة غالية الثمن ويحلي معصمه بساعة تيدو من الذهب ، ويربط اكمام ثوبه الحريري بازرار من الذهب . وشاع بين نزلاء الفندق ان ذلك الشاب تقدّم لخطبة الفتية السعودية زليخة ، فتجاسرت وقلت للشيخ الحميدي :

ــ شاع بين نزلاء الفندق ان شاباً كويتياً تقدم لخطبة كريمتكم يا شيخ ، والطيبون للطيبات وعسى ان يكون في ذلك خيراً للطرفين .

فاجابني بعد لحظات :

ــ نعم ان ذلك الشاب الذي يتردد على هذا الفندق قد تقدم لخطبة ابنتي زليخة ، ولما عرفت انه من الكويت قلت لابنتي ، ان انت اودعت الامر لي فانا افضل ان لاتقبلي هذا الشاب زوجاً لك ، فأهل الكويت في نظرنا نحن السعوديين لهم طبائع لاتعجبنا اما اذا انت ارتضيت به زوجاً فلا مانع لدي على ان تعلمي انني لن اقابله بعد الزواج .

وسكت الشيخ .

فسألته :

ــ وماذا كان جوابها ياعمي الشيخ ؟.

فقال : كان جوابها :ــ

ــ لن اتزوج ياابي من هو ادنى مني اخلاقاً واصلًا ، وارجوا ان ترده اذا جاءك لخطبتي .

الدكتورة عالية او ينهايم / ١٩٦٦

في اوائل تشرين الاول تقدمت سيدة المانية بعمر الثلاثين سنة إسمها (بحسب الاوراق التي تحملها) عالية اوينهايم تطلب العمل كممرضة في مستشفى السامرائي ، وعرضت امامي شهادتها في الطب من جامعة درزدن ، فلما قلت لها :

ــ ولكنك دكتورة فكيف تطلبين وظيفة ممرضة ؟

فاجابتني بانكليزية ليست ركيكة .

ــ انا اهوى التمريض .

كانت في لهجتها نبرة المانية ، ولولا نحولها لعددتها المانية مثالية ؛ شعر ذهبي اللون سرح ، بشرة وردية ناعمة ، قامة معتدلة .

قلت لها :

ـ ان الاسم (عالية) اسلامي !

فاجابتني بافتخار :

ـ انا مسلمة ، وابواي مسلمان .

وبعد اسبوع وهي تعمل في المستشفى ساورني القلق في امرها ، إذ لم أرها تعرف شيئاً من الامراض ومداواتها ، ولا من التمريض ايضاً ، غير انها ذات همة ونشاط في مداراة المرضى في فراشهم ، وفي إعطائهم الادوية باوقاتها ، ومعلوماتها بالتمريض ليست إلا بمستوى ما تعرفه اية إمرأة اوروبية . وعرضت شكوكي في حقيقة امرها على الدكتور (عبد الله العنيزي) بوصفه المسؤول عن العاملين في مستشفى السامرائي ، فقال لي باختصار .

ـ نراقبها إسبوعاً آخر .

وعدنا سوية نقرأ اوراقها وشهادتها التي احتفظنا بها في ملفها الخاص ولم يمض الا يومان من الاسبوع الثاني حتى سقطت في كريدور المستشفى مغمياً عليها ، فنقلت الى غرفة الفحص لإسعافها ومعرفة سبب ماحدث لها . كان لون سحنتها باهتاً ، ونبضها سريعاً وضعيفاً ، وضغط دمها بحدود ٨٠/ ٦٠ ملغم . وتلمست بطنها فاذا هي حسّاسة في منطقة على يمين العانة وقريبة منها ، وسألتها عن العادة الشهرية فاجابتني انها (في العادة) منذ يومين ولكن بكمية قليلة واكتشفت بالقرع على اسفل بطنها وجود امتلاء في جوف الحوض البطني يعلوه المعي المنفوخ ، وسألتها ان كانت متزوجة لافحصها عن طريق المهبل ، فاجابتني انها ارملة ، فلمست بالفحص المهبلي ـ البطني كتلة غير صلبة حساسة على الجانب الايسر من البطن السفلي ، وهكذا اصبح تشخيص حبل خارج الرحم لايقبل النقض ، فاخبرتها صراحة بهذه الحقيقة ، وان علاجها الوحيد هو بعملية فتح البطن ، فقطبت مابين حاجبيها وسهمت قليلاً ثم طلبت مني ان اتصل بـ (...) وهو رجل اعمال معروف في بغداد ، ووكيل شركات امريكية كثيرة . وتساءلت مع نفسي ماعسى ان يكون نوع العلاقة بينها وبين ذلك الرجل . ومع ذلك خابرته تلفونياً وقلت له :

ـ ان الممرضة (عالية) في طريقها الى صالة العمليات ، وقد طلبت مني ان اخبرك بذلك .

وبعد صمت قصير لم اسمع منه اكثر من قوله :

ـ اهتم بامرها رجاء .

وإستحضرنا قدراً من الدم الملائم لفصيلة دمها لتعويض الدم الذي تجمع في جوفي بطنها وحوضها . وأكدت العملية التشخيص .

زار (....) المريضة عالية اوپنهايم في اليوم الثاني ثم دخل غرفة محاسب المستشفى لدفع اجور المستشفى .

وحين زرت هذه المريضة في غرفتها بالمستشفى عاد الدكتور عبدالله يكلمني عنها .

ــ انها لايمكن ان تكون طبيبة ولا ممرضة ايضاً ، اما ورقة الشهادة فتزوير دون شك ، وما ابرع من صنع هذا التزوير ووصلنا الى قناعة ان هذه المرأة مغامرة وليس فيما إدعته اي صدق ، ويحتمل انها ادعت ذلك عملًا بنصيحة من السيد (.....)لتتخذه ذريعة امام دوائر الأمن اذا ما ارادوا اخراجها من العراق بعد الاقامة المحددة التي تمنحها تلك الدوائر . كما قررنا بسبب تحايل هذه المحتالة ان لانخصها باي تخفيض في اجور المستشفى التي اعتدنا ان نمنحها الى منتسبي المستشفى ومن ينتمي الى مهنة الطب من المرضى .

وفي اليوم التالي فاجاني (.....) تلفونياً وبلهجة لم ارتح لها ، قائلًا :

ــ قرأت قائمة اجور المستشفى التي بعث بها (محاسبكم) اليّ ، شنو نقل دم ، وشنو عملية فتح بطن عالية لم تكن تشكو من نزف دموي ، واذاكانت تشكو من ذلك فيمكن معالجتها بالادوية (وانهى كلامه بقوله) انا لادفع الا إجور إقامتها في المستشفى ، لانكم اجريتم العملية بلا مبرر .

اذهلني إدعاء (.....) واستشطت له ، فقلت له :

ــ اسمعني يا أخي ، فان العملية كانت (لحمل خارج الرحم) وسميناها عملية فتح بطن تادباً وتستراً على اخلاق المريضة . ويحتمل ان يكون حملها منك ، كما يحتمل انك تدبر لها إطالة بقاءها في العراق ، ودوائر الشرطة لا يفوتها هذا التحايل .

وسمعت (.....) يقول :

ــ على كيفك حبيبي كمال .

ولم اطل إستماعي اليه واغلقت الاتصال .

وبعد اقل من ساعة جاء (....) بنفسه ودفع حساب المستشفى وبعد نحوَ اسبوعين وصلني كتاب من الشرطة تستفهم فيما اذا كانت المدعوة عالية اوپنهايم قد اجريت عليها عملية كبرى وانها لاتستطيع السفر بالطائرة الى خارج العراق ؟ وهنا إتضح لنا الامر . وجاءني في اليوم نفسه (.....) يتوسل بذلّة ان يكون جوابي الى الشرطة لصالحها . وفعلت مايجب عمله ، فنياً وسلوكياً ولم استجب لطلب صديقها (....).

مقترحات لتطوير قسم النسائيات بالمستشفى الجمهوري ١٩٦٦

في ١٩٦٦/١١/٦ رفعت الى مديرية المستشفى التعليمي الجمهوري الكتاب الآتي :

السيد مدير المستشفى الجمهوري التعليمي

بمناسبة بدء السنة الدراسية ارفع اليكم بعض ملاحظاتي عن دائرة الامراض النسائية والتوليد في المستشفى الجمهوري ، ارجو الالتفات اليها فقد تكون في بعضها فائدة للمرضى وطلاب الكلية الطبية .

ان هذه الشعبة اشد شعب المستشفى كثرة بالاعمال الطبية ، وهي تكاد تعادل وحدتي الجراحة الاولى والثانية ، او اربعة وحدات باطنية وللتدليل على هذه المقارنة اذكر ان معدل عدد العمليات التي تنجز في هذه الشعبة اكثر من اثنتي عشرة في اليوم الواحد ، ومعدل بقاء المرضى في ردهات هذه الشعبة ثمانية عشر ساعة فقط ، وذلك لكثرة المريضات اللاتي يحتجن الى المعالجة في الردهة ، بينما هو في اي ردهة اخرى ثلاثة ايام على الاقل . كما ان هذه الشعبة في حالة انتظار دائم وعلى طول ايام الشهر والمريضة التي تدخلها تحتاج على الاكثر الى علاج جراحي لادوائي . واكثر من كل ما تقدم فان هذه الشعبة تستقبل المريضات من كل اطراف العراق ، والمريضة من الاطراف النائية تستطيع ان تجد العلاج في المستشفى الموجود في منطقتها او قريباً منها ، غير ان اطباء تلك الاطراف وكذلك مستشفياتها بالرغم مما لديهم من الامكانيات الطبية ، فانهم يحيلون المرضى الى هذه الشعبة ، وقد حاولنا طرقاً كثيرة لايقاف ذلك فلم نفلح . وفي ذيل هذه المذكرة نموذجين منها .

ان الضغط على هذه الشعبة من كثرة المراجعات اليها وازدحام الاعمال فيها ، وضيق المكان لقبولهن يعرض الاطباء والطبيبات المسؤولات الى الاهمال والاخطاء مما يدفع المواطنين الى التشكي والتذمر ، ومع انني اعتقد ان دوافع اكثر ذلك شكليات يمكن تفاديها من قبل المريضة نفسها فان نقاط الضعف في هذه الشعبة التي تتخذ من خلالها دواعي التشكي من الاغلاط العلمية يمكن معالجتها اذا التفتنا الى تحسين مستوى التمريض والقبالة والى وضع مخطط ثابت لتدريب الاطباء المقيمين وتخريجهم في هذا الاختصاص .

وموضوع الاطباء المقيمين ذو اهمية كبرى ويجب دراسته بجدية ومجرداً عن الانظمة والقوانين الراهنة . فان ثمانين بالمائة من اعمال المستشفى هي في الحقيقة من اعمال الاطباء المقيمين ، وخصوصاً بعد اوقات الدوام واعمال هذه الفئة على بساطتها واوليتها في الطب انما هي من الكثرة والاهمية بحيث لايستطيع اي طبيب

حتى ذو الاختصاص العالي ان يتم اعماله دون مساعدة الاطباء المقيمين ، وهذه بديهية لا تحتاج الى برهان وفن التوليد بصورة خاصة من اكبر المواضيع الطبية التي يعتمد نجاحها على عدد وكفاءة الاطباء المقيمين ، والارتجال في تعيين هؤلاء من حيث النشاط والكفاءة عامل مهم في مايحدث من الاخطاء والاهمال الذي يشكو منه المواطنون . ويحزنني ان اسجل هنا ان هذه الشعبة لم تتوفق الى التدريب الصحيح لتخريج مولدين اكفاء واول اسباب هذا الفشل هو عدم ابقاء طبيب مدة كافية في هذه الشعبة ليتدرب على اعمالها المختلفة من حيث التشخيص والعلاج .

اما عن القوابل فموضوعهن يتعدى حيز الشعبة ، إذ ان ارتباطهن بهذه الشعبة ارتباطاً مباشر ، واغلبية الحالات الولادية تحول الينا من قبل القابلات ، واكثرهن جاهلات ومعلوماتهن في التوليد ضئيلة وخاطئة في كثير من الحالات ، ولذلك نقترح فتح دورات تدريبية لعموم قوابل العاصمة (كبداية) حتى المأذونات منهن ، ويكون قوام الدورة عدداً قليلاً من القوابل ولمدة لاتقل عن ستة اشهر ، بتناوب على اعمال النهار والليل .

ونقترح ايضاً استحداث مركز لرعاية الامومة في هذا المستشفى يرتبط بشعبة الولادة وبادارة كادرها التعليمي كجزء من التدريب في هذا الاختصاص .

والخص فيما يلي مقترحاتنا لاصلاح العمل في هذه الشعبة .

(١) ترأس هيئة التمريض ممرضة ذات خبرة بالادارة ويفضل ان تكون بريطانية الى وقت ما .

(٢) تزويدنا باربعة قوابل لاعمال النهار وقابلتين لاعمال الليل .

(٣) فتح عيادة خارجية لرعاية الامومة .

(٤) فتح دورات تدريب لقوابل العاصمة .

(٥) وضع خطة ثابتة لتدريب الاطباء المقيمين وضوابط للطبيب المقيم الاقدم .

(٦) فتح صالة للعلاج المركز INTENSIVE THERAP

بعد ما تقدم ارجو ايصال هذه المذكرة الى السيد وزير الصحة فقد وعد سيادته بمساعدتنا في هذا المجال .

الدكتور كمال السامرائي

رئيس شعبة الولادة والامراض النسائية

تعادل الشهادات الجامعية الاجنبية ١٩٦٦

حصلت اختلافات في معادلة الشهادات التي يحملها خريجو جامعات اوروبا الشرقية ، فرفعت الى رآسة جامعة بغداد الكتاب الآتي :

الى /

رئيس جامعة بغداد

الموضوع /

تعادل الشهادات في المواضيع الجراحية

كثيراً ماتستدعي الجامعة احد اعضاء هذه الدائرة للاشتراك في تثمين الشهادات في الطب الجراحي او في معادلة بعضها ببعض وخصوصا بين شهادتي الدبلوم والماجستير . وبالنظر لاهمية هذه المهمة من جهة ولوجود الاختلافات العديدة المتباينة بين مختلف الشهادات في الطب الجراحي لابين قطر وقطر فقط بل حتى بين جامعة واخرى من القطر الواحد مما يجعل — على ما نعتقد — اي عضو من اعضاء هذه الدائرة لا يستطيع وحده في بعض الحالات اعطاء الرأي الصواب في تثمين الشهادات او معادلة بعضها ببعض . لذا ترجو هذه الدائرة ان تلفت نظر (لجنة تعادل الشهادات) الى افضلية تحويل الشهادات المراد تثمينها او معادلتها الى دائرة الجراحة والدائرة بدورها تقوم بما يجب وترفع الى اللجنة المذكورة حكما اقرب الى الحقيقة والصواب . ومن ذلك على ماترى تسهيلا لاعمال اللجنة الكثيرة واسنادا لاحكامها على الشهادات الجراحية .

الاستاذ كمال السامرائي

رئيس دائرة الجراحة

صورة منه الى /

عمادة كلية الطب — بغداد —

عمادة كلية الطب — موصل —

دائرة الطب

البحث العلمي وتعضيده / ١٩٦٦

ارتأيت ان ادفع عجلة البحث الى امام فوجهت الكتاب الآتي الى اعضاء دائرة الجراحة

الى /

اعضاء دائرة الجراحة

البحث العلمي في المواضيع الطبية ونشره في المجلات هما اصدق القياسات لفعالية العضو الجامعي ومن ثم هما العاملان اللذان يساعدان اعضاء الهيئة التدريسية على التقدم ويضمنان له الترقية العلمية . والعضو التدريسي في الجامعات الراقية الذي لا يبحث في اختصاصه لاتتساهل معه الهيئات المسؤولة ولا تتناساه كفرد ليس منه نفع ولا من المصلحة الاحتفاظ بمكانه في الجامعة . ان الصفة البارزة والمميزة في الجامعات ذات المركز المرموق هي الاشتغال في العلم والعلم وحده وليس غير ذلك . وبهذا الدافع اولى قانون جامعة بغداد اهتماما خاصا بالبحث العلمي وافرد لتحقيقه مواداً صريحة تعنى به عناية موضوعية بحته ، مع ذلك لم يحظ هذا الموضوع بالاهتمام والتنظيم من اي من الاطراف المعنية رغم توفر الامكانيات والكفآءات الشخصية لدي الكثير من منتسبي هذه الدائرة ولاستعداد المسوؤلين في الجامعة ومن مجلس البحوث الاعلى لتشجيع واستغلال الامكانيات والكفاءات المتوفرة لهذا الغرض فان الفرصة مواتية للعمل من اجل البحث العلمي لرفع مستوى جامعة بغداد الى المنزلة اللائقة . ومن اجل ذلك سوف تسعى هذه الدائرة للحصول على المساعدات اللازمة من جامعة بغداد ومن مجلس البحوث الاعلى لتهيئة مستلزمات البحث العلمي . كما انها سوف تعمل بالاتفاق مع مجلة الكلية الطبية على وضع قواعد وشروط لا تقبل الا بمقتضاها نشر الابحاث العلمية التي يتقدم بها منتسبي دائرة الجراحة وخصوصاً المقالات التي يقصد من نشرها توفير شروط الترقية العلمية .

تعاريف

وفي مقدمة اقتراحاتنا بصدد البحث العلمي نرى من الفائدة تعريف بعض التعابير التي تتردد في هذا الباب لتوضيح الغموض عند تصنيف درجة البحث ونوعه واهميته .

(١) البحث العلمي ، هو تدارس فكرة طبية او تدارس مجموعة مشاهدات مرضية بالطرق السريرية او المختبرية او الفيزيائية للتوصل الى كشف جديد في المعرفة او الى

ما فيه قيمة علمية نظرية كانت او تطبيقية .

والبحث العلمي نوعان ، قيم ، واصيل ، لا يصعب التفريق بينهما على ذوي الاختصاص والخبرة .

(٢) البحث العلمي القيم : هو البحث لتحقيق فائدة علمية في الطب او ما يأتي باضافة ذات نفع في الاختصاص .

(٣) البحث العلمي الاصيل : ويعتبر البحث اصيلا اذا جاء مصححا لفكرة او نظرية سائدة اذا كشف عن حقيقة علمية جديدة او جاء بعملية مبتكرة تحل مشكلة جراحية قائمة .

المقترحات

هيئة البحث العلمي

تتشكل في كل قسم من اقسام دائرة الجراحة هيئة تسمى (هيئه البحث العلمي) قوامها رئيس القسم وعضوان ينتخبان من بين اعضاء القسم ولهذه الهيئة الحق باضافة عضو آخر او ان تستدعي الى جلساتها او فعالياتها من تشاء ومن اي قسم من اقسام جامعة بغداد اذا اقتضت طبيعة البحث الاستعانة بذلك العضو .

واجبات هيئة البحث العلمي

(١) دراسة المواضيع التي يتقدم بها الاعضاء لاقرار اهميتها والبت فيها .

(٢) دوام الاطلاع على اعمال الباحثين لتوجيههم وتهيئة متطلبات ولوازم البحث لهم .

(٣) رفع تقارير متتابعة باوقات مناسبة عن سير البحوث .

(٤) تنظيم حلقات سريرية او دراسية في موضوع البحث قيد العمل او بعد الانتهاء منه او في اي اختصاص الجراحة .

(٥) اعداد لوازم البحث كالمختبرات والادوات وغيرها .

(٦) حفظ النماذج التشريحية والمرضية ووضع دستور لشرحها .

(٧) اعداد وسائل الايضاح لغايتي البحث والتدريس .

(٨) مؤازرة المؤتمرات الطبية المحلية وغيرها وذلك بتزويدها بنتائج الابحاث العلمية .

(٩) استحصال المراجع لكتابة البحوث من داخل العراق وخارجه .

(١٠) ترفع هيئة البحث العلمي تقريراً نهائيا عند اكتمال البحث وكتابته من قبل

الباحث نفسه مشفوعا برأيها عن اهمية ماتوصل اليه الباحث وعن الذين ساهموا في انجازه من سريريين ومختبريين ومقدار ونوع ماانجزه كل واحد منهم ومكان اعمالهم والزمن الذي استغرقه العمل لاكمال ذلك البحث .

ان الفرض الاول من هيئة البحث العلمي هو تجسيد روح البحث والوقوف الى جانب الباحث عن نهوض الصعوبات كما انها ايضاً استشهاد وتوكيد للفعاليات العلمية التي يقوم بها منتسبي هذه الدائرة ومن هذا فان تقرير الهيئة عن اعمال الباحثين وانتاجاتهم لا تقل اهمية عن تقرير المسوؤلين الاداريين عن الترقيات العلمية .كما ان تقريرها شرط اساسي لقبول مايكتبه الباحث في مجلة الكلية الطبية .

اسلوب العمل في البحث

(١) على الراغب في البحث ان يقدم طلباً الى هيئة البحث العلمي بعنوان بحثه مزوداً بمخطوط يوضح فيه الغاية او الفكرة التي يبحث لاجلها كما يوضح خطواته وطرقه العلمية المزمع اتباعها في البحث .

(٢) يستعمل الباحث الاستمارات الخاصة بدراسة موضوع بحثه كما يستعمل الاستمارات الخاصة بالمختبرات بكل انواعها .

(٣) يحفظ الباحث ملفا لكل وقعة من الوقعات المرضية يضم الاستمارات الخاصة في موضوع بحثه واستمارات الفحوص المختبرية والتصاوير الشعاعية والفوتوغرافية والمخططات التوضيحية وتقارير الاستشاريين من الاختصاصات الاخرى . وتحفظ الملفات في دائرة هيئة البحث العلمي .

(٤) تعزز التقارير بالنماذج التشريحية والهستولوجية المهمة .

(٥) عند الانتهاء من البحث يكتب الباحث موضوعه بالاصول المتبعة في كتابة النشرات لاطلاع هيئة البحث عليه ولتنظيم حلقة دراسية يستمع فيها اعضاء القسم الى الباحث ويناقشه للتوصل الى اكتمال البحث شكلا وموضوعا ومن ثم لتقديمه الى دائرة الجراحة .

مقومات النشر

يعتبر ماينشره عن نتائج البحث العلمي كاملا واصوليا اذا توفر فيه ماياتي :ــ

(١) الاشارة في صدر المقال الى الغاية من نشر البحث .

(٢) ذكر المادة الاولية المستعملة في البحث (مرضى بشريون او حيوانات تجريبية

او مواد كيمياوية).

(٣) توضيح طريقة البحث والاساليب التي اتبعها الباحث للوصول الى استنتاجاته العلمية المشفوعة بالجداول والبيانات التخطيطية .

(٤) اذا ورد في المقال مايعتمد على حقائق او نظريات او مشاهدات سريرية منشورة فلابد وان يشير الكاتب الى مصادرها مع ذكر اسماء ناشريها وتاريخ النشر .

(٥) ان يكون المقال مزوداً بتعليق يعبر فيه الكاتب عن رايه الخاص في نتائج بحثه او ينكر فيه التضارب او التوافق بين نتائج بحثه وما يناظرها من المعلومات المعروفة او الانطباعات المالوفة .

(٦) ان ينتهي المقال بفقرات مسلسلة توجز ماورد تفصيله في المقال .

(٧) ان يزود المقال بالمراجع التي اعتمد عليها الكاتب في تجميع المعلومات الضرورية لاسناد نتائج بحثه .

البحث والنشر والترقيات العلمية

البحث والنشر فعاليتان علميتان متلازمتان . والبحث الذي لاينشر ليس منه نفع ولايتفق مع صفة العلماء . كما ان النشر الذي لايعتمد على بحث علمي ينقصه صحة الارقام وامانة الحقائق وكلا الصفتين ضروريتين للنشر العلمي . وقد نص قانون جامعة بغداد على ضرورة توفر النشر من اجل الترقيات العلمية . واعتبرت الجامعة البحوث التي تنشرها مجلة الكلية الطبية مؤهلة للترقية الى الاستاذية فيشترط لاجلها ان يكون النشر في مجلات اجنبية معروفة بمستواها العلمي .

وتحقيقاً لرفع مستوى النشر ومن اجل تطبيق القواعد الجامعية من الترقيات العلمية تطبيقاً سليماً يضمن السواسية بين الاعضاء ويبعدنا عن اسلوب المقارنة او اعتبار سابقات دون مبررات يقرها العرف او القانون فان دائرة الجراحة سوف تتمسك بما ياتي :ـ

(١) الالتزام التام بمفهوم النشر والبحث العلمي على كونهما شرطان ضروريان للترقية العلمية . ومن هذا فان مجرد نشر وقعة مرضية او التعليق على ما ينشر في المجلات او السؤال على صفحات المجلات أو القاء المحاضرات في المؤتمرات الطبية التي لم يتم نشرها في مجلة معترف بها كل ذلك لايعتبر بحثا علميا ولو انها تفيد في تجميع المعلومات الطبية التي ترحب بها وتقدر الدائرة العاملين لها اكبر تقدير . كذلك لاتعتبر الدائرة تاليف الكتب بحثا علميا ولا بمنزلته ولا تعويضاً له لتوفير شروط الترقية العلمية وذلك لان تاليف الكتب متوقع ان يكون من اعمال الاساتذة بعد

التجربة الطويلة وهؤلاء في الاصل قد اجتازو مراحل الترقية .
(٢) ترفع هيئة البحث العلمي مايكتبه الباحثون وتقريرها الخاص بدراسة موضوع البحث واقرار نشره الى دائرة الجراحة والدائرة تبعث بالموضوع الى مجلة الكلية الطبية وعلى هذا فان ماتنشره المجلة المذكورة دون طلب من الدائرة بالنشر لايؤهل العضو للترقية العلمية .
(٣) تطلع الدائرة على الذي يراد نشره في مجلة اجنبية او الذي يراد تثمينه من قبل الثقاة من الخارج وذلك بعد تاييد هيئة البحث العلمي لواقعية البحث واطلاعهم عليه والدائرة (ان شاء الباحث) تبعث بالمقال لنشره في المجلات الاجنبية . وعلى هذا فلا يعتبر ما ينشره في مجلة اجنبية او يثمن من لدن ثقاة اجانب مؤهلا العضو للترقيه العلميه ما لم يسبق تعزيزه من قبل هيئة البحث العلمي واطلاع الدائرة عليه .
(٤) يفضل النشر في المجلات الانكليزية ثم الامريكية على غيرها من المجلات الاجنبية والمجلة تسعى بالطرق الجامعية لدى المجلات المختصة لقبول مايكتبه الاعضاء للنشر حين يكون المقال على مستوى عالي وذلك للكشف عن مكانتنا العلمية امام جامعات العالم .

وجوه التقدير والمكافاة للباحثين

تشجيع الباحثين ومكافئتهم على نشاطاتهم العلمية وسيلة مفيدة لتعضيد حركة البحث العلمي .
وفي المجالات التالية يمكن تحقيق الاغراض المذكورة .
(١) تعمل الدائرة مابوسعها لنشر انتاجات الباحثين في المجلات العلمية .
(٢) اذا توصل الباحث الى انتاج علمي اصيل او انتاج ذو قيمة علمية ، فان الدائرة تتوسط لدى الجامعة على تحمل كافة النفقات لسفر الباحث لالقاء محاضرته في المؤتمرات العالمية المختصة بالموضوع .
(٣) تتكلف دائرة الجراحة بمطالبة لترقية الباحثين عند تمام توفر الشروط المطلوبة للترقية العلمية من غير ان يتكلف العضو بالمطالبة بهذا الحق .
(٤) ابعاد الباحثين عن المسؤوليات الادارية اياكان نوعها ماخلا اللجان التي تشكل لتدارس موضوع علمي بحت او لتدارس مؤهلات الترقية العلمية .
(٥) اذا كشفت اعمال العضو وانتاجاته العلمية على قابلية خاصة في البحث ، يعفى العضو حين ذاك من بعض او كل واجباته التدريسية حسب رغبته وتبعا لتوفر من يعوضه من الاعضاء .

(٦) تخصص جائزة واحدة (نقدية ورمزية) ولنسميها (جائزة الجامعة) لكل من يتوصل الى انتاج علمي ذو قيمة عالية ، او لمن يقدم مجموعة من الابحاث العلمية التي اقرت فائدتها من المعرفة والتطبيق .

ملاحظة :

لكي يجد اعضاء الهيئة التدريسية في دائرة الجراحة وقتا كافيا لتهيئة وتكييف مواقفهم من البحث العلمي بالطريقة التي وصفت في هذه المذكرة ولاكمال ما سبق وبداوا به من اعمال في هذا المجال ، فيجدر ان يبدأ بتطبيق هذه التعليمات بعد مرور سنة كاملة من وقت اقرارها .

الاستاذ كمال السامرائي

رئيس دائرة الجراحة

الاستاذ الزائر الدكتور سافج وعملية بولدون

إستدعيت في صيف سنة ١٩٦٦ الاستاذ (سافج) من لندن ليشاركني في امتحان طلاب السنة النهائية بكلية الطب . وكان قد سمع من بعض طلابي الذين درسوا عليه بلندن ـ انني امارس عملية (بولدون) باستعمال قطعة من الامعاء لاصنع منها مهبلًا في حالة عدم وجود هذا العضو خلقياً ، فكتب لي وهو في لندن ان استحضر مريضة لاطبق عليها هذه العملية حين يكون في بغداد . ولم احصل على مريضة بهذا النقص الخلقي في مدة بقاءه ببغداد . غير ان مريضة راجعتني اثناء ذلك في العيادة الخارجية بمستشفى مدينة الطب تشكو من اعراض مهبلية . ولم يكن وجه المريضة غريباً ، فسألتها عما اذا كانت قد راجعتني قبلًا ؟ فاجابتني على الفور :

ـ دكتور انت اجريت لي عملية تصنيع الفرج قبل ثلاث سنوات . فقلت لنفسي هذه مناسبة ثمينة ليرى فيها الاستاذ سافج نتيجة هذه العملية ومدى صلاحيتها للتطبيق . فدعوته لفحص هذه المريضة مدعياً انها تشكو من عدم الحبل . وفحصها الاستاذ سافج ، ورأيت على وجهه وهو يفحص مهبلها علامات التعجب ، والتفت اليّ وقال :

ـ كمال ليس لهذه المرأة رحم فكيف تحبل ؟

وسألته :

ـ الم تلاحظ في فرجها شيئاً آخر ؟

ـ عدم وجود الرحم يكفي وحده لتفسير شكواها من العقم ، ولاحاجة ان افتش عن سبب آخر لشكواها .

وكاشفته ضاحكاً .

ــ ان المهبل الذي فحصته ياستاذ سفج هو جزء من الامعاء . وهي احدى المريضات اللاتي اجريت عليهن عملية بولدن .

وبدت على وجهه الدهشة بشيء من الانكار ، وعاد يفحص المهبل مرة اخرى ، وقال :

ــ ياالهي لو لم تقل لي ان المهبل رقعة من الامعاء لبقيت اصر على ان مهبلها طبيعي .

ثم فاجأته مرة اخرى ، وقلت له :

ــ ان هذه المريضة غير متزوجة ، ولا تشكو من العقم بل هي من (بنات الهوى) وتعيش على حساب مهبلها المصطنع وتشكو من حرقة وحكة في فرجها لا من عدم الانجاب .

وعاد سافج يضحك وهو يقول :

ــ ان مهبلها الآن افضل من المهبل الطبيعي ، ويغري ان تمتهن الدعارة .

• • •

ان اول من صنع المهبل بالطريقة التي عملتها على مريضاتي هو (بولدون) الامريكي ، وتعرف العملية اليوم باسمه ، وقد مارسها على اربع عشر مريضة اثنتان منها انتهيتا بالفشل . اما خبرتي في هذه العملية فكانت على اربع عشرة مريضة بفشل واحدة فقط ، وجميع مريضاتي من الطبقة الفقيرة ومن الردهة النسائية في المستشفى الجمهوري ، ومستشفى مدينة الطب ، فلا احتمال ان يكون في ادعائي مغالطة .

في فندق ماديرا بلبنان ١٩٦٦/٧/٨

لبنان المطل من الغرب على مياه البحر الابيض اللازوردية ، ومرفأ بيروت الجاثمة القرفصاء على صخوره ، وطرقاتها التي تنفذ صعداً الى (عالي وسوق الغرب وبحمدون وظهور شوير وبرمانه) ، المكسوة جميعاً باشجار الصنوبر الغنية الخضرة : هذه اللوحة الفنية لا تضاهيها الا افكار المصورين حين ينقلونها على صفحات تصاويرهم .

وفندق ماديراً ببحمدون هو الذي كنت افضله على غيره من الفنادق قبل ان اتحول الى فندق سبلنديد او فندق الكرمة بعد ذلك ، ويقع فندق ماديرا على مرتفع على يمين الطريق الى قرية بحمدون ، وهو يعد جزءاً من هذه القرية ، واصحابه من بيت

سلامة ، وكانوا فيما مضى قد عاشوا في جزر ماديرا حيث جمعو منها مايكفي لبناء هذا الفندق . وهو باي حال ليس فندقاً من الدرجة الاولى ولا من الدرجة الثانية ، وقد يعد من الدرجة الثالثة . واجزه اليومي لايزيد على عشر ليرات لبنانية بما في ذلك وجبات الطعام الثلاثة ، وعند وصولي الى هذا الفندق عصر ١٩٦٧/٧/٨ استقبلني مديره الخواجة (حنا سلامة) ذو الشعر الاشيب ، وهو في الخمسين من عمره ، ومع ذلك لم يتزوج بعد . ولم يكن يوم وصولي في هذا الفندق نزلاء كثيرون . كانت فيه عائلتان من العراق ، وثلاثة عوائل لبنانية ، ولولا اطفال هذه العوائل الثلاثة وما يحدثونه من صخب وحركة لبدا الفندق في اكثر ساعات النهار خالياً مهجوراً ليس فيه احد . وقد تمتعت بهذا الهدوء في الاسبوع ألاولى من وصولي ، وصرت اقرأ واكتب متى شئت ، وافكر بتسلسل واستقامة . وكان معي من الكتب ابن المقفع وارنست همنكواي والجاحظ . وبعد ايام قليلة دخل الفندق نزيل جديد هو الدكتور (انطوان سلامة) ، وكان هرماً يبدو عليه الاعياء ، غير انني اكتشفت ان حيويته في الكلام وذاكرته القوية تجعله لايبدو في اكثر من الستينات وقد شارك كطبيب في الثورة العربية ، وصاحب اكثر شخصياتها البارزة كالملك حسين وابنائه عبدالله وفيصل وعلي . كما عرف عن قرب لورنس ومولود مخلص وجعفر العسكري ، وهو يمتدح الامير فيصل بن الحسين بشكل خاص من حيث الرجولة والذكاء ، كما يمتدح مولود مخلص لجرأته في مقارعة القوات التركية ، وكان يعجبني ان استعلم منه عن حرب تلك الايام قياساً الى حروب الوقت الراهن ودور الاطباء العرب في تلك الحروب ، فسألته :

ـ لابد ان حرب ذلك الزمان كانت في اكثرها مقارعات جسدية لاآلية وتعتمد على الجرأة وقوة الذراع والفطنة .

فأجابني وهو يلم قبضة يده اليمنى ويهزها امام صدره

ـ كانت حرباً حقيقية ، فيها قوة وحرمان وجوع وعطش .

وسألته :

ـ وما كان نطاق اعمالكم في التطبيب والتمريض يادكتور سلامة :؟

ـ كان اكثره في الاسعافات الاولية ، وخياطة الجروح . وكانت الادوية محدودة النوعية والكمية ، وكنا نعتمد بسبب ذلك على الاعشاب . اما الادوية الكيماوية فكانت نزره وتستورد من انكلترا . كما كانت الاعمال المختبرية لا يعتمد عليها بقدر مايعتمد على اعراض المرض وعلاماته في تشخيص نوعه . وكانت خيمة واحدة او خيمتان بالاكثر في مؤخرة كل شيء . اما الحالات المرضية المعقدة والتي تحتاج الى جراحة كبيرة فتنتقل الى احد المستشفيات في المدن القريبة من المعركة . (واستطرد يقول) وكان

للطبيب منزلة محترمة ، ومهنته مقدسة ، والطبيب اياً كان عمله واختصاصه في علاج المرضى فانه يعمل مالا يستطيع ان يعمله غير الطبيب ، وان معرفة جس النبض وقياس حرارة جسم المريض ، وإمارات المرض على وجه المريض او لسانه تبدو بسيطة او اولية ، ولكنها عملياً هي من اعجاز الطبيب واسرار نجاحه .

وبالرغم من انني ادركت ماكان يعنيه الدكتور سلامة غير انه استطرد لتوضيح فكرته قائلًا :

ـ خذ مثلًا ؛ الشهقة علامة مرضية خبيثة اذا صاحبت بعض الامراض الباطنية ، وقد تكون انذاراً بنهاية عمر المريض . وغير الاطباء من يصف المسهلات لحالات الامساك اياً كان سببه ، اما الطبيب فيحذر وصفه في بعض الحالات المرضية ، وهذا هو الفرق بين الطبيب وغير الطبيب ، وهناك امثلة ليس لها حصر تبدو تافهة ولكنها حيوية قد تقود المريض الى الهلاك اذا انبرى لعلاجها من ليس له علم بالطب .

وسالته :

ـ هل كانت اعمالكم في الجيش العربي جراحية ام طبية ؟

ـ الجراحية هي الغالبة بشكل واضح ، اما الحالات الباطنية فلا تعار لها اهمية خاصة إلا في امثلة نادرة ، واكثرها يشفى تلقائياً .

كان الدكتور سلامة يتكلم ببطىء ، ويتوقف قليلًا ليستحضر مايريد ان يقوله ، او ليستريح . ولما رأيت التعب قد دب فيه قلت له :

ـ معذرة يادكتور سلامة فقد اتعبتك .

فاجابني بلا حماس :

ـ الكلام علامة الصحة .. الفكرية على الاقل ، وباي حال فانا الآن في دور النقاهة بعد عملية رفع البروستات ، والتحدث اليك يثير نشاطي .

فقلت له :

ـ إذن يعجبني ان اسمع منك حكاية غريبة في ممارساتك الطبية بين صفوف المقاتلين في الجيش العربي .

وسكت الدكتور سلامة قليلًا ثم بدأ يتحدث .

ـ كان ذلك قرب (العقبة) حيث اشتد القتال ، وكثر عدد الجرحى ، وكمبدأ صرت اخلي الحالات الجراحية التي تحتاج الى علاج عاجل قبل غيرها من الحالات ، وبينما كنت اشير الى تلك الفئة من الجرحى لينقلهم المضمدون الى الخطوط الخلفية ، مررت بجريح يستلقي على ظهره ويمسك بطنه بكلتي يديه والدم يسيل من بين اصابعها ، فعددت حالته بسيطة وغير خطيرة آنياً ، فلم اعره اهتمامي ، وعبرته لارى من هو اجدر

منه بالعلاج العاجل ، غير ان هذا الجريح ناداني وهو يرفع يديه عن بطنه وهو يقول لي (ياحكيم ، انظر مصاريني خارج بطني) فمدت اليه فاذا حالته سيئة وإصابته الخطيرة لا في جدار بطنه فقط بل شملت الاوعية الدموية الكبيرة فاغرقته بالدم ، نحملنا هذا الجريح الى الخطوط الخلفية ، الا انه لفظ انفاسه الأخيرة قبل ان يصل مستشفى الميدان .

يوم النكسة في الحرب مع اسرائيل وما تبع ذلك / ١٩٦٧

كانت معركة اسرائيل مع الدول العربية يوم ١٩٦٧/٦/٥ مفاجأة مفجعة ومخيبة لم يتوقعها الكثيرون من العرب ، وكانت من نتائجها مغادرة سكان الضفة الغربية من نهر الاردن الى جانبه الشرقي هاربين بارواحهم من حكم اليهود . وقد تلقى المسلمون في العراق انباء انتصار اليهود في هذه الحرب بكثير من التعجب لفرط براءتهم وسذاجتهم وقصر نظرهم ، إذ لو كان المنتصرون في نظرهم في هذه الحرب من الانكليز الفرنسيين او الالمان او اية ملة اخرى غير ملة اليهود لما دعا ذلك الى الاستغراب ، والعراقيون بشكل خاص لايعرفون عن اليهود إلا مايعرفون عن اولئك الذين سكنوا محلة (البو شبل) ببغداد ، وهؤلاء حين يهجم عليهم صبي مسلم بسكينة مطبخ او حتى مبراة قلم كتابة ، يتراكض امامه حشد من رجال اليهود في الازقة الضيقة خوفاً من بطش مطارديهم المسلمين . اما يهود (اسرائيل) فهم من طبقات وعينات مختارة من الاقطار الاوروبية والامريكية المتحضرة .

لقد كانت اخبار الهاربين العرب من قسوة اليهود تثير الغضب على تهاون الحكومات العربية وسوء تقديرها لقوة اليهود في هذه الحرب .

وبعد ثلاثة ايام من نكبة حزيران التي ذكرتها مررت بشارع الرشيد ، حيث شاهدت تظاهرات صاخبة من الشباب الهائج بحماس لنصرة العرب في فلسطين ، وهي تحمل اللافتات التي تدعو المواطنين الى التطوع لمحاربة اليهود الصهاينة الذي احتلوا اولى القبلتين في القدس الشريف وهذه عواطف اكثر مما هي مشروع لعملية ناجحة في طرد اليهود مما احتلوه من الاراض الفلسطينية .

وفجاة ودون تسلسل في التفكير ارتايت ان اتصل ببعض الاصدقاء والزملاء لتشكيل لجنة تبرعات لنجدة الفلسطينيين الهاربين والمطرودين من ديارهم ، وتقديم ما يعوزهم من اسباب العيش ودفع الامراض عنهم ، فاتصلت في اليوم التالي بالدكتور سالم الدملوجي ، وقررنا معاً دعوة الاستاذ طالب جميل والاستاذ نجيب الصائغ والدكتور طارق حمدي والدكتور احسان البحراني لمشاركتنا في تقديم طلب الى السيد وزير

الداخلية ليجيزنا بجمع تبرعات بمبلغ مائة الف دينار ، وقد رحب السيد الوزير بطلبنا واصدر موافقته تلفونياً ، وفي اليوم التالي وصلتنا موافقته الخطية ، واذعت في الصحف والتلفزيون بعنوان (نداء الى عموم الاطباء للحضور في الساعة العاشرة من صباح غد في قاعة التشريح بالكلية الطبية للتداول في امور إنسانية وطبية) .

وفي الوقت المذكور غصّت القاعة بمن سمع النداء من الاطباء . فكانت هذه بداية مفرحة . ونهضت من مكاني الى منصة الخطابة في القاعة وقلت فيما قلت (ان الله تعالى يتكفل بمن استشهد برصاص الصهاينة فلنتكفل نحن باسعاف الجرحى والذين ينامون جوعى في الخواء) .

ورأيت ان ابدأ انا بالتبرع ، فسجلت على نفسي وانا اذكر باعلى صوتي (ــ الف دينار) وتحركت اريحية من في القاعة فسارعوا يتبرعون بسخاء ، فتبرع بعدي ثلاثة كل واحد منهم بالف دينار ، واربعة بخمسماية دينار ، واخر من تبرع منهم كان براتبه الشهري الذي كان بحدود المائة وعشرين ديناراً ، فتكومت امامي على المنضدة في خلال اقل من ساعة اثنان واربعون الف دينار صكوكاً ونقداً ، فزهوت اي زهو بهذا المبلغ وكانني قد حملته رأساً الى المتضررين من اهل فلسطين .

واودعت المبلغ في (مصرف الرافدين فرع باب المعظم) على ان يكون السحب بتوقيعي وتوقيع محاسب لجنة التبرعات الاستاذ نجيب الصائغ .

وفي مساء يوم هذا التجمع إتصل بي الزميل الدكتور عزت مصطفى وسألني عن كيفية توزيع هذا المبلغ على المنكوبين من اهل فلسطين والاردن وسوريا ومصر ، فاجبته حالًا في رأيي ان نؤسس جمعية باسم جمعية صندوق فلسطين تختص بتوزيع هذا المبلغ ، وتستمر في تقديم الدعم للمتضررين في حرب حزيران وسألني : مبدئياً ماهو رأيك في توزيع المبلغ الذي حصلت عليه من المتبرعين ؟

فاجبته : بالتساوي بين الاردن وسوريا ومصر .

فاقترح يقول : ان سوريا هي اكثر الاقطار العربية التي تضررت بهذه الحرب ، وحبذا لو يكون نصيبها من المساعدة اكثر ممايصيب الاردن ومصر منها .

وسكت عن هذا المقترح واظنه عرف منه موقفي السلبي من مقترحه .

وفي اليوم التالي قدمنا نحن لجنة التبرعات طلباً الى وزارة الداخلية لتأسيس جمعية باسم (جمعية صندوق فلسطين) إختصاصها تقديم العون الطبي للاجئين الفلسطينيين الى الاردن ، فاجازنا السيد الوزير حالًا . ورأينا في اول يوم اجتمعت فيه هذه الجمعية ان نضيف الى اعضائها الاستاذ نور الدين الواعظ والسيد صبيح الشبيبي ، واعلنا هذا التكوين الجديد في الصحف المحلية ، واتخذنا مقراً لها في

البناية التي كانت تشغلها جمعية مكافحة التدرن العراقية التي تقابل حديقة غازي من الجنوب .

وفي يوم اول اجتماع لهذه الجمعية كلمني تلفونياً الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا وهو موظف كبير بدائرة (النفط العراقية) واخبرني ان اقابل مدير شركةالنفط العراقية لاتسلم صكاً بمبلغ مائة الف دينار تبرعاً من الشركة لجمعية صندوق فلسطين . وفي صباح اليوم التالي قابلت مدير الشركة وهو فرنسي الاصل والجنسية ، وسلمني مغلفاً فيه صك على البنك الشرقي بالمبلغ المذكور . وفيما انا استحضر نفسي لمغادرة دائرته الانيقة قال لي :

ـ ان لدى الشركة اربعة شاحنات ضخمة مصممة لتكون مستشفى متنقل ، احدى الشاحنات للعمليات الجراحية ، واخرى للمرضى ، وثالثة للاطباء ، والرابعة للممرضات ، وهي بالتاكيد ما تحتاجونه في هذه الظروف (ثم اضاف) على ان نقل هذه الشاحنات الى الاردن يحتاج لضخامتها الى ساحبة ذات فرامل خاصة تقوى على كبحها اذا اندفعت سريعة على المنحدرات الحادة ، وهذه الساحبة لا تتوفر الا في وزارة الدفاع ، وموافقة وزير هذه الوزارة ضرورية للحصول عليها . فذهبت بنفسي الى الوزير بنفسي وكان السيد شاكر محمود شكري فكانت موافقته آنية والحمد لله .

وخرجت من دائرة مدير (شركة النفط العراقية) فرحاً اي فرح . وتوالى الحظ السعيد لجمعية صندوق فلسطين فقد استلمت باسم الجمعية من ممثل (كوينكيان) مبلغ مائة الف دولار مساهمة منه في دعم اعمال الجمعية ، كما وتسلمت في اليوم نفسه من جمعية (الصداقة العراقية الامريكية) مبلغ خمسين الف دولار ، ومن السيدة عزة ابراهيم شوكت خمسين دينار ، وكانت هذه السيدة الكريمة تسكن يومئذ في امريكا فكلمت ابيها تلفونياً أن يدفع لجمعية صندوق فلسطين هذا المبلغ بإسمها . وقد اكبرت الجمعية شعور هذه السيدة على التفاتتها الكريمة ، ولاغرابة في ذلك فهي إبنة الاستاذ ابراهيم شوكت وحفيده الإستاذ درويش المقدادي وكلاهما معروف بشعوره الوطني .

وصباح اليوم الثامن من هذا الشهر عاد اليّ الدكتور عزت مصطفى ، وعرفت سلفاً ما يريده مني فقلت له :

ـ قررت الجمعية ان توزع التبرعات على الجبهة السورية والجبهة الاردنية والجبهة المصرية بالتساوي .

وسكت الدكتور عزت برهة ثم قال :

ـ طيب ، عندي الآن رجاء ، وهو ان نذهب الآن سوية الى السفارة السورية لتسليم

صك تصيب سوريا الى السيد السفير وتؤخذ صورة فوتوغرافية لهذه المقابلة . فاقتضت المصادفة ان لم نجد السفير في دائرته ، فكتبت له رسالة مختصرة وسلمتها مع الصك الى محاسب السفارة .

في صباح اليوم التالي لاحت بوادر كدر غير متوقع كان اولها مخابرة تلفونية من عميد كلية الطب قال فيها (بمرح) .

ــ كنت اتوقع ان اكون على علم مسبق بالتجمع في قاعة التشريح التي هي من مرافق الكلية !

واتصل بي تلفونيا في اليوم نفسه نقيب الاطباء بلهجة لا تخلو من جفاف وتعالٍ ، يقول :

ــ كان يجب ان يكون للنقابة علم بما فعلته لجمع التبرعات بل كان يجب ان تكون النقابة صاحبة المبادرة الى جمع التبرعات !!

وكان جوابي واحداً لكليهما وهو اننا في فورة تحمس لم نجد فيها مايبرر الاضطرار الى الاجتماعات التقليدية ، ومايحتمل ان يكون منها ضياع فرص وتحقيق اوقات ثمينة (واضفت) وكان تصرفنا طوعياً لتحقيق هدف لا مناقشة في صدق النية فيه ، وباي حال لم تكن إجراءاتنا بتعمد منا لعزل ما هو خارج عن تجمعنا .

وفي اليوم التالي كلمني السيد وزير الصحة بنفسه ودعاني الى الحضور في ديوان الوزارة في الساعة العاشرة من يوم غد ، وحين حضرت في الوقت المعين ، كان قد سبقني الى غرفة السيد الوزير خمسة من اعضاء النقابة ، كنت اعرف منهم ثلاثة معرفة تامة والاخران لم يسبق لي ان رأيتهما قبلاً ، ودار بيننا حديث انقل هنا نصه من اضبارة هذا الاجتماع .

قال السيد الوزير ، وهو طبيب جم الادب :

ــ ان النقابة تقدر جهدك بجمع التبرعات لمنكوبي (نكسة) حزيران ، غير ان النقابة ترى ان عملكم كان يجب ان يأتي في إطار عمل النقابة بهذا الخصوص ، وهي جادة فيه .

فقلت للسيد الوزير ــ أقولها صراحة لو انني اشك ان النقابة ستقوم بمثل مهمتي وبالسرعة ذاتها لما تاخرت عن الانظمام اليها كما ينظم اي طبيب نقابي .

وفي هذه اللحظة خاطبني نقيب الاطباء بمثل حماسة الاطفال عجيب ، انت وحدك تستطيع ان تقوم بجمع التبرعات والنقابة بكاملها لا تستطيع . (ثم اضاف) انا آسف ان اسمع من استاذ مثل هذا الادعاء !

فلم التفت الى النقيب بل خاطبت السيد الوزير قائلاً :

ـ ان لغة النقيب لا افهمها ، وارجو ان يكون حوارنا ناضجاً وموضوعياً وهادفاً وبلغة تفرضها اللياقة والزمالة ، والا اغادر الاجتماع .

وسألني السيد الوزير وهو يخاطبني تحبباً باسمي :

ـ لو كنت انت في موقف النقابة إلا يغيظك قيام احد الاطباء بجمع التبرعات دون علم النقابة ودون ترخيص منها فالنقابة لها وجهة نظر ارى انها مقبولة (ثم اضاف متعجلاً) نريد الآن ان نصل الى تسوية بشيء من التنازل من الجانبين .

فقلت للسيد الوزير :

ـ انا مستعد لقبول اي مقترح من قبلكم او من قبل النقابة فيه نفع للقضية التي نعمل جميعنا من اجلها .

وسألني السيد الوزير :

ـ اعتقد انهم لا يعارضون الحل النافع .

وسمعت النقيب يعقب على جوابي قائلا بتهكم واستهزاء .

ـ مسيطر جنابه على اعضاء لجنة التبرعات !

ولم التفت الى النقيب ولا علقت على كلامه .

وهنا قال السيد مدير الصحة العام الدكتور مردان علي :

ـ لعلمك ياأستاذ كمال ان النقابة شكلت لجنة باسمها لجمع التبرعات .

فقلت :

ـ هذا رائع واتمنى نجاحها ، ولكنها متأخرة في المبادرة فقال النقيب بلهجة عدائية .

ـ النقابة تقترح دمج اللجنتين ، ويكون الصرف من صلاحية النقابة .

فقلت :

ـ هذا يعني حل لجنتنا ، وفي هذه الحال لابد ان اعرض الرأي على زملائي في لجنة التبرعات .

فقال السيد الوزير :

ـ حل وسط ؟ الصرف من قبل اللجنتين .

وسمعت النقيب يقول كما لو انه يكلم نفسه .

ـ أنا لا افهم هذا المنطق ، اجتمعنا هنا لنحصر التبرعات وصرفها بنقابة الاطباء ، أنا غير موافق واطلب من الدكتور كمال ان يعتذر مما بدر منه على صفحات الجرائد ، وفي حالة امتناعه عن ذلك يفصل من النقابة !

وهنا استاذنت من السيد الوزير وغادرت الجلسة .

وفي صباح اليوم التالي وصلني كتاب بلا رقم من النقابة بتوقيع السيد النقيب هذا نصه (الى الدكتور كمال السامرائي / يجب حضورك في مقر النقابة في الساعة السادسة مساءً من يوم ١٩٦٧/٧/١٠ للمداولة معك حول جمع التبرعات من الاطباء دون علم النقابة / التوقيع / نقيب الاطباء ....)

فاجبت على هذا الكتاب بما هذا نصه :

السيد نقيب الاطباء الدكتور طلال شوكت المحترم

ان صيغة كتابكم الذي استلمته يوم ١٩٦٧/٦/١٤ (دون رقم) خال من الادب الاجتماعي والسلوك المهني ، إذ ليس (وجوباً) عليّ ان احضر الى دائرتكم بنقابة الاطباء ، لان ذلك من صلاحية مجلس ادارة النقابة .

وباستطاعتي على هذا ان أمتنع عن الحضور ، وسوف لا أستجيب لطلبكم ، الا ان الادب يضطرني ان اخبرك بذلك لكي لا تنتظروني .

التوقيع : كمال السامرائي

وفي الوقت الذي ادخلت فيه هذه الرسالة في مغلف لابعثه الى النقابة اطلعت على منشور وزعته النقابة على الاطباء فيه تجريح بشخصي خارج عن توقعاتي من نقابة المفروض ان تكون مثالاً فيما تقوله وما تفعله . فأخذت القلم مرة أخرى وذيلت رسالتي المذكورة اعلاه بالعبارة التالية .

(اطلعت بمزيد من الاسف على المنشور الذي وزعتموه على اطباء بغداد وفيه الكثير من الشتم غير اللائق بمقام النقابة ، وباستطاعتي ان اقيم عليكم دعوة تشهير على الطريقة التي سلكتموها معي في توزيع ذلك المنشور ، ولكنني توقفت عن عمل ذلك لما فيه من الضرر بسمعه النقابة .

التوقيع : الدكتور كمال السامرائي

ملاحظة :

كتبت هذه الرسالة بخط يدي حفاظاً على سريتها .

وفي صباح يوم ١٩٦٧/٦/١٢ كلمني الدكتور عزت مصطفى وهو احد المتحمسين الى جانبي في جمع التبرعات ، وبادرني يقول :

ــ اطلعت على منشور النقابة الذي نشرته الجرائد ضدك ، وهو تصرف نأسف عليه (ولم اكن قد اطلعت بعد على ذلك المنشور) . وارى لحل النزاع الذي بينك وبين النقابة فاني اقترح ابرام الصيغة الاتية فيما بينكما ، واخرج ورقة من جيبه وقدمها لي ، وهذا نصها :

(اعتماداً الى الاتفاق الذي حصل بين نقابة الاطباء ولجنة عرب فلسطين . يحتفظ كلا الطرفين باوجه الصرف التي نصت عليها لجنة مكونة من نقيب الاطباء والدكتور كمال السامرائي والدكتور هادي السباك ممثل اتحاد الاطباء العرب والدكتور احسان البحراني مقرراً .

التواقيع من اليمين الى الشمال : كمال السامرائي ، عزت مصطفى ، طلال ناجي شوكت وكان كل من الدكتور عزت والدكتور طلال قد وقعا تحت اسميهما قبل ان تقدم لي هذه الورقة واقرأ محتوياتها وطلب مني الدكتور عزت ان اوقع تحت اسمي في هذه الورقة فوقعت عليها دون تردد وانا اقول له : اني احتفظ بحق الرجوع عنها بعد ان اقرأ منشور النقابة في الجرائد ضدي .

وفي يومها طلبت الجريدتين اللتين نشرتا منشور النقابة فاذا فيه من بذاءة اللفظ والمعنى ما لا يليق . ودون تفكير طويل قررت ان لا اتراجع عن موافقتي على ما وقعته في الورقة التي حملها اليّ الدكتور عزت مصطفى والا صرت بمستوى من كتب تلك النشرة .

الدكتور جلال العزاوي ١٩/٨/١٩٦٧

في صباح هذا اليوم نعت كلية الطب الدكتور جلال العزاوي . وهذا الرجل الطيب ذو صفات حميدة متميزة تدفعني ان استذكره كأحد اساتذة كلية الطب . وهو بغدادي من عشيرة العزة العربية ، وحين يوقع في مكاتباته يكتب تحت توقيعه اسمه كاملاً (جلال الدين آل العزاوي) وهو يتصرف دوماً بنعرة بغدادية عشائرية دون تعصب . وحين رأيته كانت جمة رأسه خليط من الشعر الاسود والابيض ، وكان يومئذ استاذ الدروس السريرية في امراض العين ، اما رئيس القسم في هذا الاختصاص فهو الاستاذ سينسر ، ويلفظ جلال العزاوي اسمه سينسر (بفتح السين والباء وسكون النون) وكان يتجنبه إذ لم يكن يعرف اللغة الانكليزية . وجلال العزاوي حسن الهيئة والقيافة ، وذو بدن ضخم ووجه ابيض تطوف عليه حمرة خفيفة . وكانت محاضراته السريرية ممتعة وخصوصاً مع المريضات الفقيرات وهن يحملن على ايديهن صغارهن المصابين برمد العين ، فاذا يراها قد تاخرت في عرض ابنها على اطباء هذا المستشفى يلعنها ويلعن اباها وجدها وعشيرتها ثم يقبض على زندها ويعضه حتى تصرخ على انه كان عطوفاً على هذه الطبقة من المرضى ويطيل التحدث اليهن بالارشادات والنصائح والتعليمات في طريقة استعمال الادوية . كما كان لا ينسى قط شراء بعض الاقمشة الرخيصة لايام الاعياد ليوزعها على الفقراء ممن يراجع العيادة الخارجية في

المستشفى الملكي . وكان يعتمد على مضمده (مهدي) اكثر مما يعتمد على معاونيه الدكتور احمد سهيل وعبد السلام عوني ، ولا يخاطبه الا بلقب (الافندي) ،

كان يشير دوماً ، بالتبجيل والثناء الى استاذه الفرنسي (لان — رانش) وينسب اليه كثيراً من الابتكارات في عمليات العين ومعالجتها ، كما كان اذا حكمت المناسبة يذكر ايامه في استانبول حيث درس الطب في مستشفى حيدر باشا ، ومقالبه مع رفاقه العراقيين في هذه الكلية وبخاصة مع فائق شاكر (الدكتور فيما بعد ذلك) كذلك يذكر بتلذذ ايامه الهنيئة حين كان طبيباً في دائرة سكك الحديد في الاناضول ولياليه الحمراء في عربات قطار ذلك الخط مع الارمنيات ، وحين عاد الى بغداد في اوائل سني العشرينات بقى كما كان في استانبول مرحاً واجتماعياً وذا اصحاب كثيرين حتى بعد زواجه من زوجته الفاضلة (ام نجلة الجلبية) ومن لهوه اجتماعاته المقننة مع اصحابه في نادي دجلة يلعبون الورق للمتعة لا للكسب فيسهرون دون وعي منهم الى ساعة متاخرة من الليل ، وحين يدخل بيته يدرك حينذاك انه قد تاخر كثيراً فتستقبله زوجته ام نجلة وفي عينها وسن مطبق ، فيسبقها الى العتب قائلاً :

— اسمعيني يا ام نجلة ، انا ما استحي ، انا ما عندي غيره .. انا ... انا ، الك شيء آخر تقولينه عني ؟

فتضحك زوجته وتقول :

— والله ما اعرف اكو شيء بعد لاقوله ، فقد ذكرت انت كل شيء .

ويقول لها :

— ام نجلة ، الحمد لله تفاهمنا .

وكان جلال العزاوي يحب الطرب ويأنس للمطربين ، واذكر ذات ليلة في حفلة اقيمت في بهو الامانة حضرها رئيس الوزراء مزاحم الباجه جي (١٩٤٨) وكنا ساعتئذ نتحلق حول استاذنا جلال العزاوي وكانه قائد جوقتنا لنستجيب لنوادره بالضحك والتصفيق بكل ما نستطيع من حرية وانطلاق ، ولما حانت وصلة الرقص الشرقي وتقدمت الفنانة الجميلة عفيفة اسكندر للغناء قال جلال العزاوي وقد تسمرت عيناه عليها .

— هذه هي ٦٩٣ ، ويومها كانت هذه الحبوب دواء يشفي (حسب اعتقاد العامة) جميع الامراض بما في ذلك العقم عند النساء ، ولم ينتظر جلال العزاوي

(الاستاذ) طويلاً حتى تناول سكينين من على مائدتنا وتقدم من عفيفة وهو يرقص بالطريقة الروسية ، فيضرب سكيناً بسكين ، ويضرب الارض برجل ثم يضربها بالرجل الاخرى ، وصرنا نصفق له ، ثم صار من كان حول حلبة الغناء يصفقون له بمرح ومديح ، مما اضطر الفنانة عفيفة ان توقف غناءها وتحاول ان تعمل مثلما يعمل كما صار الجوق الموسيقي يضرب على آلاته بانغام تناسق رقصات جلال العزاوي . وبعد لحظات تراخى موقف رئيس الوزراء مزاحم الباجه جي فاشترك مع من في البهو في الضحك والتصفيق . كان كل ذلك في سنة ١٩٤٨ ، وقد نقول ان جلال العزاوي فعل ذلك حين كان في عنفوان عمره غير انه بقى كما هو حتى آواخر عمره حين صار عميداً لكلية الطب .

رحم الله الدكتور جلال العزاوي رحمة واسعة

مجلس كلية الطب يطرد طالباً من الكلية / ١٩٦٧

التأم مجلس كلية الطب في اجتماع استثنائي طارىء لمناقشة حادث وقع في مطعم الكلية الطبية ، وملخصه ان احد طلاب الكلية اطلق عياراً نارياً من مسدس يحمله ، على سقف مطعم الكلية بينما كان طلاب الكلية يقيمون اجتماعاً يحتجون فيه على اعتداءات (اسرائيل) على العرب . في الاراضي التي احتلتها من فلسطين . وذكر احد اعضاء المجلس ان الطالب (فلان) هو الذي اطلق العيار الناري من مسدس يكثر من حمله حين يدخل الكلية ، كما ذكر ان هذا الطالب غير متزن وانه متهور ومشاكس ، وانه اعتدى يوماً بالفاظ غير مؤدبة على رئيس الوفد الذي يزور يومئذٍ ايران . وسأل عميد الكلية عضو المجلس عن هوية الطالب فعرفنا انه عربي من فلسطين . فاستدعى المجلس الطالب المتهم فنفى ان يكون هو الذي اطلق العيار الناري في مطعم الكلية كما دافع عمن فعل ذلك بوصفه حدث في لحظة حماس عجز عن كتمه ، وان من يتهمه يهدف من ذلك ضرب الطلاب الفلسطينيين من الخلف ، وقال غير ذلك بحماس شديد ، وحين طلب احد اعضاء المجلس ان يقسم انه لا يعرف من اطلق العيار الناري في مطعم الكلية ، اقسم بجرأة انه يدلي بكل ما يعرفه عن ذلك الحادث إلا ذكر اسم الطالب الذي اطلق النار ، وهو غير فلسطيني .

وسأل احد اعضاء المجلس ذلك الطالب الفلسطيني ؛

ــ تحب فلسطين ؟

فاجابه الطالب :

ـ هل هذا سؤال ياأستاذ ، وفلسطين امي وابي !

فعاد ذلك العضو يقول للمتهم :

ـ احلفك بدماء الفلسطينيين ان تذكر اسم من اطلق العيار الناري ، والا فانت لا تحب فلسطين .

ـ إستاذ هذا منطق مردود وارجو ان لاتغيظني .

وفي هذه اللحظات دخل سكرتير العميد واسر شيئاً في اذنه فالتفت العميد الى الطالب المتهم وقال له :

ـ طيب يابني ، وهذا يكفي .

وخرج الطالب من قاعة المجلس وخرج بعده سكرتير الكلية ، وقال العميد :

ـ ثمة شاهد عيان ذكره لي السكرتير ، وهو احد فراشي المطعم . واستدعى ذلك الفراش ، ودخل القاعة خائفاً متردداً . وبعد قليل ذكر اسم الطالب الذي اطلق العيار الناري ، فاستدعي الطالب للاستجواب امام اعضاء مجلس الكلية ، وسأله العميد عمن اطلق العيار الناري ، فاجابه على الفور :

ـ انا الذي اطلقته ياسيدي .

وبهت اعضاء المجلس لجرأته والتزموا الصمت لهذه المفاجأة .

وسأله العميد :

ـ الا تعرف ان ذلك ممنوع ياولدي ؟

فاجابه الطالب :

ـ اعرف ذلك .

ـ ولماذا فعلته ؟

ـ لانني لم استطع كبح اندفاعي وحميتي لفلسطين .

ـ عقاب ذلك الطرد ، هل تعرف ذلك ؟

ـ اعرفه ياسيدي ، ولكن حماستي لاتعرفه ، وعروبتي تنفيه .

وكان هذا الطالب جريئاً وصريحاً ، فعقل لسان العميد ، كما أسكت اعضاء المجلس فلم ينبس احد منهم بشفة .

وغادر هذا الطالب قاعة الاجتماع .

وبعد نقاش لم يطل كانت اكثرية اراء اعضاء المجلس بتطبيق نظام الكلية وطرده ما تبقى من اشهر السنة الجارية ، وهذا معناه ان يعد راسباً في امتحانات دروس هذه السنة .

وغادر اعضاء المجلس وهم ضائعون بين مشاعرهم المتضادة ، واي من اطرافها

مؤسف ومؤلم .

وفي صباح اليوم التالي اتصل عميد الكلية تلفونياً يرجو مني ان احضر جلسة غير اعتيادية طارئة ، في مجلس الكلية . وفي الساعة العاشرة صباحاً اي بعد نصف ساعة من تلك المكالمة التلفونية . دخلت قاعة المجلس فاذا قد سبقني اليها كافة اعضاء المجلس .

وافتتح العميد الجلسة يقول :

ــ في جلسة يوم البارحة تسرعنا مع الاسف في اصدار قرار طرد الطالب فارجو اليوم اعادة النظر بهذا الامر ، وتخفيف العقوبة الى (التوبيخ) . وسبقت زملائي من اعضاء المجلس اقول :

ــ كل ما استطيع عمله لاسناد موقف العمادة الجديد ان اعد (غائباً) عن هذه الجلسة . وغادرت القاعة لاكون امام (شخص) احبه على بعد واحترم مبادئه الحزبية ، فسألني :

ــ ماذا كان قراركم ياستاذ ؟

وكنت في تلك اللحظة اتمنى لو انني اتفقت مع من ارتأى تخفيف العقوبة في هذه الجلسة الطارئة ، فلم يسمع مني ذلك الشخصية كلمة ترضيه او لاترضيه واخذت طريقي الى قسمي في الامراض النسائية والتوليد بمستشفى مدينة الطب وانا مقتنع بقرار انني لاأصلح للاعمال الادارية في كلية الطب .

مقترح لانشاء كلية سريرية

رفعت الكتاب الاتي الى رئاسة جامعة بغداد برقم ١٤٥ وتاريخ ١٩٦٧/١١/٩

الى /

السيد رئيس الجامعة

بمناسبة قرب تدارس المناهج في الجامعة كما تبين في جدول اعمال المجلس العلمي ، فارجو ان يكون من المفيد ان ارفع الى سيادتكم هذه المذكرة التي ــ على ما ارى ــ لها علاقة بالمناهج وسير التدريس في كلية الطب .

الكثير مما يدخل في موضوع المناهج كتوزيع الدروس على سنوات الدراسة وتوضيح الحصص في فصول السنة او الامتحانات وما يتبعها ، او مايخص البحث العلمي والدراسات العليا ... اكثر هذه الامور يمكن اناطتها بالدوائر العلمية وعمادات الكليات . وباستطاعة الدائرتين ان تجدا افضل المناهج واسهلها عند التطبيق . اما

الامر الذي عجزت عن حله كلية الطب فهو مشكلة عدد اعضاء هيئة التدريس بالنسبة الى عدد الطلاب . ان النسبة المذكورة في الكليات الطبية الراقية تتراوح بين مدرس الى خمسة طلاب ومدرس واحد الى سبعة طلاب . وفي كلية الطب ببغداد تهبط هذه النسبة الى مدرس واحد لكل ٦٨ طالبا في بعض الدروس السريرية . وانعدام الفائدة العلمية بهذا الحال امر يطول شرحه ، وخلاصته ان اكثر من ثلثي الطلاب لا يفهمون شيئاً من الدروس المذكورة . والكلية تدرك خطورة هذا الحال وقد عملت على اصلاحه ما استطاعت ، كما ان الجامعة وهي الطرف الآخر والاهم في تحقيق رفع المستوى ، لا تستطيع وهي تحت ضغط حاجة البلد الملحة الا ان تقبل سنوياً اكبر عدد ممكن من الطلاب في الكلية . والاستفادة من مستشفيات وزارة الصحة الى محاولة للاصلاح ثبت انها غير عملية . كذلك نقل بعض ذوي المؤهلات الجامعية من منتسبي وزارة الصحة الى الملاك التدريسي الجامعة ليس في مصلحة الوزارة ولا من مصلحة المواطنين الذين يراجعون المستشفيات الحكومية . كما انه يترك هؤلاء الاطباء المنقولين بلا اعمال تطبيبية في المستشفى الجمهوري وذلك لكثرة الايدي العاملة من الاطباء في حقل التطبيب مضافا الى كل ماتقدم ان ضم اعضاء جدد الى هيئة التدريس لايساعد على حل المشكلة وذلك لازدحام الطلاب في اجنحة التدريس بدرجة لايمكن تحقيق الفائدة العلمية باي حال من الاحوال . ولان خطورة نسبة الطلاب الى المدرسين وضيق مكانات التدريس في السريريات التطبيقية متمثلة في السنوات الثلاث السريرية (العلوم الاساسية) . وفي الدروس التطبيقية اكثر مما هي في الدروس السريرية النظرية . على ما تقدم يكون من الممكن حل هذه القضية بفتح كلية طب اخرى في بغداد للمواضيع المذكورة فقط . مكونة من ثلاثة صفوف تقابل الصف الرابع والخامس والسادس في كلية الطب بالمستشفى الجمهوري . تقبل هذه الكلية من ينجح من الصف الثالث في الكلية الطبية . اي ان الطلاب بعد ان ينتهوا من السنوات الثلاث في كلية الطب يبقى نصفهم في الكلية نفسها لاكمال دراساتهم الطبية في المواضيع السريرية وينتقل النصف الثاني الى الكلية الطبية التي نقترح استحداثها لدراسة المواضيع السريرية كما يفعل النصف الذي بقى في كلية الطب . ولفتح هذه الكلية لايحتاج الامر الى اكثر من اربعة قاعات للدروس النظرية ، تشيد في احدى مستشفيات بغداد الكبيرة . اما ما يخص الدروس التطبيقية فمن الممكن الاستفادة من المستشفيات الكبيرة الثلاثة الموجودة في بغداد ، وفي كل من هذه المستشفيات طبيبان على الاقل هم بالتاكيد في مستوى علمي وجامعي ويمكن منحهم مرتبة تدريسية جامعية لحيازتهم على الشروط المطلوبة . وكل ماتحتاجه الكلية بعد ذلك هو نقل ثلاثة اساتذة في المواضيع الرئيسية

الثلاث (طب . جراحة . نسائية) من كلية الطب الموجودة الى كلية الطب الجديدة . للتوجيه والاشتراك في اعطاء الدروس النظرية . والتنظيم الذي ذكرته باختصار يحل كثيراً من المشاكل الاخرى التي تعاني منها كل من كلية الطب والمستشفى الجمهوري ، كازدحام الاساتذة في بعض الاقسام مما خلق اضطراباً في توجيه المسؤليات ، كما ان عددهم الكثير في بعض الاختصاصات لا يسمح باي حال من الاحوال بتطبيق النظام الهرمي في ادارة الاقسام وفي افادة الطلاب في الدروس النظرية والتطبيقية معا . كما يحتمل ان يخفف فتح الكلية في احدى مستشفيات بغداد من الضغط المتزايد على المستشفى الجمهوري الذي هو في الواقع مستشفى العراق لامستشفى بغداد بسبب وجود كلية الطب فيه وكثرة الاختصاصيين وتجاور دوائرهم في المستشفى . واخيراً ان فتح كلية اخرى في بغداد يثير التنافس العلمي بين الكليتين الى التفاضل ورفع المستويات العلمية والانضباطية . والفكرة التي شرحتها ليست مبتكرة فهي مطبقة في كثير من الجامعات المعروفة وفي لندن نفسها ثلاثة كليات في ثلاث مستشفيات ليس في احدها الا الصفوف السريرية اي الطلاب الذين اجتازوا السنوات الثلاث تحت السريرية في كليات اخرى . والواقع العملي في كلية طب بغداد هو ان المستشفى الجمهوري هو الكلية الطبية ، لان اكثر من ثلاثة ارباع اعمال التدريس السريري تتم في المستشفى الجمهوري ، كما ان دوائر اعضاء هيئة التدريس موجودة في المستشفى لا في بناية الكلية ، ولو توفرت في المستشفى الجمهوري ثلاثة قاعات فقط للمحاضرات السريرية لما بقي لبناية الكلية الطبية حاجة الى الوجود بالنسبة الى طلاب الصفوف السريرية ومدرسيهم .

من الواضح ان تطبيق فكرة فتح كلية طب في بغداد بالتنظيم الذي ذكرته يعتمد اولا واخيراً على موافقة وزارة الصحة وباستطاعة الوزارة لو عنت الموازرة ان تقوم هذه الكلية بمنتهى السهولة وذلك بتجميع ذوي المؤهلات الجامعية من منتسبيها الاطباء في المستشفى الذي تفتح فيه الكلية . او تجمعيهم في مستشفيين متقاربين كمستشفى الشعب والكرخ الجمهوري . وبنفس التنظيم الذي ذكرته تستطيع وزارة الصحة نفسها ان تفتح الكلية على ملاكها حينذاك لابد من موافقة جامعة بغداد وتعاونها على تزويد كلية طب الوزارة بنصف عدد الناجحين من الصف الثالث في كلية الطب كما اسلفنا ، وبتزويدها بثلاثة اساتذة في المواضيع الثلاث الرئيسية ثم الاعتراف بمستواها لمنح المراتب الجامعية بالنظام المعمول به في جامعة بغداد كذلك معاونتها على تبادل اعضاء هيئة التدريس فيما بين الاختصاصات المختلفة .

وتلاقي وزارة الصحة مع جامعة بغداد على تبني احداهما هذه الفكرة لا يغير من فائدتها للصالح العام وللطلاب وه.

أؤكد ان الدروس السريرية التطبيقية في الكلية فاشلة بسبب كثرة الطلاب وضيق مكانات التدريس وهو امر يعترف به اعضاء هيئة التدريس كما يدركه الطلاب ويشكون منه مر الشكوى . وارى ان الفكرة التي رفعتها كحل لهذه القضية تصلح للدرس والمناقشة . مع الاحترام .

الاستاذ كمال السامرائي

رئيس دائرة الجراحة

صورة منه الى /

عمادة الكلية الطبية

رئاسة دائرة الطب

العلوم الطبية الاساسية .

وعرض السيد العميد هذا المقترح على لجنة قوامها اعضاء كنت اعرفهم من اشد المعارضين لفكرتي ، كما وصلت مذكرتي للسيد رئيس الجمهورية ، غير ان السيد العميد استطاع ان يقنع السيد الرئيس بتجميد الفكرة فلم تقم لها قائمة .

الاستاذ كليفورد جونز في بغداد / ١٩٦٧

استزارت (دائرة الجراحة) بكلية الطب استاذ الجراحة في جامعة شفلد بانكلترا الدكتور كليفورد . جونس ليشارك في الامتحانات النهائية بهذا الاختصاص في كلية طب بغداد . وكالعادة اقيمت له عدة دعوات مجاملة من قبل اطباء الكلية . وبعد خمسة ايام غادر العراق وهو يحمل انطباعات جيدة عن العراق وعن الطلاب الذين امتحنهم . وقد اسرّ لي قبل سفره انه سيرسل الى الطالب الاول في امتحانات الجراحة كأساً فضياً من صنع معامل شفلد المشهورة باعمالها الدقيقة . فاتصلت مباشرة بامين جامعة بغداد لاستحصل موافقته على هذا التكريم وبعد اسبوعين وصلني كتاب من كليفورد جونس يفيد فيه انه بعث بالبريد الجوي الكاس الفضي الذي وعد به . وبعد نحو شهرين وصلني كتاب آخر يبدي استغرابه فيه برجوع الكأس اليه دون تفسير . فرفعت الى جامعة بغداد الكتاب الآتي :

الى /
السيد امين الجامعة

الموضوع /
استفسار

اشارة الى كتبنا المرقمة ٩٧ ، ١١٦ ، ٩ ، والمؤرخة في ١٩٦٦/٦/٢٧ ، ٦٦/٧/١٨ ، ١٩٦٧/١/٩ ، والى كتب عمادة الكلية الطبية المرقمة ٢٣٥ ، ٥١٧ ، ٥٥١ ، ١٢٠٨ ، والمؤرخة في ١٩٦٧/١/١٥ ، ٩٦٧/١/٣١ ، ٩٦٧/٢/١ ، ١٩٦٧/٣/٢٨ .

ربما يهمكم ان تعرفوا ان الكاس الفضي الذي تبرع به الاستاذ كليفورد جونس الى الخريج الاول في فروع الجراحة والذي وافقت الجامعة على قبوله . ان هذا الكاس قد وصل بالبريد الى بغداد قبل ثلاثة اشهر . ورغم الكتب المتبادلة بين هذه الدائرة وعمادة الكلية الطبية وديوان الجامعة وبين دوائر الكمرك ، لم نتمكن من استخراج الكاس . واكثر من ذلك اننا فوجئنا اخيراً بارجاع الكاس من قبل دائرة الكمرك الى مهديها في (شيفلد) باسكوتلندا بحجة تاخرنا في دفع الرسوم الكمركية .

ان هذا الحادث غريب ومخجل ايضا ، وربما يهمكم ان تطلعوا على تفاصيله واسبابه . مع الاحترام .

الاستاذ كمال السامرائي
رئيس دائرة الجراحة

صورة منه الى /
عمادة الكلية الطبية

الدكتور مظفر الزهاوي يتنبا بيوم وفاته ويحدث ذلك فعلاً ١٩٦٧/١٢/١٢

هذه حكاية ليست من صنع الخيال ، وليس فيها إفتراء على الحقيقة ، ولا زيادة في جزئياتها الغريبة ، واذا كنت انا راويها فثمة شهود حضروا وقائعها ، وهذا هو مختصرها .

كنت قد انتهيت من تشييد بيتي في الصليخ ، وصرت علي وشك ان انتقل اليه وكان بيني وبين نسيبي الدكتور مظفر الزهاوي ملاحاة في الدعابة والهزل ، ويلح عليّ

للانتقال الى بيتي الجديد وفي يوم الاثنين المصادف ٥/١٢/١٩٦٧ رن جرس التلفون في عيادتي بمستشفى السامرائي ، وكان النداء من الدكتور مظفر ، وهو يقول لي :

ـ إسمعني يا كمال ، البارحة كان ملك الموت (خطّار) عندي في البيت وأمرني ان أطلب منك ان تنتقل الى بيتك الجديد في خلال إسبوع وإلا فإنه سياخذ روحي .

فقلت لمظفر :

ـ روحك ولا روحي ، واقفلت التلفون .

وفي اليوم الثاني وبنفس الوقت تقريباً اعاد الدكتور مظفر طلبه مني واضاف :

ـ بلغني ان صديقك الشيخ مصطفى اسماعيل في بغداد الآن ، وسيكون جميلاً لو اقمت (مولوداً) في بيتك الجديد يقرأ فيه مصطفى اسماعيل . ولا أظن انه سيرد طلبك لو عرضت عليه ذلك . (واضاف) ولعلمك ان ملك الموت زارني خفيفاً في الليلة الماضية وامرني ان اطلب منك ان تنتقل الى بيتك الجديد ، ولم يبق من انذاره الا ثلاثة ايام .

فقلت له جازعاً :

ـ مظفر ، عندي شغل مع المرضى ، اتركني بالله عليك .

ولم اطل الكلام معه ، واقفلت التلفون . وهكذا صار يخابرني في مساء كل يوم وفي الوقت نفسه تقريباً . وفي يوم ١١/١٢/١٩٦٧ ، قال لي تلفونياً

ـ تالي وياك ، اخبرني ملك الموت ليلة البارحة ان لم يبق الا يوم واحد لآخذ روحك مالم ينتقل نسيبك كمال الى البيت الجديد ، تريدني اموت ؟ مروتك !

وفي مساء يوم الثلاثاء المصادف ١٢/١٢/١٩٦٧ وهو آخر يوم من الانذار اتصل بي الدكتور علاء الخالدي .

ـ كمال ، تعال الى عيادة مظفر

ـ علاء ، هذا مظفر سوالفه ليس لها نهاية ، اتركوني بالله عليكم .

فاجابني دكتور علاء بجد :

ـ لاياكمال تعال ، مظفر مات قبل قليل .

ـ ماذا تقول !

ـ نعم مات ، وتعال الآن .

وغادرت عيادتي في الحال الى عيادة الدكتور مظفر الواقعة فوق صيدلية (متو) بشارع الرشيد ، ومن بعيد وأنا اسوق سيارتي باتجاهها شاهدت تجمع الناس عند باب عيادة مظفر ، فهل الخبر صحيح ؟ وانحدرت من سيارتي . وصعدت السلم الضيق بين الصاعدين والنازلين عن عيادة الدكتور مظفر وعند مدخلها رأيت زوج ابنته اديب

جليمران ينتحب ووجهه الى الحائط . كما كانت على طاولة الفحص جثة المتوفي مظفر ، وقريباً منها كل من الدكتور علاء الخالدي وحسيب اوتجي ، وسألت حسيب كيف حصل ذلك فأجابني وشفتاه ترتجفان :

ــ امر غريب كان يتكلم معي عن (سيارته) وفجاة قطع حديثه معي واستلقى على طاولة الفحص ، وناديته ليكمل حديثه معي فلم اسمع منه جواباً . ونقل الجثمان الى بيته في الصليخ ، واقيمت الفاتحة على روحه في بيته . وبينما كنت في مجلس الفاتحة في يومها الاول أسرّ في اذني سائق سيارة مظفر واسمه كريم ، قائلاً :

ــ عند مدخل حديقة البيت مصري يطلب مقابلتك .

وخرجت الى باب البيت ، وبين هذا البيت ومدخل الحديقة مسافة غير طويلة ، فعرفت ذلك المصري في الحال ، انه الشيخ مصطفى اسماعيل المقرىء المشهور في البلاد الاسلامية ، وهرعت اليه ، وتقابلنا بالمصافحة والقبل .

ــ أنا يادكتور كمال عملت تلفون على بيتك فلم اسمع رداً ، واتصلت بمستشفاك فاخبروني ان عندك عزاء ، فقلت لنفسي والله لا اسافر حتى اراك ، واقرأ في عزاءك ، وها اني امامك ، والبقاء في حياتك ، وقدت الشيخ مصطفى اسماعيل الى داخل مجلس الفاتحة ، وكان في تلك الآونة (ملا مهدي) يقرأ من القرآن الكريم بنغم (الدشت) الرخيم ، وبعد قليل اشار اليّ الشيخ مصطفى ان اقوده الى مكان قراءة القرآن في المجلس ، ودخل ذلك المكان وخلع حذاءه وتربع على مقعد وطىء فيه ، وشرع هذا (البلبل) يغرد بالآية الكريمة (كل نفس ذائقة الموت) . وكنت وأنا ساهم اطوف في بحور هذه الآية الكريمة وبين موت مظفر الذي تنبأ به مظفر نفسه ، وبين مجيء الشيخ الى بغداد ليقرأ في فاتحة كما تمنى مظفر ان يقرأ في (المولود) الذي اراده ان يقام في بيتي الجديد . والفرق الوحيد في كل ما حدث وما قاله لي مظفر هو ان المقرىء مصطفى اسماعيل قرأ في القرآن الكريم في بيت مظفر لا في بيتي كما اراد مظفر . فما تفسير كل ذلك ؟

ان هذا الحادث غريب عظم الغرابة ، وانتشر بين اصحاب مظفر لا على لساني فقط ، بل على لسان كل من حسيب كريم وسائق سيارة مظفر اللذين كانا في عيادته يوم كان مظفر يكلمني فيها عن قرب وفاته ، وساعة لفظ انفاسه الاخيرة .

دائرة الجراحة
الرقم ١٥٥
التاريخ ١٩٦٧/١٢/٦
١٠٣٨
الى /

السيد رئيس جامعة بغداد

الموضوع /

بيان رأى حول امتحانات التخرج

اشارة الى كتابك المرقم ٤٦٩٤٨ والمؤرخ في ١٩٦٧/١١/٤ .

ان توحيد الامتحانات النهائية بين كليتي طب بغداد وطب الموصل مبدأ فيه كثير من الفوائد . وربما تتحقق اكثر فوائده اذا التفتنا الى ماياتي :ــ

١ ــ المفهوم من كتاب رآسة جامعة الموصل المشار اليه ، ان الجامعة تستطلع رأينا في استمرار اجراء الامتحانات الموحدة بين الكليتين دون عرض رأيها الخاص بهذا الامر . على هذا ربما يكون من الاصلح لو يدرس هذا الموضوع في المجلس الاعلى للجامعات باعتباره موضوعاً مشتركاً بين الجامعتين يدخل في اختصاص المجلس وحده وتشريعه من قبل المجلس اضمن لتحقيق فوائده من تكرار دراسته في كل عام وعلى مستويات الدوائر وحدها .

٢ ــ توحيد الامتحانات الشفهية والسريرية بين الكليتين هو ادق مقياسا لتقدير المستويات العلمية وتبادل التعارف على مفردات المواضيع التي درست في كل كلية من توحيد الامتحانات النظرية (الكتابية) . فهي اي الامتحانات السريرية والشفهية تفي الى حد كبير بالغاية المطلوبة من الامتحانات الموحدة بين الجامعتين .

٣ ــ تطلب الدوائر او الهيئات في الجامعتين من بعضهما عدد ما يكفيها من اعضاء هيئة التدريس (دون ذكر الاسماء) لاجراء الامتحانات الشفهية والسريرية . والدوائر او الهيئات المختصة هي التي ترشح من منتسبيها من يشارك في الامتحانات بالكلية الاخرى .

٤ ــ توضع الاسئلة في الامتحانات الكتابية مناصفة بين الدوائر او الهيئات المعنية في الكليتين ، باطلاع واقرار رئيسيهما حسب تبعية الموضوع . على ان يكون العضو التدريسي الذي يضع السؤال في الامتحان هو نفسه الذي يصحح الاجابة عنه في الورقة .

٥ ــ تبدأ وتتم الامتحانات السريرية في وقت ويوم واحد في كل من الكليتين اما الامتحانات السريرية فلا قيد في توقيتها وتواريخها الا ان تكون بعد الانتهاء من الامتحانات الكتابية .

وتقبلوا وافر الاحترام

الاستاذ كمال السامرائي
رئيس دائرة الجراحة

صورة منه الى /
السيد عميد الكلية الطبية
رئيس دائرة الطب
رئيس دائرة العلوم الاساسية الطبية

مفكر في التلفزيون اللندني / ١٩٦٨

ما اروع التلفزيون اللندني ، فيه تسلية غير محدودة لاهل هذه الديار ولمن يفدها من الناس حتى لو انهم لا يعرفون اللغة الانكليزية إلا بقدر محدود . ففيه يسمع ويرى الاحداث العلمية يوماً بيوم ، وفيه معلومات غطاها الزمن والنسيان ، وفيه تشاهد الالعاب المثيرة والممتعة ، كما تشاهد مناظرات العلماء وجدل السياسيين بكل صراحة ، وكثير من اجناس البشر وغرائب المخلوقات .

وكان من مناهج مساء يوم ١٩٦٨/٧/١٢ في القناة T.V. 11 مقابلة بين احد المفكرين البريطانيين واسمه (ولسون تيلر) وبين مناقش من دائرة التلفزيون . وقد بدا ولسون تيلر بعمر يتجاوز السبعين سنة ولولا لحيته الكثة لبدت غضون وجهه اكثر من هذا العمر الطويل . كان بطيء الكلام ، واطيء الجرس متعب الانفاس ، ويضع على قصبة انفه عوينات صغيرة باطار معدني دقيق ، ويرتدي قميصاً خشناً ومخططاً بلون بني فاقع ، اما لونه الغالب فرمادي غامق . ويرتدي فوق قميصه سترة داكنة لايستبان نوعها ولا لونها ، وينسدل من ياقة قميصه رباط قريب من لون سترته . اما الشخص الذي يحاوره فكان شاباً في نصف عمر الشيخ ولسون تيلر او اقل ، منكوش الشعر ، ويرتدي قميصاً فيروزي اللون تمتد فتحته الامامية الى ما تحت اسفل صدره ، فيظهر بين شقيه سلسلة رقيقة تتدلى من رقبته وتنتهي بقرص لم اعرف ما عليه . كان هذا الشاب صورة مناقضة لشخصية الشيخ ضيف البرنامج ويبدو ان هذا الشيخ كان يوماً ما يمتهن التعليم وان ذلك الشاب الذي صار يناقشه كان احد تلامذته ، فقد بدأ التحدث الى ذلك الشيخ بقوله :

ــ يسرني ياأستاذي ، ويدعوني الى الفخر ان اكلف بمحاورتك في هذا اللقاء ، فانا درست عليك في مطلع شبابي ، فهل لا تزال تمارس التعليم وانت بعمر متأخر ياروبرت وهذه هي لغة التخاطب التي تظهر على شاشة التلفزيون البريطاني ، فليس فيها القاب ولا تمنطق في اللهجة الكلامية بل في تحدثهم ببساطة وصراحة وصميمية .

فأجابه الشيخ .

ــ انا انقطع الآن الى تدوين سيرتي وافكاري في الحقول التي مارستها في تعليم الشباب ايام زمان ، وفي ذلك متعة لي تخفف كثيراً من همومي واتعابي .

ــ هل لديك هموم ياأستاذي روبرت ؟

ــ الذي يتجاهل همومه وهو في مثل عمري فماضي حياته هباء وبلا لون واضح .

وعاد الشاب يسأله :

ــ الا تتوق نفسك الى التعليم الذي كان مهنتك على مدى نصف قرن ؟

ــ وقفت الآن على حقيقة نفسي ، فانا مستمر في التعليم بطريقتي الخاصة في ما لو يقرأ الشباب كتبي

ــ وهل انت مرتاح لما قدمته للاجيال ؟

ــ ليس كل الارتياح .

ــ اي شيء يقلق راحتك بعد ان صرت من البارزين قطرياً في ميدان الفكر !

ــ ربما انا من البارزين في المملكة المتحدة ، وقد حاولت ان اضاهي احد العلماء الاولين ذوي الاصالة في الفكر والمبادرات الرائعة ، غير اني لم انتهز الفرصة التي تأخذ بيدي الى مثل مناصبهم العالية ، وقد لمست بأسف خسارتي في هذا الميدان في وقت متأخر في حياتي ــ

ــ ومن هم العلماء الذي قصدتهم ؟

ــ افلاطون وارسطو والغزالي وابن رشد .

ــ الا تعتقد ان لهؤلاء الذين ذكرتهم شكاوي في الفكر وتطبيقاته مثلما تشكو منه .

ــ في ذلك احتمال كبير ، وانا اشكرك اذ هديتني الى عذر يسليني ، فلكل شكواه ، وصاحب الفكر لا يفيد نفسه بقدر مايفيد غيره ، ولكن ذلك ليس مصدراً لشكاواه باي حال .

وغير الشاب خط اسئلته .

ــ ماذا تتمنى ان تكون لو انك لم تعني بالفكر ؟

فأجابه الشيخ :

ـ لااريد ان اكون غير ما انا فيه الان .
وعاد الشاب يسأله :
ـ والخيار الثاني لتكون فيه .
ـ ان اكون رجل دين ، فالدين افضل الوسائل لتعديل خطى البشر واصلاح سيئاتهم ، ومع ذلك لا اراهم يستخدمون حصانتهم كما يجب وعلى سعة مداها ، ولو كانت لي مثل حصانتهم لعملت لصالح الانسان اكثر مما يعملون .
وسأله الشاب :
ـ الا تغريك المهن التي تدر على صاحبها الاموال
ـ الى حد يسير ، واتجنب التفكير بها لاتحاشى الوقوع في حبائلها .
ـ الا ترى في كماليات العيش ما يوفر الراحة والسعادة ؟
ـ الراحة قد تكون ، اما انها توفر السعادة فلا .
ـ هل انت سعيد بحياتك ياروبرت :
ـ انا لا اشكو من شيء يا صديقي ، ولكنها شكاوي عابرة لا اهتم لها كثيراً ، ومن لا يشكو من بعض ما يجري له وحياة من يعايشهم فانه عديم الاحساس .
وتهيأ الشاب المحاور ان ينهي المقابلة مع هذا الشيخ فقال له : سؤال آخر .
ـ عرفت انك لم تتزوج ، الم تجد من تحبك وتحبها في حياتك ، ام لذلك سبب آخر .
فاجابه الشيخ روبرت :
ـ الفت فتاة حتى صرت اعتقد انها رفيق ضروري لي ، واخيراً لم اعرف فيما اذا كنت احبها ، وربما كان شعورها نحوي كان مثل ذلك ايضاً ، فلم نتزوج .
وسأله الشاب :
ـ اية نصيحة تسديها للشباب امثالي يا روبرت ؟
وغلبت في جوابه ضحكة مكتومة وهو يقول :
ـ ليس عندي لهم نصيحة بل رجاء .
ـ وما هو هذا الرجاء ؟
وقال وهو يخنق ابتسامة على فمه :
ـ ان لا يعدونني خرفاً حين يقرأون لي في الصحف وما انشره من مؤلفاتي .

دائرة الجراحة في جامعة بغداد ١٩٦٩

استحدثت الدوائر بموجب قانون جامعة بغداد ، فكان منها دائرة الطب وتشمل الامراض العقلية والعصبية وطب الاطفال ، ودائرة الجراحة وتشمل الجراحة العامة

وجراحة العظام والمفاصل وطب الاذن والعيون والحنجرة والانف والامراض النسائية والتوليد وصدر الامر بتعييني رئيساً لهذه الدائرة الواسعة . وفي هذا الامر ما يفيد ان الدائرة تكاتب الجامعة مباشرة دون وساطة العمادة بوصف ان الدائرة تختص بالشوون العلمية في الكلية ، وان العمادة تختص بالشؤون الادارية ، وهو تصريف غير واضح عند التطبيق وقد سبب اضطرابات في شؤون الكلية وحساسية لعميدها الدكتور داود سلمان علي ، غير ان الدكتور داود سلمان علي كان حليماً وحكيماً فسكت على خطأ هذا التنظيم وعد الوقت وما يحدث من الاضطراب في تمشية شؤون الكلية كفيل ان يحل هذه العقدة وفي يوم ١٩٦٨/١١/٢٩ صدر قانون الجامعة الجديد برقم (١٨) وفيه تجاهل تام لوجود الدوائر في الجامعة ولم يصل هذا الكتاب الى دائرة الجراحة فرفعت في يوم ١٩٦٨/١٢/٢٩ الكتاب الآتي (برقم ٥٧) الى

السيد رئيس جامعة بغداد

لم تبلغ هذه الدائرة بصدور قانون الجامعة الجديد رقم ١٨١ لسنة ١٩٦٨ . ولا وصلنا امركم فيما يجب عمله بعد الغاء الدوائر العلمية تنفيذاً للقانون المذكور رغم مرور ما يقارب اثنا عشر يوماً على نشره في الجريدة الرسمية ، مما جعلني اعتقد ان الغاء هذه الدائرة اصبح امراً بديهياً لا ضرورة للامر بتنفيذه . لذلك ارجو ان لا اكون متاخرا لارفع الى علمكم انني ـ تطبيقا للقانون الجديد الذي اطلعت عليه اليوم صدفة ـ سوف اتوقف اعتباراً من هذا التاريخ عن العمل في هذه الدائرة .

اعبّر عن امتناني لسيادتكم وللسادة رؤساء الجامعة السابقين وعن شكري لزملائي عمداء كلية الطب واعضاء هيئة التدريس في دائرة الجراحة لما قدموه لي من مساعدات قيمة مدة قيامي بواجب رآسة هذه الدائرة .

الدكتور كمال السامرائي

رئيس دائرة الجراحة

صورة منه الى /

عميد كلية الطب

رئيس دائرة الطب

رئيس دائرة العلوم الاساسية

اعضاء هيئة التدريس في دائرة الجراحة

ولم يصلني جواب من رئيس جامعة بغداد على استعلامي عن الدوائر بكلية الطب ، فاعتبرتها ملغية وعملت بموجب ذلك ، اي ان شعبة الامراض النسائية

والتوليد عادت تكاتب عمادة الكلية الطبية لا رئاسة جامعة بغداد .

طبيب مقيم في مستشفى السامرائي / ١٩٦٨

هذا الطبيب المقيم الجديد في مستشفى السامرائي هو من خريجي كلية طب بغداد ، واحد ثلاثة اطباء مقيمين يتناوبون العمل في هذا المستشفى غير انه لم يكن جدياً مثل زميليه ، ولا حريصاً على اداء واجباته باوقاتها ، مما جعلني لا ارتاح اليه . ويوماً دخلت غرفة الاطفال ورأيته يدردش مع ممرضة هذه الغرفة ، بينما كان عليه واجبات اخرى في غرف المرضى لم يكن قد اكملها بعد ، بل لم يبدأ بها قط .. وتظاهرت انني لم اعبأ بخلوتهما ولكنهما دون شك قد عرفا انني لم استسغها . كان هذا الطبيب غراً مدللًا من اهله ، وذا ثراء من اهله ، وسيارته من الصنف الغالي الثمن ولذلك لم اتوقع له مستقبلًا في الطب ، وفي نظري لن يكون طبيباً . ولانني كنت اكن لهذه الممرضة تقديراً خاصاً ، واتمنى لها نجاحاً في مهنتها وحياة سعيدة لو تزوجته ، لذلك فكرت في ان انصحها بالحذر من هذا الطبيب ، فليس فيه ما يغري من وسامة الرجال شيء ، وهو لايعرف من الطب بقدر مايعرف عن انواع الطيب وثياب الحرير . وهذه الممرضة على عكسه ذكية وتحب مهنتها ، هل اكلمها ؟ واذا لم تستمع الى نصيحتي ، كما يحتمل انهما قد مشيا خطوات واسعة في صداقتهما اكثر مما رأيته في غرفة الاطفال . وحدثت المفاجاة غير المتوقعة في يوم رأيتهما معاً في سيارته الفارهة ، وفي اليوم ذاته سمعت انهما اعلنا خطبتهما ، فتعين علي حينذاك ان ابارك زواجهما الوشيك ، وقد فعلت ذلك بأسف مكبوت وسافرا الى انكلترا ، وسمعت بعد ذلك انه دخل امتحان العضوية في الكلية للامراض النسائية والتوليد فلم ينل هذه الشهادة ، وكرر محاولته ثلاث مرات دون جدوى ، واخيراً التجأ الى ممارسة التجارة مع ذويه في لندن ، وهكذا لم يصبح هذا الرجل طبيباً كما توقعت .

اطول استشارة طبية / نيسان ١٩٦٨

كانت هذه المريضة تزورني بانتظام في كل شهر ، واحياناً اكثر من مرة في الشهر الواحد ، وكنت اعرف وهي كذلك تعرف انها مصابة بورم ليفي في الرحم ، وانها قد تسقط بسببه ،او لا تسقط ويستمر الحبل حتى يوم الولادة وهذا اقل الاحتمالات ، ولذلك كان يداهمها القلق لكل عارض طبي حتى لو كان لا علاقة له بالرحم والحبل ، هي حريصة اشد الحرص على الحصول على طفل من هذا الحبل ، ويزداد حرصها

وقلقها كلما تذكرت انها تخطو الى بداية العقد الرابع من عمرها ، فقد يكون هذا الحمل آخر مايمكن ان يكون مثله في حياتها ، ويوم اتصلت بي تلفونياً واخبرتني انها في حالة نزف فنصحتها ان تنقل الى مستشفى السامرائي لافحصها هناك ، وانتظرت حضورها ساعة واكثر ، ولم ارها في ذلك اليوم بطوله ، ولا في اليوم التالي وفي اليوم الثالث اخبرني زوجها انها في مستشفى الفردوس وهو مستشفى صغير حكومي مجاور لجامع الشهداء ، فقلت له هذا هو الصواب في معالجتها ففي المستشفى تجد من المراقبة والعناية الطبية مالم تجده في بيتها ، وماكدت انتهي من كلامي حتى قال لي :

ــ ولكنها لاتزال تنزف بالرغم من ان طبيبها اجرى لها عملية جرف الرحم .

ــ ومن هو طبيبها ؟

ــ هو صديقنا الدكتور (أ ف)

ــ هو كفوء فاعتمد عليه .

ــ ولكنه اقترح حضورك لتتشاورا في امرها .

وحاولت ان اتهرب من اقحامي في مشكلتها ، فالمريضة لم تعد مريضتي بعد ان دخلت المستشفى ، فقلت له ان التقليد الطبي ان يطلبني طبيبها المعالج بنفسه غير انه سبقني وقال :

ــ ها هو الدكتور (أ ق) يكلمك ..

واستجابة لطلبه قصدت مستشفى الفردوس حالاً ، ودخلت غرفة المريضة انتظر طبيبها الدكتور (أ) ، وفي اثناء ذلك لاحظت على طاولة المريضة عدداً من قناني الادوية ، ودخل الغرفة الدكتور (أ) وهو يعتذر عن تاخره ، ثم فاجاني يقول وهو يشير بيده الى الادوية .

ــ انا لم اصف هذه الادوية للمريضة .

ــ من الذي وصفها اذن ؟

ــ الدكتورة ...

ــ كنت أعتقد انك طبيبها .

ــ وانا كنت اعتقد ذلك ايضاً واكتشفت اليوم صباحاً ان الدكتورة . (ل) تحضر في كل مساء لفحصها وتزويدها بتوصياتها . فاعذرني اذا انسحبت من مسؤولية علاجها وقد جئت الآن كمدير للمستشفى لا كطبيب معالج .

وبعد يومين اتصل بي زوج المريضة وانباني ان زوجته قد غادرت المستشفى وهي الآن في البيت ، غير انها تشكو من الحمى . ولان بيني وبينهما علاقة حميمة قديماً فلم استطع عدم الذهاب اليها وفحصها . فوجدت الرحم حسّاس بالتلمس . واستمرت

الحمى بالارتفاع وفي اليوم الثاني اقترحت ادخالها مستشفى السامرائي . وعرفت في اليوم الثاني ان الدكتورة (ل) إستمرت تزورها في هذا المستشفى ، ورأيت احتمال ان يحدث تضارب وتضادد في علاجاتنا لهذه المريضة فاقترحت على الزوج ان يطلب من الدكتورة (ل) ان تحضر للمداولة في امر زوجته ، وللغرابة فقد بدا على الدكتورة استغراب من ان اكون طبيب هذه المريضة دون علم منها ، ودخل الزوج فيما بيننا واقترح استدعاء الاستاذ هريكريفز للمشاركة في هذا اللقاء ، وحين حضر هريكريفز ذكر الزوج ان الدكتور سالم الدملوجي هو طبيب العائلة ، فاقترح هريكريفز حضوره . واستعرضت حالة المريضة امام هذا الحشد من الاطباء وزاد الدملوجي على ما ذكرته . مما كان يعرفه عن المريضة وتطور علائم واعراض مرضها ، فاذا هو طبيب آخر كان يعالج هذه المريضة . واهم ما عرضه :

(١) عمرها في الاربعين .
(٢) اسقاط ذاتي في الاسبوع العاشر ، اكمل بعملية الكحت قبل اسبوع .
(٣) ورم ليفي رحمي لم يكتشف إلا اثناء عملية الكحت
(٤) حمى في اليوم الرابع بعد هذه العملية .
(٥) الحمى في ارتفاع ونبض المريضة جاوز ١٥٠ في الدقيقة .
(٦) المريضة تعالج بمضادات الحياة بجرعات كبيرة .

واهم ماتناولته هذه الاستشارة الطبية

(١) الاستمرار على استعمال المضادات .
(٢) العلاج الجراحي برفع الورم .
(٣) الحمى بسبب تحولات حمراء في الورم ولابد من رفع الرحم .
(٤) رفع الورم والرحم معاً .
(٥) نحافظ على إبقاء الرحم لان المريضة تتامل حبلًا ثانياً .

وطال الجدل على هذه النقطة ، وطلبت تسجيل مقرراتنا فاتفق معي هاريكريفز على العلاج الجراحي واحتمال رفع الرحم وإختلف كل من الدكتورة والدملوجي ، وعرضنا الرأيين على الزوج وسألني ، وانت ماذا تقول : فقلت :

العلاج الجراحي .

وسأل الدكتورة .... فقالت :

ــ الاستمرار على العلاج الطبي .

فاضطررت ان اقول لهم ان من يدافع على العلاج الطبي هو الذي يتحمل المسؤولية فيكون بذلك من يرى العلاج الجراحي في حل من المسؤولية

فقالت الطبيبة :

ــ ان المريضة من اعز صديقاتي ، والآن انسحب وليس لي رأي في علاجها .

ودهشنا لهذا القرار المفاجيء ، وحلاً لعقدة هذا الموقف اقترح الزوج استدعاء الدكتور (سلمان فائق) وهو اشهر جراحي بغداد ، وصار علينا ان نبدأ قصة هذه المريضة من جديد ، فقال الدكتور سلمان ارى ان نتخلص من الورم وقد نضطر بعد مشاهدة الرحم ان نتخلص من هذا العضو ايضاً .

وقد وجدنا الرحم والورم اللبفي قطعة حمراء متماسكة واحدة . وكذلك الرباطان المريضان ، كما كانت ثمة خثر دموية تملأ كثير من الاوعية الدموية . فقلعنا اعضاء الحوض جميعها ومنها احد المبيضين الذي وصله التخريب عن طريق الرباط المريض .

وفي اليوم الثاني انخفضت حرارة المريضة ، وغادرت المستشفى في اليوم الخامس وعلى وجهها الشاحب الشكر لله على سلامتها من الموت ، اما ما في داخلها فلا يعلمه إلا علام الغيوب .

حلم ام حقيقة

عدت الى بيتي بعد منتصف ليلة ١٩٦٩/٤/١٢ ، وحين ترجلت من سيارتي كان الدار يلفه الظلام ، إلا نور وصلني خافتاً من مصباح (هوله) ، وفجأة تنبهت لي كلبتي الذكية (بومبي) وهي تدفع رأسها من بين بالقون مدخل البيت ، وهممت تريد ان تنبح ، فقلت لها بصوت خافت :

ــ أنا يابومبي ، فلا توقظي النائمين في البيت ياعزيزتي ، اريدهم يبقون نائمين .

وهدأت بومبي الذكية ، ثم سحبت رأسها من بين قضبان سياج البالكون وهرولت مسرعة الى داخل البيت لتستقبلني عند بابه وهي جذلة كما تفعل دائماً عند عودتي الى البيت . ودخلت غرفة نومي وخلعت ملابسي بهدوء ودسست نفسي تحت اغطية سريري ، ولا ادري متى غفوت فقد كنت متعباً وقلقاً على مريضة كنت قد اجريت لها عملية لم تكن سهلة . واستيقظت مبكراً كعادتي ، وباركتني زوجتي هذا الصباح بنعومة ذات معنى .

ــ كمال ماذا كان عندك ليلة البارحة ؟

واردت ان اقول لها : ليلة حمراء بدأتها في ملهى الفارابي وانهيتها بليالي الصفا ، ولكنني لم اقل لها ذلك ، بل كتمت غيظي . فسؤالها خالد لاتنسى ان تكرره في مثل تلك الليلة ، فاي شيء يبقيني خارج بيتي الى ما بعد منتصف الليل غير العمل في

المستشفى ، ولما لم اجبها على سؤالها ادركت على مابدا لي سماجة سؤالها ، فارادت ان تصحح ظنوني به فانحرفت الى اسوأ منه ، إذ قالت :

ـ كنت تتكلم وانت نائم ، هذا كل ما أقصده .

فقلت لها هازئاً :

ـ انا اعرف انك لم تقصدي غير ذلك ، ولكني ماذا قلت في نومي ؟

ـ قلت اشياء كثيرة .

ـ مثلًا ؟

ان بعض الاحلام كثيراً ماتتواصل مع الحقائق ، فيظهر بعضها قبيل اليقظة وكانه جزء منها تماماً كما تطفو بعض اجزاء الغريق على سطح الماء ، ولكنها اجزاء منه لا كل اجزائه ، وقد تكون هذه الاجزاء جوهره الصالح ، فعدت اسأل زوجتي .

ـ ماذا قلت ، مثلًا :

ـ كنت تكلم شخصاً :

ـ قلت لها ماذا قلت ؟

ـ قلت اتصلي بي .

ـ هذا حلم ، وانا لااضبط تفاصيل احلامي ، الذي اذكره منها هو القسم المخيف او المفزع جداً ، اما غير ذلك فمن نسيج الخيال لا يبقى منه في ذاكرتي شي .

وعادت تسالني :

ـ هل كان بينكما وعداً لتتصل بك .

ولما رأيتها جادة في اسئلتها ، رأيت من الحكمة ان لا اجيبها ولاانصت لها . ونهضت من فراشي لأهيىء نفسي للذهاب الى المستشفى ورؤية مريضتي التي تركتها وانا قلق عليها . واتجهت نحو كراج سيارتي لاستقلها . حين ذاك سمعتها تقول مستعلمة .

ـ الا تريد ان تتناول فطورك قبل ان تذهب الى المستشفى ؟

ولم اجبها وسقت سيارتي خارجاً من البيت .

ضروب من التشوهات الخلقية في الاعضاء الانثوية / ١٩٦٩

في اسبوع واحد من هذا الشهر (تشرين الاول ١٩٦٩) شاهدت مريضتين بشكوى تشوه في الاعضاء الانثوية الخارجية بحيث لاتصلح اي منهما ان تكون زوجة لرجل من وجهة العلاقة الجنسية . وقد هجرتا بعد ايام قليلة من ليلة الزفاف للسبب المذكور ، وقد شاهدت قبل ذلك ثلاث حالات مماثلة كانت احداها طبيبة تخرجت

حديثاً في كلية طب بغداد ، وقد دخلت عيادتي والدمعة في عينيها خجلاً ، مما ستعرضه عليّ ، ولها الحق إذ هي انثى من كل الوجوه ، جسماً ومحيا وأدباً وعلماً إلا في ادق ما يمكن ان يجعلها مثالية لزواج سعيد . كما استشارتني مريضة فلاحية الهيئة بشكوى سلس البول ، فتبين لي بعد الفحص ان هذه المريضة التعيسة مصابة بتشويه خلقي في اعضاؤها الانثوية الخارجية ومن بينها عدم وجود المهبل ، غير ان زوجها الجاهل استمر يحاول ايلاج عضوه في مكان فرجها فحصل من تكرار هذه المحاولة توسع في فوهة احليل مثانتها وصار هذا العضو والمثانة بمقام الفرج في علاقته بزوجته وهكذا فقد الاحليل القدرة على مسك البول ، والزوج لم يدرك اية نتيجة جاءت من علاقته غير الطبيعية بزوجته . وقد حاول استاذي كندي مرة او مرتين ان يعالج تشوهات المهبل على طريقة (ماكندو) غير ان النتيجة لم تأت مرضية له ولا لزوج المريضة ، وشغلت بالي منذ تلك الايام هذه الحالات ، وتكرار مشاهدتها بين حين وحين لم تدعني اتوقف عن التفكير في إيجاد طريقة لعلاجها مع علمي ان هذه التشوهات ما هي إلا وجه من وجوه التشوهات الخلقية الاخرى التي تصيب الاعضاء الانثوية الداخلية مع احتمال عدم وجود الرحم . اي ان اية عملية لتصنيع المهبل لاتحقق الانجاب وكل ما تأتى به هذه العملية هو جعل المريضة صالحة للمعاشرة الزوجية ، وشرعت اقرأ في الكتب والدوريات حتى عثرت ذات يوم في (كتاب الجراحة النسوية) لطبيب امريكي اسمه (كامرون) طريقة إبتكرها جراح امريكي اسمه (بولدون) ، فقرأت خطوات هذه العملية بامعان ودقة ، فبدا لي كانها ليست صعبة جداً . ففاتحت الاستاذ (عزت القيسي) مدير معهد الطب العدلي في تجربة هذه العملية على النساء الاموات اللاتي تحال اجسامهن من الدوائر المختصة الى دائرته ، وكان تجاوب الاستاذ القيسي سريعاً ، فأمر مضمد المعهد (عبد) ان يخبرني حالاً بوصول مثل هذه الحالات ، وقد اعطتني اول تجربة عملتها في معهد الطب العدلي فكرة ان العملية اسهل مما كنت اتوقع ، وهذا ماشجعني ان اطبقها على مريضة تشكو من هذا التشوه ، فمارستها على عشرين عملية من هذا النوع في مابين سنة ١٩٥٤ — ١٩٧٥ ، وكانت جميع هذه المريضات من الطبقة الفقيرة او المتوسطة الحال ، باستثناء واحدة كانت تمتهن التعليم في مدرسة ، وقد انجزت هذه العملية في (مستشفى السامرائي) ، اما غيرها من مثل هذه العملية فقد انجزتها في المستشفى الجمهوري او في مستشفى مدينة الطب . وإذ ان لمثل هذه العملية لابد من جراح معاون ، فقد ساعدتني كل عضوة في شعبة النسائيات مرة او مرتين في هذه العملية ، ومع ذلك لم استطع ان اثير في اي منهن رغبة حقيقية في اجرائها بانفسهن ، وقد يكون ذلك بسبب الوقت الذي يستغرقه

اجراؤها .

قانون التدرج الطبي والتعديلات المقترحة / ١٩٦٩

من فضائل الاستاذ صائب شوكت استحداثه لمشروع التدرج الطبي سنة ١٩٥٧ الذي صدر بصيغة قانون . وكان على المتخرج في كلية الطب بحسب هذا القانون ان (يقيم) ثلاثة اشهر في كل من العلوم السريرية (الباطنية والجراحية والنسائية) ليتدرب على استقبال المرضى الى الردهة ودراسة الحالة المرضية وعلاج بعض الحالات المرضية . كما كان عليه ان يقيم شهراً في كل من فروع الطب السريري (امراض العين والانف والحنجرة وامراض الاطفال) ثم يعين في احدى قرى القطر او اريافه مدة سنة بعدها يعود مقيماً اقدم في المستشفى الجمهوري واخيراً يلحق بالخدمة العسكرية مدة سنة او سنتين .

وفي يوم ١٩٦٩/١٢/١٦ وصلني من عمادة الكلية الطبية كتاب لابداء رأي في تسلسل فقرات قانون التدرج الطبي فأجبت العمادة بالكتاب الآتي :

قسم الامراض النسائية والتوليد

الرقم ٥

التاريخ ١٩٦٩/١٢/١٨

الى /

عمادة الكلية الطبية

الموضوع /

ابداء رأي في قانون التدرج

تعذر عليّ جمع القسم في هذه الفترة ، وفيما يلي رأيي الخاص بقانون التدرج الطبي رقم (١٥٩) لسنة ١٩٦٣ . ولا مانع عندي اذا اهمل هذا الرأي لكونه لا يمثل عموم اعضاء القسم .

١ ـ يضاف الى اللجنة الاستشارية عضو من كل من الاقسام السريرية في كلية طب بغداد اذا تعذر اضافة كل كليات الطب العراقية .

٢ ـ تؤجل الخدمة العسكرية الى ما بعد انتهاء الاقامة الدورية .

٣ ـ اذا اعفي المتدرج من الخدمة في المحلات النائية بسبب التحاقه باقسام العلوم الاساسية في احدى كليات الطب فلا يحق له الانتقال الى مركز آخر خارج الكلية الا بعد ان يخدم في المكانات النائية .

٤ ــ عند تعيين من اكمل التدرج في الاقسام السريرية ان يؤخذ رأي القسم الذي يعين فيه .

مع التقدير .

الاستاذ كمال السامرائي

رئيس قسم الامراض النسائية والتوليد

قسم الامراض النسائية والتوليد

التاريخ ١٩٦٩/١٢/٦

١٠٥٢

الى /

السيد عميد الكلية الطبية

اشارة الى كتابكم المرقم ٥٢٤٤ والمؤرخ في ١٩٦٩/١٠/٢٩ .

اعرض تقديري على اهتمامكم بموضوع مناهج التدريس في كلية الطب وعلى جهود اللجنة التي اختصت بدراسة هذا الموضوع المهم . والحقيقة ان اللجنة وفقت الى حد بعيد في وضع تقريرها من الوجهتين الشكلية والموضوعية وفي مايلي ملاحظاتي التي طلبتموها مني عن بعض ما ورد في التقرير :

(١) يفضل لو توضع مناهج التدريس استناداً الى معلومات احصائية في التكوينات الصحية والاجتماعية والصناعية التي يعمل بها البلد .

(٢) الاقلال من المحاضرات والاكثار من الدروس التطبيقية مبدأ عظيم في التعليم الجامعي على شرط ان يتوفر العدد الكافي من الاساتذة او ان يكون عدد الطلاب ما يناسب عدد الاساتذة الموجودين . وبخلاف ذلك فلا حيلة على مشكلة التعليم عندنا الا بالدروس النظرية ، وكثير من الجامعات ومنها جامعة لندن لا تزال الدروس النظرية فيها اكثر عدداً من الدروس التطبيقية . وقد ذكرت كل ذلك امام اللجنة حين استدعتني عند عرض موضوع النسائيات ، وايدت تقليص عدد الساعات النسائية النظرية بالشرط المذكور . الا ان اللجنة اثبتت في تقريرها تقليل الساعات دون الاشارة الى تقويم التعليم السريري كشرط اساسي للتقليل المقترح .

(٣) رغم ان هدف اللجنة كان لتقليص عدد الساعات النظرية في عموم المواضيع الا انني لاحظت من الجداول المرفقة ان التقليص لم يكن بارزا . وفي بعض المواضيع وقع العكس .

(٤) الحلقات الدراسية طريقة تعليمية لها فوائدها الكثيرة وهي تعويض او تقوية للدروس السريرية . وحبذا لو تعمم هذه الطريقة في كليتنا لانها قريبة جداً من اسلوب

التعليم الاسلامي والعربي القديم . واحياء هذه الطريقة بشكل من الاشكال يجعل من التعليم عندنا امتداداً لتقاليدنا العربية القديمة .

(٥) (التساوق) في التدريس مصطلح اوردته اللجنة كترجمة للمصطلح الانكليزي gmtghatnin الا ان (التساوق) في اللغة يعني التتابع او التسلسل في السير . ويطلق في الاصل على الماشية فقط وله معاني اخرى كثيرة لا يتقارب احدهما من المعنى الذي نريده من المصطلح الانكليزي . وربما يكون التعليم (المترابط) اقرب الالفاظ العربية الى معنى المصطلح الطبي المذكور .

(٦) أؤيد ان وضع موضوع التشريح في السنة الثانية من سني الدراسة افضل من وضعه في السنة الاولى . كما اعتقد بامكانية اتمام تعليم الموضوع في سنة واحدة شرط ان يتوفق الاساتذة الى حذف المعلومات التفصيلية والابقاء على المعلومات التطبيقية والمهمة في هذا الموضوع . الا انني اعتقد ايضا ان معرفة المهم والتطبيقي ليس اسهل من عملية اختصار المادة العلمية الى القدر الذي يستطيع ان يستوعبه الطالب في سنة واحدة ، كما لا تتوفر عندنا اليوم قدرات على وضع كتب او كراسات لهذه الغاية . اما مبدأ ان المحاضر يوجز في محاضرته ولكن المطلوب من الطالب هو معرفة كل ما في الكتاب المقرر (كما سمعته في اجتماع اللجنة فمبدأ خطر ارجو ان نبتعد عن تطبيقه .

ان طلاب الصف الثاني يرون الضياع الذين هم فيه بموضوع التشريح مما يبرر دراسة شكواهم للتوصل الى تسهيل تطبيق المنهاج او تعديله ان اقتضى الامر .

(٧) درس الاحصاء والمجتمع العربي وعلم النفس .

حضرت هذه الدروس واستمعت الى المحاضرين والى اسئلة الطلاب واستطيع ان اقول ان الوضع الصفي لم يعكس تفهم الطلاب لهذه المواد ، واعتقد ان اعادة النظر في توضيح هذه الدروس على سني الدراسة له ما يبرره .

الاستاذ كمال السامرائي
رئيس قسم النسائية والتوليد

التطريح الشفائي والتطريح الجنائي / ١٩٦٩

وصلني يوم ١٩٦٩/٦/١ كتاب من مدير الصحة الدولية الدكتور فولر بفراون (بازل) بسويسرا وفيما يلي نصوص الاسئلة التي وردت فيه :

(١) ماهي الطرق الجراحية المتبعة للاسقاط الشفائي EVTIC CUTIC في العراق .

(٢) ماذا يجب على الحامل عرضه للطبيب لاجراء عملية التسقيط الشفائي .

(٣) وماذا اذا طلبت المرأة عقد انبوبي الرحم لمنع الحبل ؟
(٤) هل في العراق تشريع لعملية الإسقاط الشفاني ؟
(٥) هي يخبر مدير المستشفى عن العملية المذكورة قبل اجرائها ؟
(٦) هل ان إسقاط الحمل المتعمد يعد جريمة في العراق ويعاقب عليها القانون ؟

وفي يوم ١٩٦٥/٦/٤ اجبت على الاسئلة اعلاه بالكتاب الآتي :

سيادة مدير الصحة الدولية ــ وزارة الصحة .

اشارة الى كتابكم المتعلق بطلب الدكتور (مولر) من مستشفى فراون سابستيان / بازل .

(١) ان الخطوات الفنية في جراحة انهاء الحبل الشقاقي THERAPEUTIC ABORSION ، وعقد الانبوبين التي نمارسها في العراق هي نفسها التي تمارس في اكثر بلاد العالم .

(٢) يستلزم لاجراء عملية الاسقاط الشفاني لكي تكتسب صفتها الشرعية تقديم تقريرين من طبيبين يؤكدان فيهما ضرورة انهاء الحبل لوجود مرض عضوي او عقلي مما يؤثر اذا استمر الحبل على سلامة الام او على سلامة الجنين .

(٣) في حالة عقد الانبوبين يجب موافقة الزوج خطياً فضلاً عن طلب زوجته الخطي لإجراء العملية .

(٤) المادتان الاخيرتان ليستا قانونيتين اي ليس لهما قانون يلزم اتباعهما في عملية التسقيط الشفاني ، الا انهما صارتا عرفاً تقليدياً لضمان الاستطباب الملزم لاجراء هذه العملية .

(٥) في المستشفى الجمهوري تكتب رئاسة شعبة التوليد والامراض النسائية الى مديرية المستشفى لاطلاعها على اجراء هذه العملية . اما في حالة عقد الانبوبين لمنع الحبل فلا يرفع موضوعها الى ادارة المستشفى .

(٦) اسقاط الحمل دون استطباب جريمة يعاقب عليها القانون في العراق ، وليس الامر كذلك في عقد الانبوبين .

الدكتور كمال السامرائي
رئيس شعبة الامراض النسائية

وفي يوم ١٩٦٥/٦/٧

إتصل بي تلفونياً ، مدير المعهد العدلي الدكتور وصفي محمد علي واخبرني ان وزارة الصحة طلبت منه وضع مسودة تشريع للاسقاط الشفاني ، (واضاف) انه يحبذ لو

اشاركه في وضع صيغة التشريع ، وبالرغم من اني ابديت له استغرابي من عدم إحالة هذا الموضوع الى شعبة النسائيات التي هي صاحبة الشان والرأي والمعلومات حول هذا الموضوع ، فقد حددت له موعداً لوضع صيغة التشريع المطلوب ، فكان مضمونه ليس اكثر مما كتبته للدكتور مولر إلا في بعض التفصيلات الجزئية .

ورأيت من باب الادب المهني ان اعرض ما وضعناه على مجلس رئاسة الشعبة لاطلاع الاعضاء عليه ، وفوجئت بمعارضات ضد فكرة التشريع المذكور من بين الاعضاء اقل ما اقول عنها انها شكلية ولا تضمها القواعد العلمية ، ولما رأيت موقف الاعضاء غير المستقر على رأي قلت لهم حينذاك اني كلفت بمشاركة دائرة الطب العدلي في وضع بنود التشريع بطلب منها وجّه اليّ شخصياً لا الى اعضاء هذه الشعبة وعلى ذلك فلن استمر في المناقشة غير المجدية وسأرفع تقريري الخاص الى دائرة الطب العدلي . وهذا ما فعلته .

وانتظرت صدور التشريع موقعاً من السيد وزير الصحة إسبوعاً واسبوعين وثلاثة ، فعرفت انه حفظ في الملفات المهملة ، وقد يكون لم يقرأ ابداً . وبقي موضوع الاسقاط الشفائي عرفاً ارتجالياً لا يخضع لتعليمات او الى قانون الى هذا اليوم (مايس ١٩٦٩)

على اني اثرت هذا الموضوع بعد ثلاث سنوات كما سيجي ذكر ذلك في حوادث سنة ١٩٧٠ .

داري الجديدة في الشماسية / ١٩٦٩

انتقلت في يوم ١٩٦٩/١١/١٠ الى داري الجديدة التي شيدتها في الشماسية (الصليخ القديم) وقد اثثته بما يريحني ويلائم ذوقي ، ولم احشى فيه كثيراً من الاثاث ولا كثيراً من الالوان. وملأت الغرفة التي جعلتها مكتباً لي بما عندي من الكتب وهي كثيرة حتى وصل ارتفاعها الى سقف هذه المكتبة من جوانبها الثلاثة . أما الجانب الرابع فقد علقت على جداره خارطة الادريسي ، وجعلت منضدتي امام هذه الخارطة والخرائط والاطالس توحي لي حين انقل نظري الى صفحاتها كانني اطوف العالم كله بلحظات ، وبخاصة الاطالس التي تعرض فيها مواقع المدن والجبال والانهار والبحار ومسارات الرياح . وبدافع هذا الحس صرت اقتني عدداً وانواعاً من الاطالس ، العربية والاجنبية ..

وكانت غرفة مكتبتي تشرف من جانبها الايسر على حديقة بيتي وغرف الخدم الملصقة بكراج سيارتي ، وتشرف من جانبها الغربي على نهر دجلة والاشجار الكثيفة

التي تنمو على بعض شاطئه ، ومنظر الشمس وهي تنحدر للغروب وراء هذا الجانب من النهر خلاب يثير الشجن . والنهر بحد ذاته وما يطفو على سطحه من طير او قارب كانه حديقة متحركة .. ولم يكن يومئذٍ قد نما من النبت والشجر في حديقتي سوى بضع (نخلات) معمرات . وقد استحوذت هذه على تفكيري ذات صباح في شكلها وطول ساقها الذي ينتهي باعواد سعفها الذي ينتشر بانتظام كما تنتشر اعواد المظلة فاذا هي الى جانب النهر المنبسط تكون جمالاً مثيراً ، وصرت فجأة افكر في التناقض بين جذعها السامق الخشبي وبين اوراق سعفها الفني بالخضرة ، وتساءلت مع نفسي ، كيف يصل من خلال هذا الجذع الماء والغذاء ليبعث الحياة في سعفها الزاهر وفي ثمرها اللذيذ الكثير الفوائد ، فهل يصل الماء اليها من خلال جذعها بالامتصاص ام بفعل اندفاع السوائل بحسب طبيعتها الفيزيائية ؟ وتوقفت عند هذا الحد من التفكير في حياة هذه الشجرة المباركة ، واكتفيت بما استمتع في شكلها واستذكار فوائدها الكثيرة .

وكان جاري على يمين داري هو احد شيوخ الحي واسمه (بلاسم الياسين) وكنت اسمع عنه إلا اني لم اره قبلاً .

وفي يوم كنت اراقب فيه عمل اللمسات الاخيرة من تشييد داري دخل عليّ هذا الشيخ وانا اتحدث الى بعض من يعمل في تركيب ابواب البيت ، وبادرني ذلك الشيخ يقول :

ــ انا بلاسم الياسين ، جارك .

فاجبته باحترام وانا انظر الى قيافته اللائقة :

ــ اهلا ومرحباً بالشيخ بلاسم :

فاذا هو بطول معتدل القامة ، وعلى رأسه اليشماغ والعقال ، وهو ذو ملامح ونظرات هادئة مسالمة ، وتحدثنا ونحن واقفان في مواضيع مختلفة حتى وصلنا الى موضوع داره وداري المتجاورين ، فقال لي :

ــ حين فكرت ان اشتري ارض داري الملاصقة لارض داركم ، سألت عمن سيكون جاري من الجانبين ، فعلمت انه منير عباس على يمين ارضي والدكتور كمال السامرائي على يسارها ، فارتحت الى هذه الجيرة ، وقررت حالاً شراء تلك الارض ودفعت ثمنها لصاحبها (متي الجزراوي) ودون مساومة . وكان المبلغ زهيداً جداً بالنسبة لقيمتها مجاورة لكما .

فقلت له :

ــ يشرفني ياشيخ بلاسم ان اكون جاركم ، ويؤسفني ان لا يكون في وسعي الآن تقديم شيء ما بمستوى زيارتكم الكريمة .

فقال لي بوقار :

ـ تكفي هذه المقابلة اللطيفة ، والضيافات للمستقبل باذن الله .

وسكت برهة ثم قال :

ـ بقي شيء واحد يجب ان اطلعك عليه يادكتور .

فقلت له :

ـ تفضلوا

فقال لي :

ـ ان منفذ خريطة بيتي قد تجاوز على ارض بيتك ببضعة امتار مساحة واني لم اطلع على هذا التجاوز إلا بعد ان هرب المهندس المنفذ الى ايران . وفي ذمته مبلغ غير قليل (واستطرد الشيخ بلاسم يقول) وانا حاضر لاية تسوية ترضيكم ؛ اهدم ركيزة التجاوز ، او اعوض التجاوز باي مبلغ تطلبه .

فاجاني الشيخ بلاسم بهذه المعلومة ، فلم اكن اعرفها قبلاً .

فسألته :

ـ هل يفيدني ذلك التجاوز .

فاجابني :

ـ لا يفيدك ، لانها (يد كونية) .

فقلت له :

ـ الجار اثمن من الدار ، وستكون انت جاري مدى العمر ، فلا اريد عوضاً عنها .

ولما انتهى بناء بيتي جاءني رجالاً بهيئة الفلاحين .

وهم يسحلون خلفهم اربعة (خرفان) ، وقال لي احدهما :

ـ هذه الخراف من الشيخ بلاسم ، كما امرنا ان ننظف بيتكم من مخلفات البناء .

ولم تطل صداقتي مع الشيخ بلاسم مع الاسف فقد توفاه الله بعد بضع سنين ، كما توفي من بعده ابنه مهدي ، ثم آل البيت بعد ذلك الى الدولة ليكون دار ضيافة لمن يزور العراق من الوجهاء والامراء والملوك . واخيراً باعته الدولة بالمزاد العلني فاشتراه التاجر محمد عودة الكبيسي .

مكتبتي الخاصة في داري بالشماسية

يوماً بعد يوم صرت اضم كتاباً على كتاب في احد حجرات بيتي حتى صار لي منها زهاء اربعة آلاف كتاب في مختلف ضروب المعرفة وبخاصة ماله علاقة بالعلوم الطبية

القديمة والعصرية . كما كنت اقتني ومنذ وقت مبكر ما كتب في التراث الطبي العربي وغير العربي . ثم امتدت رغبتي الى اقتناء المؤلفات في التاريخ والبلدانيات والرحلات والتراجم والمعاجم وغير ذلك حتى ضاقت بها مكتبتي فعزلت الكتب الانكليزية في غرفة اخرى في بيتي ، وهكذا صارت لي مكتبتان واحدة في الكتب العربية وهي الاكبر واخرى للكتب الانكليزية . كما صار لي عدد من (صور) الكتب القديمة او الحديثة النادرة انقلها عن مكروفلم احصل عليها من مكتبات العالم التي تهتم بالتراث الانساني .

وكنت اطبع هذه الافلام في دائرة المجمع العلمي لقاء نسخة منها الى مكتبة المجمع . وكنت في مرحلة اقتناء الكتب اندفع الى شرائها حباً باقتنائها ثم ما لبثت حتى صرت احصل عليها باي ثمن لتكون لي مرجعاً في ما اكتبه في التراث الطبي ، وكان اصدقائي حين يدخلون مكتبتي ويشاهدون كثرتها التي تصل رفوفها الى سقف المكتبة ، وما هو مكدس منها على ارضها في انتظار رفعها الى الرفوف او الى الخزانات ، فيسألني بعض هؤلاء الاصدقاء ان كنت قد قرأت جميع هذه الكتب ، فيكون جوابي دائماً بالنفي واضيف انني اقتني هذه الكتب للرجوع اليها اذا احتجت الى معلومات في مادة علمية ليس لي علم كاف بها او لتثبيت فكرة علمية تطوف في خاطري .

واقول ايضاً ، انني اتمنى لو كنت اقدر على قراءتها جميعاً ، ففي اي كتاب منها مادة علمية قد لا اجدها في كتاب آخر ، فالمكتبة لا لقراءة جميع ما فيها من الكتب بل هي للرجوع الى بعض كتبها . كما ليس في مكتبتي كتاب لم اتصفحه او لم اقرأ قائمة مضامينه او بعض فصوله ، ويسالني آخرون ممن يدخل مكتبتي عما يكلف شراء هذه الكتب ، واكتفي بقولي له : ان الكتاب الذي اشتريه يأتيني بمردوده لحظة ابدأ اتصحفه امام بائعه او على الاقل حين اقرأ محتوياته قبل ان ارفعه الى مكانه في رفوف هذه المكتبة ، ولهذا فانا اعرف اختصاص ومضامين اي كتاب في مكتبتي .

وقال لي صديق حين دخل مكتبتي (الا يكفي ان تكون مكتبتك في اختصاصك الطبي ؟ فاجبته : (ولكن مضامين كثير من هذه الكتب لا تبتعد كثيراً عما اريد تحقيقه في تاريخ العلوم ، وتاريخ الطب بشكل خاص ، واني ارى ان كتابة اي بحث علمي لا ياتي متكاملاً ما لم يمهد له بمقدمة تاريخية في منشأه ومسيرته عبرالزمن ، فانا احتاج الى هذه الكتب ، وابقى احتاج الى مزيد منها ، فقد اجد في كتاب ما لا اجده في كتاب آخر ، إن لم يكن ذلك في مادته العلمية ففي منهجه او في صياغة متونه وتنوع مصادره .

واشار كثير من ضيوفي باستغراب وانتقاد الى تراكم الكتب على منضدتي ، وهو امر

بالنسبة لي لا مفر منه ، فحين اشرع في كتابة بحث احتاج الى مراجع من كل صنف في العلوم ، فالتقط كتاباً من خزانة الكتب التاريخية ، وكتاباً من خزانة الكتب البلدانية ، وآخر من خزانة الكتب المعجمية وهكذا لاقرأ بعض فصولها لعلي اجد ضالتي فيها مما يفيدني في كتابة بحثي ، ولهذا تتكدس الكتب على منضدتي في انتظار ارجاعها الى مكاناتها ، وقد لا ارجعها إلا بعد ايام ، لاستمرار حاجتي اليها في اتمام بحثي .

وعرف بعض اصدقائي ضخامة مكتبتي فصاروا يستعيرون بعضها مني ، او يطلبون مني ان اجد لهم مصادر في مكتبتي في موضوع يريدون الكتابة فيه ، وقد لايعاد الكتاب اليّ ، وانسى انا الصديق الذي استعاره مني ، وقد تكرر ذلك اكثر من مرة واني لاتألم حين اذكر الآن ان زميلاً استعار مني كتاباً باللغة الانكليزية (في تاريخ الامراض النسائية والتوليد) لمؤلف امريكي اسمه (جيمسون) ولم افتقده إلا بعد ان احتجت الى مراجعة بعض فصوله ، فحزنت بألم على ضياعه ، واعتزمت يوماً ان اعلن في الصحف المحلية رسالة اخاطب بها هذا الصديق الذي نسي او تناسى ان يعيد الكتاب اليّ غير انني عدلت عن تنفيذ هذه الفكرة لا لعدم جدواها فقط بل حذاراً من ان تعد هذه الطريقة ادعاءً مني باهتمامي بالكتب ، او على ضخامة مكتبتي . وراسلت مكتبة (هيروسوفيل) العالمية التي تعنى بمثل هذا الكتاب القيم والكتب التراثية ، لتجد لي نسخة من الكتاب الذي فقدته ، فاذا في جوابها انه من الكتب غير التجارية في الوقت الراهن بل يوجد في المكتبات الخصوصية فقط ، او في تركات المتوفين حين تباع في المزاد العلني .

ويوماً دخلت مكتبتي سيدة انكليزية ، زوجة استاذ كبير في جامعة نوتنكهام بانكلترا ، فاثنت على اهتمامي بالكتب والمحافظة عليها . واعرف ان لزوجها الاستاذ (لويس) مكتبة ضخمة تعنى هي بالاهتمام بها وازالة الغبار (على قلته) عنها . وقالت لي فيما قالت وانا وهي واقفين في وسط مكتبتي .

ــ ان زخرفة كعوب الكتب تجعل المكتبة كالحديقة الجميلة بالوان واشكال ازهارها الزاهية .

وكانت ملكيتي قريبة مما وصفت به مكتبة زوجها ، فعددت ذلك مديحاً لي ولذوقي ، فأخذني زهو وارتياح محا كل من انتقد الاضطراب في مواضع كتبي الكثيرة وفي تنوعها وابتعاد مواضيع بعضها عن العلوم الطبية ، فقلت لهذه السيدة .

ــ اني اتعمد في جعل كعوب كتب مكتبتي مختلفة اللون والتزويق ، فذلك يساعدني على ايجادها بسهولة بين الكتب الكثيرة في الرف الواحد . فسألتني :

ــ لماذا لاتلصق بكعوبها ارقاماً تسلسلية بحسب جردها في دفاترك عن محتويات

المكتبة .

فقلت لها :

ــ ان ذلك يضيع من جمال كمويها .

فقالت :

ــ هذا صحيح ، في المكتبات الخصوصية .

« انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع »

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : ابراهيم عبد الرزاق

السعر : (٣٠٠) دينار

بغداد - ١٩٩٦

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

فهرس موجز للجزء الثالث

الصفحة	المقالة
5	صيف وشتاء على سطح واحد 1960
15	صديقي الدكتور (ن) 1960
21	وفاة الدكتور هاشم الوتري 1961
28	بداية كتابة هذه المذكرات 1961
30	وفاة الدكتور فائق شاكر 1962
33	الى قرية برمانة بلبنان 1962
40	جميلة خان وجميل الزهاوي 1962
42	السيدة الأمريكية 1962
47	كابوس صيف 1962
53	زيارة الى القاهرة 1962
58	مع عبد الكريم قاسم ومظاهرات ضده 1962
63	مقتل الكريم قاسم 1963
74	في مطار المثنى 1964
76	اول جائزة تقديرية 1964
117	الى نيو شاتل وبودري في سويسرا
120	الى جنوة بايطاليا
128	عن التدخين 1965
130	هاشم الوتري وقاسم الرجب 1965
137	مئذنة سوق الغزل وجامع الخلفاء 1965
150	في ادنبرة ومانجستر 1965
167	شبح الخطيئة 1966
170	الدكتور كرجي ربيع واهله يهربون الى امريكا 1966
178	السعوديون والكويتيون 1966
195	يوم النكسة في الحرب مع اسرائيل 5-6-1967

وفاة الدكتور جلال العزاوي 1967	**201**
اطول استشارة طبية 1968	**217**
مكتبتي الخاصة في داري بالشماسية 1969	**229**

تنويه: هذا الفهرس الموجز ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى رؤوس المواضيع . م. سرمد حاتم شكر السامرائي